مجلّة

المجمع الجزائري للّغة العربيّة

مجلة لغوية علمية محكمة تصدر عن المجمع الجزائري للغة العربية

العدد الثامن عشر السنة التاسعة صفر 1435 هـ ديسمبر 2013 م

مجلة المجمع الجزائري للغة العربية

العدد 18 السنة التاسعة : صفر 1435 هـ ديسمبر 2013 م

مجلة المجمع الجزائري للغة العربية

مجلة لغوية علمية محكمة يصدرها المجمع الجزائري للغة العربية

المدير المسؤول

د. عبد الرحمن الحاج صالح

رئيس التحرير

عثمان شبوب

اللجنة العلمية

د. محمد صاري

د. أحمد حساني **د. التواتي بن التواتي**

د. بشير إبرير **د. عبد الجليل مرتاض**

عنوان المراسلة : 06 شارع العقيد بوقرة - الأبيار - الجزائر

البريد الالكتروني : aala@wissal.dz

هاتف : 213 021.23.07.90 الفاكس : 213 021.23.07.81

* المقالات التي ترد إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أولم تنشر
* كل باحث مسؤول عن آرائه

محتويات العدد

1 - الذخيرة العربية ودورها في شيوع المصطلحات وتوحيدها

أ.د. عبد الرحمن الحاج صالح 9

2 - تجديد البلاغة

د. أحمد مطلوب 23

3 - تجليات تحول المجتمع الأندلسي في شعر الهجاء

د. عبد القادر هني 51

4 - مخالفة الأصل في أبنية المشتقات

حالية بنت محمد إبراهيم شيبة 83

5 - الصورة الأدبية من منظور الشعرية اللسانية العربية

د. خالد بوزياني 117

6 - قراءة في موقف عبد القادر الفاسي الفهري من «التراث» و «اللغة العربية» في كتابه: «اللسانيات واللغة العربية»

د. حميدي بن يوسف 133

7 - (كأين) تأصيلها ولغاتها والقراءات فيها، ومعناها

أ.د. سعد حمدان الغامدي 149

8 - ملخص معجم اللغة العربية التاريخي بين آمال الإعدادِ ومقدماتِ الإنجاز

أ.د. صادق عبد الله أبو سليمان 175

الذخيرة العربية ودورها في شيوع المصطلحات وتوحيدها

للأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح
رئيس المجمع الجزائري للغة العربية

1) انجاز المحتوى الرقمي العربي بالذخيرة العربية

إن الفوائد التي يجنيها يوميا المستغلون للانترنت جدّ معروفة لديهم وخاصة الشباب. ومع ذلك فإن أغلب المثقفين العرب ومنهم الكثير من المسؤولين الكبار لا علم لهم بهذا لأنهم لا يستفيدون بمنافع هذه الوسيلة التقانية[1] العظيمة وبالتالي لا يعرفون أبعاد هذه الفوائد وعائداتها: أولا على اللغة العربية وثانيا على المستوى العلمي للمواطن العربي. هذا بقطع النظر عن الفوائد المتنوعة ومنها الاجتماعية والإعلامية والإدارية وما يخص الخدمات والمحتوى المتعلق بالحكومة الإلكترونية وما يرجع إلى تسهيل التعامل الاقتصادي والتجاري خاصة.

فأما ما يخص الثقافة والعلوم فالميدان التعليمي والتدريبي الذي يلقب بالانكليزية بـ e- learning فهو من أهم الميادين التي تساعد على رفع المستوى لأن الانترنت إذا انتشر اللجوء إليه فهو من الوسائل الجبارة لنشر المعرفة العلمية والخبرة المهنية إلى أبعد الحدود وأوسع المجالات.

ويعود ذلك على اللغة التي تنشر بها العلوم والتكنولوجيا ويتعامل بها في سائر الميادين الاجتماعية بعائدات لا يقدر لها تقدير إذ تصير اللغة العربية

مطلوبة عند الجميع ويكون إقبال الناس عليها كإقبالهم على تعلم اللغة الانكليزية في زماننا هذا. وهي الآن السائدة لأسباب مختلفة وبالتالي انفرادها غالبًا بالمحتوى الرقمي دون غيرها.

وليس الأمر كذلك بالنسبة للكثير من اللغات ولا سيما اللغة العربية. ويبين عدد الصفحات على الانترنت كما هو معروف أنها قد بلغت بالانكليزية مئات الملايير وتفوق نسبتها 68,4 %. ثم يأتي المحتوى باليابانية 5,9 % وبالألمانية 5,8 % والصينية 3,9 % والفرنسية 3% الخ . أما المحتوى العربي الآن فلا يتجاوز 0,1% من المحتوى العالمي. ويبين أهمية اللغة أيضا عدد مستخدمي الانترنت بالنسبة إلى اللغة الواحدة. فمن يستخدمه بالانكليزية فعددهم 228 مليون شخص وبغيرها 339. أما عدد المستخدمين باللغة العربية فلا يتجاوز 1,4 % من مجموع المستخدمين هذا في 2006[2] وقد لاحظنا تطورا سريعا في عددهم منذ ذلك الوقت إلى الآن أي في سنة 2013 إلا أنه لا يتجاوز التطور الخاص بالدول التي ليس لها شأن في الاقتصاد وفي العلوم. ثم إن المحتوى العربي الموجود الآن لا يناسب أبدا عدد المستخدمين الذي هو 1,4 % كما مر بنا. أما المستخدمون بالعربية فيتكاثرون يوما بعد يوم دون أن يستجيب لهم المحتوى العربي وهذه كارثة عظيمة إذ ما يضمن المستقبل للأمم هو الحصول على المعرفة على أوسع نطاق (عامة الناس لا خاصتهم).

وقد بادرت الأسكوا (اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا) إلى ضبط إستراتيجية لتحديد المهام الرامية إلى صناعة المحتوى العربي وذلك في عام 2003. وأقيمت دراسات أفضى أصحابها فيها إلى القول بضرورة إيجاد بنية تمكينية (قانونية ومالية) لصناعة المحتوى الرقمي على

المستوين الإقليمي والقومي وضرورة التعاون بين الحكومات وما يتبعها من المؤسسات العلمية مع إشراك القطاع الخاص.

وحصلت مبادرات من بعض الجهات من الحكومة في بعض البلدان كوزارة الاتصالات المصرية في 2005(بالإضافة إلى وزارة الثقافة واتحاد الناشرين وغيرهم) «في تطوير المحتوى الرقمي» ومبادرة أخرى من حكومة دبي في الإمارات العربية المتحدة تخص تطوير الحكومات الإلكترونية.

كما بادرت بعض الشركات بصنع محركات البحث المناسبة (التي تساعد على الحوار مع الذخيرة). منها شركة صخر وهي معروفة اليوم في السوق إلا أنها لا تغطي أهم الاحتياجات التقنية. وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى كل محركات البحث الحالية فهي لا تصل إلى ما وصلت إليه ما يوجد منها لصالح اللغات الأجنبية من الشمولية والنجاعة. وهذا يقال أيضا عن الماسحات (Scanner) فإن البرمجيات الخاصة بالتعرف على الكتابة العربية لا تساوي ما حققته الشركات الغربية بالنسبة للخط اللاتيني.

ويحسن أن نشير أن بعض المؤسسات قد جعلت تحت تصرف الجميع مجانا ما صنعته من هذه المحركات مثل شركة جوجل الأمريكية وغيرها.

ومنها المبادرة التي جاءت من الجزائر والتي تسمى بمشروع الذخيرة العربية أو الانترنت العربي وهي تجمع شمل العرب بوجودها كمنظمة في جامعة الدول العربية. والغريب أنه مشروع لا يعرفه الكثير من المثقفين والاختصاصيين وخاصة الأسكوا[3] وسائر الذين يدعون إلى صناعة المحتوى الرقمي العربي.

وذلك على الرغم من وجود موقع له أنشأته اللجنة الوطنية الأردنية لما قامت به من الرقمنة أو التخزين عامة للنصوص. وعلى الرغم من وجوده

كمؤسسة تابعة لجامعة الدول العربية، فقد صوت المجلس الوزاري للجامعة بالإجماع على تحويل المشروع إلى منظمة حكومية في عام 2008. وتم ذلك في سنة 2009.

إن «الذخيرة العربية» تخص التعليم الذاتي والتدريب من جهة وهي من جهة أخرى مدونة ضخمة جدا (قابلة للتجدد وللزيادة باستمرار وعلى ممر الأيام) للتراث العربي الإسلامي ولجميع ميادين العلوم والتكنولوجيا الحديثة وهي مفتوحة على الخارج على الدوام. ولهذا تحتاج إلى القيام باستمرار بأعمال واسعة جدا وهي الترجمة العلمية لأحدث البحوث التي تنشر يوميا. وهذا يقتضي التجنيد الشامل لكل المؤسسات العلمية التي تحتوي على من يتقن الترجمة للإسهام الدائم في هذا العمل.

أما فيما يخص الجوانب الأخرى من المحتوى الرقمي فلا تمتنع الذخيرة من قبوله إلا أنه يُعتبر المستوى العلمي والثقافي للمواطن العربي -على أوسع مستوى في الوطن العربي- هو الهدف الأخطر ولهذا يجب أن ينفرد هو عن غيره مع التأكيد على ضرورة تكميله بالجوانب الاقتصادية وغيرها.

ولذلك سيكون القسط الثقافي العلمي التعليمي هو الأكبر بكثير لأنه سيغطي كل الحقول الخاصة بالمعرفة العلمية والتقنية ولهذا يحق أن تكون له حصة الأسد في العناية به وتمويله وتحديثه على الدوام.

وبه ستنهض اللغة العربية بنقلها للعلوم في أحدث صورها وستصل إلي الباحث العربي البحوث العلمية في أي بلد كان فيحصل عليها بعد صدورها بوقت وجيز ولا ينتظر لذلك السنوات العديدة كما هو الحال في زماننا هذا. وهو من الأسباب الأولى للتأخر العلمي للعرب والعالم الثالث عامة.

فقيمة اللغة في قيمة ما تنقله من معلومات فاللغة التي لا تصلح إلا لنقل المعلومات التي مضى عليها الزمان ولا تستجيب لمتطلبات العصر فهذه اللغة صائرة إلى الزوال أو التهميش التام. وقد ينفر منها لذلك أصحابها أنفسهم لعدم قيامها بدورها. والذنب ليس هو ذنبها في الحقيقة.

هذا وخلافا لما يعتقد فإن المثقفين العرب لا يتقنون اللغات الأجنبية إلا القليل منهم. ومن لا يتقن الانكليزية في زماننا فهو معوّق لأنه محرّم خاصة من اللجوء إلى الانترنت. فهذا سبب قوى لجعل الانترنت عربيا حتى يستفيدوا منه كسائر من له القدرة على ذلك.

ثم إن المصطلحات العلمية والتقنية باللغة العربية لم يتمكن المستخدمون لها ولا المجامع العربية من توحيدها إطلاقا. فسادت الآن بلبلة في الميدان العلمي بهذا السبب وهذا خطير جدا. ولذلك لا بد من انترنت عربي يكون محتواه يعكس الاستعمال الحقيقي للغة العربية. وستتوحّد بذلك المصطلحات تلقائيا كما سنراه فيما يلي. ثم إن الذخيرة العربية هي بنك نصوص لا بنك مفردات. والنصوص هي الاستعمال نفسه إذا كثر حجمها وتنوعت مصادرها وموضوعاتها إلى الكمية الكافية لتمثيل الاستعمال الحقيقي.

2)مشروع تحقيق شيوع المصطلح العربي وتوحيده بالذخيرة

إن المصادر الثلاثة لشيوع الألفاظ وانتشارها انتشارًا واسعًا هي: الأُسَر المثقفة والمدرسة والجامعة ووسائل الإعلام. وتعتبر كل واحدة منها بؤرة لإشعاع ألفاظ اللغة. وقد جرّبنا ذلك ولمسناه في وضعنا لما سمي بالرصيد اللغوي الوظيفي في المغرب العربي (من سنة 1975 إلى 1980). فقد اتفقت

الحكومات المغربية الثلاث على إنجاز هذا المشروع وأنفقت عليه الأموال وجندت الخبراء من أجله. ولهذا كان من السهل أن تحاول إدخاله في التعليم. والذي علمناه هو أنه قد تم إدماجه بالفعل في الكتب المدرسية الجزائرية وعمل به المعلمون تحت رعاية مفتشي وزارة التربية.

وهكذا شاعت وانتشرت عند الأطفال كل الكلمات التي لم يكن لها لفظ دال من أصل عربي. وقد تعلم الآباء والأمهات ما كان يروج على لسان الطفل. ومن ثم انتقل إلى الجرائد والإذاعة والتلفزيون. والذي زاد جمهور الناطقين اهتماما بهذه الألفاظ هو وجودهم إياها أولا بهذه السهولة وكونها تغطي فراغا إذ قد لا يوجد ما يقابله إلا الأعجمي أو اللفظ العامي المغرق في العامية[4].

ومن هذه الألفاظ نجد الكثير مما يهم الطفل مثل الملابس والمآكل والملاهي ووسائل النقل والأدوات والأجهزة مما ظهر في زماننا هذا. فقد اشتهر في وسط التلميذ في الجزائر مثل اللُّمْجة للأكل الخفيف الذي يأكله بعد الظهر (Snack = goûter) والمَعامة (على قياس منامة) وهو لباس للعوم والطريق السيار أي الطريق السريع (Freeway= Auto- route) وغير ذلك كثير.

فاشتركت ههنا الأسرة مع المدرسة لتسيير هذه الألفاظ في وسط الأطفال أولا. ثم أوساط البالغين بدون شعور منهم. ومثل هذه المسميات لا يجد لها الناطق مقابلا عربيا غالبا حتى في المعاجم الحديثة المزدوجة اللغة (إلا بترجمة للفظ الأجنبي غالبا). وقد تساءلتُ منذ أكثر من ستين عاما لماذا لا تساعد الحكومات على ترويج ما تضعه المؤسسات العلمية مثل المجامع اللغوية والمؤلفين الأفراد وقد يكون ما يرتجلونه مناسبا تماما.

فالأمر يرجع في الأخير إلى ما يشيع في استعمال الناطقين والمؤلفين إذا استوفى المصطلح شروطا معينة كان بعض الاختصاصيين قد رسموا لها رسوما في الثمانينيات الماضية[5].

أما في زماننا هذا فقد تطورت وسائل الاتصال وتكنولوجيات المعلومات عامة بكيفية مدهشة ولا ينبغي أن نتجاهل القدرة العظيمة التي يتصف بها مثل الحاسوب وكل ما يتعلق به من أدوات لتخزين المعلومات واسترجاعها وحصرها وإجراء البحوث فيها. وفي أواخر هذا القرن المنفرط ظهر ما سماه أصحابه بالانترنت أي الشبكة الاتصالية التي دخلت الآن البيوت بعد أن كانت تنفرد بها منذ سنوات معدودة بعض الأوساط وهي موجودة الآن في الفنادق يستخدمها الناس مجانا. ولم تدخل بعد في الكثير من الإدارات في البلدان العربية والطامة الكبرى هي ألا يمكن للطفل والطالب أن يجدها في المؤسسة التي يدرس فيها.

فقد تضاعفت بالحاسوب والانترنت قدرات الأفراد والجماعات مضاعفة لم يشاهد لها مثيل. وقد عم استعماله بحيث صارت كل المعلومات أيا كان نوعها تنشر بالشبكة انتشارًا شاملا وسريعا. وكان من المحتوم أن تتغلب على غيرها من اللغات لغة الدولة السائدة على العالم. كما سبق أن ذكرنا ذلك.

فإنجاز «المحتوى العربي» أصبح اليوم من الضرورات الحيوية التي لا مناص من تحقيقها في العاجل لا في الآجل البعيد. وهذا يقتضي أن تتولى مؤسسة دولية التنسيق بين كل الأعمال القائمة الآن برقمنة النصوص وهي مبعثرة يقوم أحدهم بعمل على نص معين وقد سبقه غيره فصارت فوضى شاملة. فنحن نريد بالذخيرة العربية أن ننسق بين جميع المحاولات

العربية في شتى البلدان العربية لتفادى الازدواج في العمل وتفادي ضياع الوقت والأموال. ولذلك اجتهدت بعض الدول العربية – منها الجزائر- لجمع الصفوف لهذا الغرض كما سبق ذكره.

فلا بد من النظر إلى الذخيرة من جانبين:

فالذخيرة، كمدونة أولا، يتراءى فيها بوضوح الاستعمال الحقيقي للغة والمصطلحات.

ثم الذخيرة كوسيلة اتصال وتفاعل ثانيا مع جماهير المستعملين للمصطلحات.

أما الجانب الأول فينبغي أن نتأكّد أنَّ ما سنجده في الذخيرة هو الاستعمال الفعلي للغة العربية. فالواضعون للمصطلحات إلى غاية الآن هم عُمي صُمّ لا يعمهون بالنسبة لهذا الاستعمال فلا يعلمون شيئا مما هو متداول أو غير متداول. فيحكمون على هذا اللفظ بأنه متداول أكثر مع أنه مستعمل فقط في الوسط الضيق الذي يعملون فيه. ويتعصبون له بل ولا يبغون به بديلا. فإذا كانوا أعضاء في مجمع أو لجنة من الخبراء فيقّرونه بكل ارتياح متجاهلين تماما الوضع الحقيقي الذي يتصف به في مجموع البلدان الناطقة بالعربية.

ولهذا كان يجب أن توضع مدونة واسعة النطاق تغطي بالفعل كل الاستعمال في كل البلدان العربية لا في بلد واحد ولا في وسط علمي واحد. ولا سبيل إلى معرفة الاستعمال إلا بمدونة تكون في مثل هذه الأوصاف: أن تحتوي على ملايير النصوص الصادرة من كل الميادين. ثم لا سبيل إلى معرفة الشائع فيها وغير الشائع وما يخص الشيوع في البلد الواحد إلا بمدونة محوسبة يمكن أن يتعامل معها بالسؤال والجواب ولا يمكن

مسح مئات الآلاف من الكلم إلا بالحاسوب. كما لا سبيل إلى معرفة مدلول المصطلح وما قصدوا منه في الاستعمال اليوم أو فيما مضى إلا بالسياقات ولا يمكن أن يجمع هذه السياقات إلا الحاسوب[6].

فعندما يكتشف السائل للذخيرة أن كلمة مثل «المجموعة» (الرياضية) هي مستعملة في أكثر البلدان العربية وان «الفئة» التي تأتي بهذا المعنى أقل منها بكثير. فإنه سيختار المجموعة وكذلك هي المصطلحات التي تحظى بشيوع أكبر. فهذا عامل من عوامل التوحيد الموضوعي غير المبني على الميل الذاتي أو التعصب للجهة الواحدة. ولو لم توضع مثل الذخيرة تحت تصرفهم لما أمكن ذلك[7].

هذا يخص المفاهيم التي لها أكثر من مقابل عربي (وغير عربي) في الاستعمال وتوحيدها سيحصل بعد اللجوء الشامل إلى الذخيرة. أما ما يضعه أو تقره المجامع اللغوية وما يحاول أن يوحده مكتب تنسيق التعريب وغيره من المؤسسات فهذا قد يكون موجودا في الاستعمال بجانب ألفاظ أخرى فيدخل في الفئة السابقة. أما ما لم يدخل بعد في الاستعمال فإنه يجب على من ذكرنا من الواضعين أن يراجعوا تماما الطريقة التي تعوّدوا أن يسيروا عليها لأن سنة الارتقاء التكنولوجي تفرض علينا هذه المراجعة. وذلك لأنه يؤدي إلى مجرد إقرار لمصطلحات، من عدة جهات، بوضعها في معجم دون أي اعتماد قانوني ودون أن نضمن دخولها في الاستعمال. ثم مهما بلغ علم هؤلاء الإخوان وخبرتهم فهم قلة – ولا يمكن أن يسير الأمر مثل ما هو معمول به في السياسة من تمثيل بعض الأشخاص لجمهور المواطنين. فاللغة وضع واستعمال[8].

ولهذا نقترح اللجوء إلى الوسائل التالية:

- فلا بد من التنسيق الدقيق الشامل بين جميع المؤسسات العلمية التي تهتم بالعربية.

فأعلى مؤسسة وأكثرها تمثيلا للبلدان العربية هي اتحاد المجامع اللغوية العربية. فيجب أن يوكل إليه هو وحده الإقرار القانوني للمصطلحات وأن تلتزم كل دولة باستعماله في مؤسساتها هي دون غيرها.

وتوزع الأعمال والدراسة العلمية على كل المجامع بالتعاون المنظم والمخطط مع الجامعات ومراكز البحث وينسق بينها الاتحاد. ويكون مكتب تنسيق التعريب هو الأداة العلمية التقنية اللازمة التي يستعين بها اتحاد المجامع في ميدان المصطلحات وما إليها.

وفي كل الأحوال لا يكتفي في التوحيد على لجان من الخبراء بل ينظر قبل كل هذا إلى ما هو موجود في الاستعمال عن طريق الذخيرة وفي مدى الشيوع لكل المصطلحات.

-**التعامل مباشرة بطريق الذخيرة** مع المعنيين بالأمر (جمهور المختصين بكل ميدان علمي من أساتذة وباحثين ومحترفين وغيرهم) وجمهور المتعاملين بالمصطلحات وهم المستعلون من جهة أخرى.

- **تحقيق حوار دائم** مع الذين يتعاملون بالمصطلحات لا بعدد محدود منهم وذلك بتنظيم استفتاء دوري عن طريق الذخيرة وفيما يخص ألفاظ الحضارة فبالتلفزيون زيادة على الذخيرة لأن الاهتمام به يشمل كل فئات الأمة. وهذا يقتضي أن تعرض على هؤلاء المختصين في الأول قوائم المصطلحات (بتحديدها والمقابل الانكليزي والفرنسي كما يفعل المكتب)، ويقوم المكتب بعد ذلك بدراسة الآراء ثم إحصاء النتائج الخاصة

بالاستفتاء وهو يشمل المختصين والمستعملين جمعاء كل ذلك عن طريق الذخيرة.

-**قبل إجراء كل استفتاء إلقاء حديث تفسيري وتوضيحي** حول كل قائمة من المصطلحات مقترحة والموازنة بين أكثر من مصطلح كل هذا بطريق الذخيرة.

ولابد بعد الحصول على القوائم النهائية التي حظيت برضى المتعاملين بها وإقرار اتحاد المجامع أن يصدر قرار حكومي في كل بلد لإقرارها وإلزام استعمالها في المدارس والجامعات وسائر المؤسسات. **لأنها صادرة من الأكثرية** وبعد الدراسة الواسعة.

-أما فيما يخص وضع المصطلحات الجديدة من جهة أخرى فلا يمكن أن نكتفي بالطرق التقليدية وهو البحث بالأيدي العزلاء في القواميس القديمة عن اللفظ المناسب. بل لابد في ذلك من الرجوع إلى نصوص التراث المتعلقة بالميدان المعيّن ولا يسع لنا ذلك إلا بالذخيرة. فلا ينبغي أن نكتفي بالشواهد القليلة التي تأتي بها المعاجم. ثم إن المعاجم لا تقدر أن تخبرنا عن شيوع الكلم قديما وحديثا مثل المدونة المحوسبة من النصوص كما مرّ بنا. فكل ما جاء في الاستعمال الفعلي القديم والحديث يمكن أن يُعثر عليه في هذه الذخيرة ولا نتصور أن يتم أي عمل **لصنع المعجم التاريخي** للغة العربية إلا بالرجوع إلى مثل هذه المدونة المحوسبة[9].

ومن ثم أيضا إمكانية الحصول على أي معلومة تخص العربية واستعمالها الحقيقي عبر القرون وفي عصرنا هذا بفضل الحوسبة للنصوص. وكيف يمكن أن يُنجز أي معجم يُراد أن يكون مبنيا على أسس

علمية بدون أن نعرف مدى استعمال الكلم وكثرة ترددها في التأليف الواحد وأكثر من واحد .

ونؤكد في الختام أن الذخيرة حتى ولو تمادى المسؤولون في كل بلد في عدم الالتفات إلى هذا الميدان فإنها قادرة أن تتوحّد بها وفيها المصطلحات العلمية وغيرها من ألفاظ الحضارة من تلقاء نفسها لأن المستعمل سيسأل عن وجود لفظة بالعربية لمفهوم علمي فيختار من بين الوحدات العربية الفصيحة المعروضة عليه الشائع منه والمتداولة تداولا واسعا.

ولهذا ندعو المسؤولين المعنيين أن يساعدونا على توحيد الصفوف وجمع الشمل وتجنيد القدرات ليتحقق هذا الذي نصبو إليه من صنع الجهاز الأكثر فعالية لنشر العلوم بالعربية ومن النهوض بلغتنا وبالمستوى العلمي والثقافي للمواطن العربي.

والله ولي التوفيق

الهوامش:

(1) اصطلح أهل تقانة المعلومات على عبارة «المحتوى الرقمي» للدلالة على ما يحتوي عليه الانترنت وما ينقله من المعلومات بلغة من اللغات. وهو بالضرورة رقمي (Numérisé) لأنه مترجم إلى لغة الحواسيب.

(2) كما جاء في بحث نشر في هذه المجلة في عام 2007.

(3) اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لجنوب آسيا.

(4) نسمع الكثير ممن يهتم بالعربية يتكلمون عن المحتوى الرقمي (عن جهل غالبا لحقيقته) كأنه معجم أو موسوعة احتوى عليه الحاسوب ولا يُدركون أنه مدونة محوسبة كأوسع ما يكون وتمثل بالتالي الاستعمال الحقيقي في المستوى الثقافي والعلمي.

(5) انظر ما حررناه من القواعد لوضع الألفاظ الحضارية والمصطلحات في عام 1975 وذلك انطلاقا من بحوث وتحريات ميدانية. واعتمدت بفضل المرحوم أحمد الأخضر غزال في ندوة عقدت في الرباط عام 1981.

(6) فمثل هذا الحاسوب الذي له هذه القدرة (وسيفوق كل ما يمكن أن يتصور) يوجد منه الملايين في العالم وخاصة في مؤسسة جوجل لنقل المعرفة وعرض المعلومات على من يطلبها (وسموه بـServer أي الخادم! أو المخدم).

(7) هذا ولا بد من التعريف بالذخيرة للمقاييس الأساسية الموحدة لاختيار اللفظ (نذكر منها: أن يكون عربي الأصل فيفضَّل على غيره وقد لا يوجد لفظ عربي يمكن أن يتغلب على الأعجمي مثل كلمة الكترونيك (فإن لها هالة لدلالتها على ميدان يثير الإعجاب) فلا مفرّ من قبوله. والثاني هو أن يكون شائعا في أكثر من بلد وغير ذلك.

(8) والاستعمال يخضع لقوانين طبيعية واجتماعية خاصة يجهلها أكثر الواضعين. فالمبدأ الأساسي هو الانطلاق من الذخيرة العربية والرجوع إليها كمرجع موثوق.

(9) ومن ثم أهمية اشتراك كل الدول العربية في صنع هذه المدونة مع استمرار إثرائها على مر الأيام.

تجديد البلاغة

الدكتور أحمد مطلوب
رئيس المجمع العلمي العراقي- بغداد

(1)

كانت البلاغة في دور نشأتها ملاحظات عامة تأتي إيضاحا لفكرة، أو تعليقا على عبارة، وتجلت تلك الملاحظات في كتب التفسير واللغة والأدب، مثل (معاني القرآن) للقراء (207 - هـ) و(مجاز القرآن) لأبي عبيدة (208-هـ) و(البيان والتبيين) و(الحيوان) للجاحظ (255- هـ) حتى إذا ألف ابن قتيبة (276-هـ) كتاب (تأويل مشكل القرآن) بدأت الفصول تعقد لفنون البلاغة، ثم جاء بعده ابن المعتز (296-هـ) وألف كتاب (البديع) بعد أو وضع أُستاذه ثعلب (291-هـ) كتاب (قواعد الشعر). وهدف ابن المعتز في كتابه إلى جمع فنون البلاغة، وإثبات أن البديع لم يكن فنا طارئا في العصر العباسي، وإنما هو قديم ورد في الشعر الجاهلي، والقرآن الكريم، وكلام المتقدمين، وجعله قسمين:

الأول: أطلق عليه اسم البديع، وهو خمسة فنون: الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، وردّ أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي.

الثاني: سماه محاسن الكلام وهي ثلاثة عشر: الالتفات، والاعتراض، والرجوع، وحسن الخروج، وتأكيد المدح، وتجاهل العارف، والهزل يراد به الجد، وحسن التضمين، والتعريض والكناية، والإفراط في الصفة، وحسن التشبيه، ولزوم ما لا يلزم، وحسن الابتداء.

وكان هذا التقسيم منطلقا للبلاغيين الذين جاءوا بعدَ ابن المعتز، وكان كتابا (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجاني (471- أو 474هـ) خير ما أنتجته عبقرية الجرجاني، إذ توقفت البلاغة بعده على يد سراج الدين يوسف بن أبي بكر السكاكي (626-هـ) الذي أفرد القسم الثالث من كتابه (مفتاح العلوم) للبلاغة التي عرفها بقوله: " هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب معها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز، والكناية على وجهها"[1] ، وقسمها إلى قسمين:

الأول: علم المعاني وهو" تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل به من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره".

الثاني: علم البيان وهو " معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة في مطابقة الكلام لتمام المراد منه"[2].

وألحق بهما قسما ثالثا سماه وجوها " مخصوصة كثيرا ما يصار إليها بقصد تحسين الكلام" [3] ، وهو القسم الذي سماه بدر الدين بن مالك (686-هـ) علم البديع، وجعله ثلاثة أقسام: الراجعة إلى الفصاحة اللفظية، والراجعة إلى المعنوية، والراجعة إلى المعنوية إما مختصة بالإفهام والتبيين، وإما مختصة بالتزيين والتحسين [4].

وساد هذا المنهج الدرس البلاغي بعد ذلك على الرغم من وجود ثلاثة اتجاهات بلاغية، وهي:

الأول: اتجاه المشرق العربي المتمثل في كتابي (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) و (الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور) لضياء الدين بن الأثير (- 637 هـ) و (البرهان في إعجاز القرآن أو(بديع القرآن) و (تحرير التحرير) لابن أبي الأصبع المصري(654-هـ) و(نضرة الاغريض في نصرة القريض) للمظفر المفضل العلوي(656- هـ).

الثاني: اتجاه المغرب العربي المتمثل في (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) لحازم القرطاجني (- 684 هـ)، و (الروض المريع في صناعة البديع) لابن البناء المراكشي (- 721 هـ) و (المنزع البديع في تجنيس أنواع البديع) لأبي محمد القاسم السجلماسي (- نحو 730 هـ).

الثالث: اتجاه البديعيات وهي كثيرة منها بديعيات: علي بن عثمان الاربلي (- 670 هـ) وصفي الدين الحلي (750- هـ) وابن جابر الأندلسي (- 780 هـ) وعز الدين الموصلي (- 789هـ) وزين الدين الآثاري (828 هـ) وابن حجة الحموي (837- هـ) وجلال الدين السيوطي (911- هـ) وعائشة الباعونية (- 922 هـ) وابن معصوم المدني (- 1117 هـ) وعبد الغني النابلسي(1143-هـ).

ولم تسد هذه الاتجاهات التي كانت لها مناهج متميزة في التقسيم والعرض والاستشهاد، وساد منهج السكاكي الذي تجلى في تلخيصاته وشروحه الكثيرة[5].

(2)

هذا ما كان عليه الدرس البلاغي، حتى إذا أطل العصر الحديث أريد البلاغة أن تتجدد، وكان أول مظهر للتجديد تدريس كتابي (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجاني، في الأزهر الشريف بتوجيه الإمام محمد عبده (1905-م) الذي أشرف على طبع الكتابين ووجّه بتدريسهما. وظهرت بعد ذلك كتب مدرسية لم تخرج عن الكتب القديمة إلا ما جاء في بعضها من تيسير في العرض والشرح. ولم ينهض أحد للنظر في واقع البلاغة غير أن الشيخ أمين الخولي (1966-م) نهد لذلك منذ عام 1930م، وألقى محاضرات في تجديد البلاغة، وأثر الفلسفة فيها، وتأريخها في مصر، وكتب مادة (البلاغة) في الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية وأوضح معالم حياتها وتجديدها[6].

وكان كتابه (فن القول) توجيها منهجيا شاملا لبحث البلاغة وخلق مدرسة جديدة، إذ وضع لها ثلاثة أبواب هي:

الأول: المبادئ، ويُدرس فيه تعريف فن القول، وغايته، وصلته بغيره من الدراسات.

الثاني: المقدمات، ويُدرس فيه مقتبسات من القضايا النفسية التي تُعين كثيرا في فهم الأدب وتذوقه، والإحساس بما فيه من روعة وجمال.

الثالث: البحوث، ويُدرس فيه ما يتصل بالكلمة من حيث عنصر لغوي، وما فيها من إيقاع خلاّب له تأثير في التعبير، كما يُدرس فيه بناء الجملة كالتقديم والتأخير، والحذف، والذكر، والإيجاز، وفي الفقرة وما فيها من فصل ووصل، وفي صور التعبير كالتشبيه والاستعارة والكناية والرمز والإيماء والتورية.

هذه خطة الخولى في منهج البلاغة، وهي خطة قابلة للتغيير والتعديل، يحذف منها أو يضاف إليها، ليظل الدرس البلاغي ((صدى لحياة أهله، وسبيلا لتحقيق غاياتهم في الحياة الوجدانية الراقية))[7].

وكان كتاب(الأسلوب) للأستاذ أحمد الشايب (1986-م) ثمرة خبرة طويلة في دراسة البلاغة وتدريسها، ووضع في ضوء ذلك منهجها الجديد الذي حصره في بابين:

الأول: الأسلوب، ويدرس فيه القواعد الأساسية للتعبير، وهي الكلمة، والصورة، والجملة، والعبارة، وعناصر الأُسلوب وأنواعه وصفاته ومقوماته وموسيقاه. وتدخل في هذا القسم البلاغة، فعلم المعاني يدخل في بحث الجملة، وعلم البيان وأغلب البديع يدخل في باب الصورة.

الثاني: الفنون الأدبية كالقصة والمقالة والرسالة والمناظرة.

هذه خطة الشايب في بحث البلاغة، وقال إنّ بها حاجة إلى وضع علمي جديد، وإلى تخليص مما علق بها من أساليب الفلاسفة ومذاهبهم وألغازهم، فذلك هو الذي أفسدها وحوّلها بحوثا لفظية عقيمة أشبه بالرياضة والكيمياء[8].

ورأى الشيخ عبد الله العلايلي (1996-م) أن تلغى كل مباحث البيان واصطلاحاته سوى التشبيه والكناية، أو الحقيقة والمجاز، ويُدرس علم المعاني في كتاب (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر، و (الكشاف) للزمخشري[9].

وتكلم أدور مرقص على أنواع البديع المقترحة، وردّها إلى الموافقة، والمخالفة، والترتيب، والمبالغة، والاستدراج، والتلميح، وحسن التعليل، والإيهام، والتدقيق، والتوليد، والكلام الجامع، وأدخل في كل جنس من هذه الأجناس ما يتصل به من فنون بلاغية[10].

وحصر أنيس المقدسي البلاغة في ستة أبواب هي: التعادل، والتواطئ اللفظي، والتواطئ المعنوي، والمغايرة، والخروج عن المعتاد، والإيماء[11].

(3)

وقفت البلاغة عند رسوم منهجها الذي اختطه السكاكي، ويُعد أول من قسم البلاغة إلى علمين متميزين هما: علم المعاني، وعلم البيان، وألحق بهما المحسنات اللفظية والمعنوية، والمصطلحان أشار إليهما الزمخشري في (الكشاف) ولكنه لم يدرس بلاغة القرآن في ضوء تقسيم البلاغة إلى علمين لهما مباحثهما التي أرسى السكاكي معالمها، وحدد مصطلحاتها، وأوضح تعريفاتها، وأساليبها. ولا يعني هذا التقسيم أن هذين العلمين منفصلان، ويرى السكاكي أن علم البيان شعبة من علم المعاني لا تنفصل عنه إلا بزيادة اعتبار «جرى منه مجرى المركب من المفرد»، لذلك آثر تأخيره، وكان النظر في هذا المنهج يتجلى في أمرين:

الأول: تقسيمه البلاغة إلى علمين متميزين ووجوه يؤتى بها للتحسين، وفي هذا التقسيم وضع السكاكي حدودا واضحة لكل علم، مما أوقف نمو البلاغة وجعلها قواعد راسخة حتى اليوم.

كان الشيخ علي عبد الرازق (1966-م) أول من انتبه من المعاصرين إلى ما في منهج السكاكي من تضييق بحوث البلاغة وحصر مسائلها، لأن السكاكي «نظر إلى هذا العلم نظرة فلسفية تحدد ما بينه وبين سائر علوم الأدب من النسبة والارتباط، وتميزه عنها تمييزا تاما، وتحصر أبوابه ومباحثه حصرا عقليا حتى لا يبقى محل للخوف عليه من دعيّ دخيل»[12].

ولم يفصل الشيخ في هذه المسألة، وكان الشيخ أحمد مصطفى المراغي قد تعرض لهذه القضية، ولم يَرَ في التقسيم الثلاثي «وجها صحيحا، ولا مستندا من رواية ولا دراية»[13] ؛ لأن القدماء لم يقسموا البلاغة إلى معان وبيان وبديع، ولم يجعلوا تمايزا بين مباحث البلاغة، ورأى أن تكون البلاغة قسمين:

الأول: يبحث في فصاحة النظم، ويسمى (علم معاني النحو) أو (علم المعاني) على سبيل الاختصار.

الثاني: يبحث في فصاحة اللفظ، أو عن معنى المعنى، ويسمى (علم البيان).

وهذا التقسيم تقسيم السكاكي نفسه، فعلم المعاني يبحث في الخبر والإنشاء، والإيجاز والإطناب، والفصل والوصل، والقصر، وعلم البيان يبحث في المجاز بأنواعه، والتشبيه، والكناية، وهذه الفنون مرتبطة بعلم المعاني كما ذكر السكاكي لذلك أخَّرها، وهو ما ذكره عبد القاهر الجرجاني وربطها بالنظم قال: «وذلك لأن هذه المعاني التي هي الاستعارة، والكناية، والتمثيل، وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم، وعنه يحدث، وبه يكون»[14]

الثالث: بحث كل قسم من الفنون، إذ ظهر الاضطراب في كل قسم من أقسام البلاغة، ومن ذلك أنه قَدَّم بحث أحوال الإسناد على أحوال المسند إليه والمسند مع أن النسبة متأخرة عن الطرفين، ومن ذلك أنه مزَّق الموضوع الواحد إذ بحث علم المعاني بحسب ركني الجملة- المسند إليه والمسند - فكان التقديم- مثلا- في بحث المسند إليه مرة وفي بحث المسند مرة أخرى، ومثل ذلك الحذف، والتعريف، والتنكير، وكان جمع

كل مسألة في مبحث واحد أدق، فيكون – مثلا- للتقديم والتأخير مبحث واحد، ومثله بقية الموضوعات.

وكان لاتخاذه الدلالة في بحث علم البيان، أن أصبح التشبيه خارجا عنه، ولكنه بحثه في هذا القسم لاعتماد الاستعارة عليه، قال: «ثم أن المجاز- أعني الاستعارة- من حيث إنها من فروع التشبيه لا تتحقق بمجرد حصول الانتقال من الملزوم إلى اللازم، بل لا بدّ فيها من تقدمة تشبيه شيء بذلك الملزوم في لازم له تستدعي تقديم التعرض للتشبيه، فلا بدّ من أن نأخذه أصلا ثالثا ونقدمه»[15] . وما كان للسكاكي أن يذهب إلى ذلك سواء اعتمدت الاستعارة عليه أم كانت إدعاء، لأن دلالة التشبيه قد تكون عقلية، لأن عقد العلاقة بين طرفين لا تتم إلا عن طريق العقل، فضلا عن أن التشبيه من أكثر الفنون دورانا في الكلام.

وكان تقسيم القسم الثالث (علم البديع) غير دقيق لأن أكثر فنونه متداخلة، وقد تنبه القدماء إلى هذا التداخل[16] ، وأن بعضها يدخل في علم المعاني مثل الالتفات، إذ بحثه السكاكي في علم المعاني، وذكره في المحسنات المعنوية، وقال : «قد سبق ذكره في علم المعاني» [17].

لم يكن عمل السكاكي بعيدا عن الدقة العلمية وواقع الأساليب العربية، وإن ما قيل آنفا لا يقلل من أهميته ؛ إذ يعد أساسها في الدرس البلاغي، لما فيه من مصطلحات دقيقة، وتعريفات جامعة مانعة، وشواهد أدبية، ويمكن أن تبنى عليه المناهج البلاغية على اختلاف وجهات النظر، بعد الرجوع إلى كتب البلاغة الأولى، والاستفادة مما يستجد في الدراسات المعاصرة مما له صلة عميقة بفن القول، وما كان نقد منهجه إنكارا لفضله ولكنه كان رأيا من الآراء.

(4)

كانت تلك المحاولات جادة في رسم طريق البلاغة الجديد، بخلاف ما سعى إليه بعضهم من تقويض هذا الفن الذي لا تخلو منه لغة من لغات العالم[18] ، وكان منهج الشيخ الخولي دقيقا لما امتاز به من جمع أجزاء البلاغة وتصنيفها تصنيفا يجعلها واضحة كما كانت في عهودها الأولى. ولم تثمر تلك المحاولات كما سعى إليه أصحابها، وهبت من الغرب اتجاهات جعلت كثيرا من الباحثين يعزفون عن البلاغة، ويأخذون بتلك الاتجاهات ولاسيما ما يُقصي البلاغة من ساحة النقد الأدبي كالأسلوبية والشعرية.

تلقّف الباحثون العرب الأسلوبية، وعدوها بديلا عن البلاغة كالدكتور عبد السلام المسدي الذي قال:" أما الأسلوبية والبلاغية كمتصورين فكريين، فتمثلان شحنتين متنافرتين متضادتين لا يستقيم لهما تواجد آني في تفكير أصولي مُوحَّد، والسبب في ذلك يُعزى إلى تاريخية الحدث الأسلوبي في العصر الحديث. وإذا تبينا مسلمات الباحثين والمنظرين، وجدناها تقرر أن الأسلوبية وليدة البلاغة وريثها المباشر، معنى ذلك أن الأسلوبية قامت بديلا عن البلاغة، والمفهوم الأصولي البديل-كما نعلم- أن يتولد عن واقع مُعطى وريث ينفي بموجب حضوره ما كان قد تولد عنه. فالأسلوبية امتداد للبلاغة ونفي لها في نفس الوقت، هي لها بمثابة حبل التواصل خط القطيعة في نفس الوقت أيضا"[19].

وأشار إلى مقومات هذا الاستبدال، وإلى أبرز المفارقات بين المنظورين البلاغي والأسلوبي وهي:

1 - أن البلاغة علم معياري، والأُسلوبية تنفي عن نفسها كل معيارية.

2 - أن البلاغة ترسل الأحكام التقييمية بخلاف الأسلوبية.

3 -أن البلاغة تسعى إلى غاية تعليمية، ولا تسعى الأسلوبية إلى ذلك.

4 -أن البلاغة تحكم بأنماط مسبقة، والأسلوبية تتحدد بمنهج العلوم الوصفية.

5 - أن البلاغة اعتمدت فصل الشكل عن المضمون في الخطاب اللساني، والأسلوبية ترفض الفصل بين الدال والمدلول.

وكان الدكتور لطفي عبد البديع قد قال إن الأسلوبية الجديدة "لاتكتفي بتعيين ما هناك من خصوصيات للكلام، ولا تقتصر على تعميم الأحكام، بل تبحث عن العلل، وتقيم من التحليل الذري الذي تعتمده البلاغة مبدأ موحدا جامعا لها، ثم تجريها على غاية استطيقية عامة تدخل العمل الأدبي كله، وتجلي روح الإنسان فيه. فالصور البيانية وأنواع البديع ليست صيغا بالية يُؤتى بها للتزيين والتحسين، وإنما هي جوهرية في لغة الشاعر، لا تتحقق المادة الشعرية إلا بها. واللغة الشعرية من خلق الشاعر وليست من قبيل المعاني الثانوية التي تطرأ على المعاني الأُول"، ثم قال: "إن اللغة في الأسلوبية تؤول إلى الشاعر أولا وأخيرا بحيث تبطل فيها القسمة إلى معانٍ أُوَل، ومعان ثوان، أما في البلاغة فتشبه أن تكون كالماهية لها وجود في حد ذاتها بقطع النظر عن الشاعر". وهذا هو الفرق الأساسي بين البلاغة والأسلوبية الحديثة، وقد فقدت البلاغة علة وجودها في العصر الحديث بعد أن "تمت تجارب الفرد وذاته، وتغيرت قيمُهُ الاستطيقية»، ثم قال:»لم يعد أحد يحتكم إليها في شعر أونثر[20]

وقال الدكتور صلاح فضل: إنَّ الأسلوبية «وريث شرعي للبلاغة العجوز التي أدركها سنُّ اليأس وحكم عليها تطور الفنون والآداب الحديثة بالعقم» [21]. وقال إن البلاغة تدهورت تاريخيا وفقدت أهميتها «ولم تصبح لها أية

قيمة باعتبارها مجموعة من التصورات والمفاهيم التقنينية المعيارية، فلم تعد لها فاعلية القواعد التي كانت تعرض بها وجودها، فإنها قد ذابت وانحلت في علم الأسلوب الحديث» [22]. ولكنه – بعد هذا – تحدث عن التشبيه والمجاز بأنواعه كالمرسل والاستعارة، وقال: إن «كثيرا من المواد البلاغية التقليدية ما زال يقدم ثروة خصبة ينبغي استغلالها في هذا الصدد»[23]

وقال الدكتور محمد عبد المطلب: «وقد أتاح هذا القصور- أي قصور البلاغة – للأسلوبية الحديثة أن تكون وريثة شرعية للبلاغة القديمة، ذلك أن الأخيرة وقفت في دراستها عند حدود التعبير ووضع مسمياته وتصنيفها، وتجمدت عند هذه الخطوة ولم تحاول الوصول إلى بحث العمل الأدبي الكامل، كما لم يتسَنَّ لها بالضرورة دراسة الهيكل البنائي لهذا العمل، وكان ذلك بمثابة تمهيد لحلول الأسلوبية في مجال الإبداع كبديل يحاول تجاوز الدراسة الجزئية القديمة، وإقامة بناء علمي يبتعد عن الشكلية البلاغية التي أرهقتها مصطلحات البلاغيين بتفريعات كادت تغطي على قيمها الجمالية[24] وقال: «الأسلوبية – كعلم جديد نسبيا – حاولت تجنب المزالق التي وقعت فيها البلاغة القديمة من حيث إغراقها في الشكلية، ومن حيث اقتصارها على الدراسة الجزئية بتناول اللفظة المفردة، ثم الصعود إلى الجملة الواحدة أو ما هو في حكم الجملة الواحدة»[25]، ومعنى هذا:

1 - أن الأسلوبية بديل عن البلاغة، أو وريثها الشرعي.

2 - أن البلاغة تقتصر على الدراسة الجزئية بخلاف الأسلوبية.

ولكن الباحث أعاد النظر في البلاغة وقال: «والذي لا جدال فيه أن البلاغة هي (أسلوبية القدماء) لأن المتابعة الصحيحة لمباحثها الكلية

والفرعية تؤكد خطتها العلمية التي لم تتوفر لغيرها من العلوم القديمة، اللهم إلا علم (الأصول) الذي وازاها في علميتها، وهذه العلمية البلاغية لم تنحصر في المباحث البلاغية الخالصة، وإنما اتصلت بعلوم أخرى كعلم اللغة، وعلم النحو .

والصرف، بالإضافة إلى اتصالها بالممارسات النقدية القديمة للشعر والنثر، وهو ما أكد انفتاحها على الثقافة العربية القديمة جملة والأدبية خاصة»[26] وقال إن البلاغة القديمة تصلح «للأسلبة الحديثة فالعلاقة بينهما وطيدة، بل إن الأسلوبية –كما يقول (هنريش بليث) تتقلص أحيانا حتى لا تعدو أن تكون جزءً من نموذج التواصل البلاغي وتنفصل أحيانا عن هذا النموذج وتتسع حتى لتكاد تمثل البلاغة كلها»[27]. وقال: «إن معظم الجهد البلاغي القديم جهد معاصر بكل المقاييس، وإن اتهام السكاكي ومدرسته بتعقيد البلاغة اتهام باطل، فلم يصنع الرجل شيئا سوى أنه حوّل البلاغة إلى علم دقيق، فهل العشوائية تمتدح والنظام يُعاب؟ وهل الاعتباطية في البحث تُعَدُّ أصلا، والتنظيم المبرر يصير تعقيدا وجمودا ؟»[28]. وقال: «أما الجزئية التي لصقت بالبلاغيين، فان الدارس- أي دارس – في ممارسته العملية لمفهوم التنظيرية يلجأ بالضرورة إلى اختبار مفاهيمه من خلال اجتزاء الشاهد، وهذا أمر مسلم به على مستوى الخطاب البلاغي القديم، والخطاب البلاغي الجديد. فبرغم كثرة ما ترجم عن الأسلوبيات والبنيويات لم نصادف منها ما يتعامل مع النصوص الكاملة تحليلا وتفسيرا، وإنما كان الاجتزاء سمة هذه الدراسات، فهي ضرورية يحتمها المنهج اللهم إلا إذا كان الدارس معنيا بدراسة تطبيقية خالصة، وحتى في هذه الدراسات لم نجد مؤلفا قد استوعب إنتاجا كاملا،

إذ يتكأ الباحث على نص بعينه أو مجموعة نصوص لها نوع توافق. وليس هذا دعوة إلى تكريس منهج الاجتزاء أو الانتقاء، لكن معناه أن الدراسة تفرض احتياجاتها المنهجية جزئيا وكليا»[29].

إن إعادة النظر في البلاغة العربية أدى إلى هذا الرأي الذي خالف ما سبق[30] ، وإن التمسك بالبلاغة يُبقي الارتباط باللغة العربية التي أمدتها بالأساليب المختلفة، فضلا عن اتفاق الباحثين على أسسها كبير بخلاف الأسلوبية التي أصبحت أسلوبيات مما جعل علم الأسلوب «مثل برج بابل تتعدد فيه اللغات ولا يكاد أحد يفهم من بجواره مما أدى بالبعض إلى رفضه.

وقد صار إلى هذا الحال نتيجة لأن كل باحث في الأسلوب – تقريبا – قد زعم لنفسه حق الشرح الكلي لظاهرة الأسلوب» [31].

أما الشعرية فقد كان تودوروف يتحدث في كتابه (الشعرية) عن مظاهر تحليل النص الأدبي، والتأريخ الأدبي، والشعرية والجمالية، والشعرية بوصفها مرحلة انتقالية. وكانت الشعرية – عنده – من مقاييس نقد الأدب، ولكنه أعاد النظر في حركة النقد الجديد والموروث الشكلاني ناقدا ومشككا ومقوما، وذلك في سيرته النقدية (نقد النقد). واضعا ما أسماه (النقد الحواري)[32].

وعالج جان كوهين (بنية اللغة الشعرية) وانطلق من مسائل البلاغة في دراسته وقال: « إن الحكم المسبق المعادي للبلاغة قد تغير منذ كتابة هذه السطور عند اللسانيين- على الأقل – واعترفت الأسلوبية بدينها نحو هذا العلم العتيق في الوقت نفسه الذي نحاول فيه تجديده» [33].

ولا تخرج القضايا التي عالجها كوهين عن موضوعات البلاغة المعروفة، وبذلك كانت أساس مفهوم الشعرية عنده، كما كانت عند عبد القاهر الجرجاني وغيره من البلاغيين العرب الذين أولوا النص عناية فائقة وأظهروا ما فيه من شعرية تدل على التفرد والإبداع[34].

وألف الدكتور علي أحمد سعيد (أدونيس) كتاب (الشعرية العربية) وقد استمد مادته من التراث العربي، ولا سيما بلاغة عبد القاهر الجرجاني، كما ألف الدكتور كمال أبو ديب كتاب (في الشعرية) وكان مصطلح (الفجوة-مسافة التوتر-) منطلقة في بحثه، قال: «الشعرية في التصور الذي أحاول أن أنميه هنا وظيفة من وظائف ما سأسميه – الفجوة أو مسافة التوتر-»[35]. وكان انتفاعه بالتراث العربي ولا سيما البلاغة واضحا في دراسته، ومعنى هذا أن الشعرية لا يمكن تميزها إلا من خلال الذوق ومباحث البلاغة، هذا ما ذهب إليه تودوروف وقال إنها تتجدد من «حيث هي علم الأدب[36]، وما قاله كوهين من أنها «علم موضوعه الشعر»[37].

(5)

هذا ما كان من أمر البلاغة عند العرب وغيرهم، فما البلاغة الجديدة التي تسعى إليها الدراسات العربية؟ وقبل البحث في هذه المسألة لابدّ من تحديد الهدف الذي ترمي إليه البلاغة.

كانت البلاغة عند اليونان مرتبطة بالخطابة، ولذلك وضع أرسطو طاليس كتاب (الخطابة) وظل هذا هدف الذين تأثروا به حتى ثاروا عليه بعد قرون، وحاولوا الخروج عن القيود القديمة، وجربوا المناهج التي

ظهرت كالألسنية، والبنيوية، والأسلوبية، والشعرية، ثم عادوا إلى البلاغة من جديد.

والبلاغة العربية لا تقتصر على إتقان الخطابة والإقناع فحسب، وإنما لها أهداف حدّدها أبو هلال العسكري بأربعة أهداف هي[38]:

1 - الهدف الديني وهو الوقوف على إعجاز القرآن الكريم.

2 - الهدف التعليمي، وهو الوقوف على الأساليب وبلاغتها وروعتها وتعليمها.

3 - الهدف النقدي وهو تمييز الكلام الحسن من الرديء.

4 - الهدف الخاص باختيار النصوص، وقد قيل: «اختيار الرجل قطعة من عقله».

هذه هي أهداف البلاغة العربية وينبغي أن تظل مرتبطة بها، لأنها تمثل روح اللغة العربية، وبدلا من ذلك أشاع بعض الباحثين العرب ما ذهب إليه الأجانب حين دعوا إلى البلاغة الجديدة. ويقوم البلاغيون الجدد بتحليل مستويات التغيير على عدة محاور: التغيير اللفظي، والتركيبي، والدلالي، ويضيفون مستوى رابعا على التغيير هو تغيير منطقي؛ لأن التغيير الدلالي قد ينحصر في تغيير كلمة واحدة، فالشاعر «لا يستخدم الشكل البلاغي إلا ليطمس شكل العلامات اللغوية، ويغير معناها، ولكن بوسعه بدلا من تبديل المعنى وتغيير دلالة الكلمات، أي بدلا من تعديل اللغة أن يعمد إلى الواقع الموضوعي في ذاته كي ينفصل بوضوح عنه، ويتمثل شيئا آخر، ويحصل على نتائج هذا الانفصال»[39].

وأغرى هذا الاتجاه بعض الباحثين العرب وأخذوا يدرسون مستويات النص، وهي:

الأول: المستوى الصوتي، ويشمل الألفاظ والإيقاع.

الثاني: المستوى التركيبي ويشمل بناء الجملة وما يتصل بها.

الثالث: المستوى الدلالي ويشمل الصورة المتمثلة بأنواع المجازوالتشبيه.

وشاع هذا المنهج في الرسائل الجامعية، وكان ستيفان أولمان قد قال: «وإذا سلمنا بأن ثمة مستويات ثلاثة للتحليلي اللغوي والمعجمي والتركيبي فيكون على علم الأسلوب أن يميزبين هذه المستويات الثلاثة نفسها»(40). وكان جان كوهين قد درس الشعرية من خلال المستوى الصوتي وهو النظم، ومستوى الدلالة. وذهب أوستن وارين، ورينيه ويليك إلى أن تحليل العمل الأدبي يتألف من عدة مستويات هي: «1– طبقة الصوت، التنغيم، الإيقاع، الوزن.

2 - وحدات المعنى التي تحدد البنية اللغوية الشكلية للعمل الأدبي، أسلوبه، ونظام التقنية الأسلوبية.

3 - الصورة، المجاز، وهما أغزر الوسائل الأسلوبية وأعمقها شاعرية.

4 - العالم النوعي للشعر في رموزه»[41]

وهذا هو منهج الأسلوبية عند الدكتور جوزيف ميشال شريم الذي قال إن « الدراسة الأسلوبية هي نوع من الحوار الدائم بين القارئ والكاتب من خلال نص معين، ويتم هذا الحوار على مستويات أربعة: النص، والجملة، واللفظ، والصوت»[42]».

وعلى هذه المستويات أقام كتابه (دليل الدراسات الأسلوبية) وتحدث عن الصورة المتمثلة في الاستعارة المفردة، والاستعارة التمثيلية، والاستعارة التشبيهية، والكناية، والسجع، والوزن و القافية وغيرها مما يتصل بالهندسة اللغوية، والهندسة الصوتية.

ويرى الدكتور تمام حسان أن إحدى مرحلتي البلاغة كانت ألصق وأوغل في الأسلوبيات، وأنها تنظر في « العلاقة الطبيعية في تأليف الألفاظ، ومحاكاة المعاني، ووزن الشعر وقافيته، وفي المحسنات البديعية القائمة على التصرف في اللفظ كالسجع والجناس، وتنظر في العلاقة الصرفية في الكلام على الحقيقة والمجاز، وفي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وفي الفصاحة ونحو ذلك، ثم تنظر في العلاقة الذهنية في التشبيهات والاستعارات والكنايات والمحسنات المعنوية»[43].

إن هذا المنهج الذي يدعو إليه الأسلوبيون والبلاغيون الجدد لا يخرج عن تقسيم البلاغة العربية إلى:

1 - الفصاحة وما يتصل بالكلمة المفردة مما بحثه ابن سنان الخفاجي في (سر الفصاحة) و ضياء الدين بن الأثير في (المثل السائر)، وهذا هو المستوى الصوتي يضاف إليه الإيقاع وبعض فنون البديع.

2 - علم المعاني الذي يبحث في التركيب اللغوي، وهو المستوى التركيبي.

3 - علم البيان الذي يبحث في الصورة المجازية، وهو المستوى الدلالي.

4 - علم البديع الذي يبحث في فنون لها صلة بالإيقاع، وتدخل في المستوى الصوتي، ومالها صلة بعلم المعاني وعلم البيان.

هذه هي البلاغة، وهي ما لا يُستغنى عنه، قال بيريلمان: «لا يوجد أدب بلا بلاغة»[44]»، ويريد به فن التعبير، وقال جيزيل فالانسي إن علم البلاغة أصبح نظرية في الأدب، أي أصبح شعرية[45].

أبعد هذا يريد بعض العرب إلغاء البلاغة التي هي جوهر الكلام، ويتمسك بما تجاوزه أصحابه من اتجاهات وآراء أصبحت تأريخا؟

(6)

تتجدد الدعوة إلى إعادة النظر في البلاغة ووضع منهج يُبقي روحها متألقة؛ لتكون وسيلة من وسائل النقد بعد أن تزعزع الإيمان بها على يد من لم يدرسها أو يتقنها، مما أدى إلى التنكر لها مع أنها ظلت مرتبطة بالنقد الأدبي حتى حاول بعضهم إزاحتها بحجة أن العصر تخطاها، وأن الأسلوبية وريثها الشرعي وما إلى ذلك من أقوال لا ترقى إلى حد اليقين.

لا يُراد بالدعوة إلى التجديد إلغاء البلاغة وإنما تيسيرها بالرجوع إلى أصولها ورفدها بالجديد الذي يثريها، ويجعلها ملائمة للمستجدات ومحتوية الآداب الحديثة. ويتم ذلك بالنظر في أمرين قبل البدء بالتيسير ورسم المنهج، وهذان الأمران هما: المنهج والموضوعات، إذ هما اللذان يحددان العرض وأسلوب البحث.

إن المنهج الذي يسود حتى اليوم هو منهج السكاكي الذي تلقفه الخطيب القزويني وشراح التلخيص، ويقوم هذا المنهج على تقسيم البلاغة على علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع، وهو ماعاد إليه البلاغيون الجُدُدُ باسم: المستوى الصوتي، والمستوى التركيبي، والمستوى الدلالي، وهذا التقسيم إذا جرد مما أقحم فيه أقرب إلى روح اللغة التي هي ألفاظ وعبارات وصور. والأخذ به لا يخرج عما انتهت إليه البلاغة من تصنيف، ولا يعد خروجا عن التراث أو قطيعة له؛ لأنه يصدر عنه وإليه يعود.

وليس من الصعب إدخال موضوعات البلاغة في المستويات الثلاثة، لأنها التقسيم الثلاثي الذي درجت عليه كتب البلاغة منذ أن وضع السكاكي كتابه (مفتاح العلوم).

أما الموضوعات ومعالجتها ففي التراث البلاغي ما يُغني بعد أن يُخلى من المباحث التي لا تمت بصلة إلى فن القول، ولعل (كتاب الصناعتين) لأبي هلال العسكري، و(دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجاني و(المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) لضياء الدين ابن الأثير، و(تحرير التحبير) لابن أبي الإصبع المصري، و(الطراز) ليحيى بن حمزة العلوي، و(منهاج البلغاء وسراج الأدباء) لابن حازم القرطاجني- لعل هذه الكتب وما يماثلها خير مادة ترفد البلاغة الجديدة.

إن تجديد البلاغة أو تيسيرها ليس كتيسير النحو؛ لأنها علم أو فن لم ينضج ولم يحترق، أي أنها قابلة لاستيعاب ما لا يلائم أصولها الكلية، والبلاغة الميسرة أو الجديدة التي يسعى إليها الدارسون هي التي تواكب الحياة وتعبر عن روح العصر، وإن نموها في القديم ملمح من ملامح حيويتها وقدرتها على استيعاب ما يستجد، فضلا عن أنها لم تتوقف عند عصر الاستشهاد الذي تمسك به اللغويون والنحاة، وإنما تجاوزته وواكبت الأدب، وفي البديعيات نصوص جديدة استمدها مؤلفوها من العصر الذي عاشوا فيه، واستخلصوا منها فنونا جديدة لم يقف عندها السابقون. وفي الكتب المنهجية (المدرسية) والدراسات البلاغية الجديدة نصوص من الشعر الحديث، إذ ذكر الدكتور محمد عبد المطلب في كتابه (البلاغة العربية – قراءة أخرى) أمثلة من شعراء معاصرين مثل: فاروق شوشة، وحسن طلب، وأحمد عبد المعطي حجازي، ومحمد إبراهيم أبو سنة، وعبد العزيز المقالح، ومحمد مطر عفيفي، ومحمد سليمان، وبدر توفيق، وحلمي سالم، ورفعة سلام. ومعنى هذا أن البلاغة العربية تلائم نصوص أي أديب لها خيوط تمتُّ إلى الأصيل من كلام العرب.

ومن أهم ملامح تجديد البلاغة أو تيسيرها:

أولا: إلغاء التقسيم الثلاثي وجعل البلاغة فنا واحدا، وبحث موضوعاتها مستقلة على أن يكون ارتباط بين مبحث متقدم وآخر متأخر، أو أن تدرس على وفق المستويات الثلاثة التي ذكرها البلاغيون الجدد، وهي مستويات لا تخرج عن روح البلاغة العربية؛ بل هي عودة إلى منهج السكاكي وشُرّاح التلخيص.

ثانيا: الاهتمام بالمستوى الصوتي والألفاظ ودلالاتها، وما فيها من جمال وجرس له أثر في التعبير، وأن يكون البحث في الفصاحة من صميم المستوى الصوتي، وهو ما عُني به القدماء كابن سنان الخفاجي وضياء الدين بن الأثير.

ثالثا: البحث في الجملة وأجزائها وما يحدث فيها من حذف وذكر، وتقديم وتأخير،

وارتباط الجمل مما بحثه البلاغيون في موضوع الفصل والوصل.

رابعا: البحث في الفقرة، والقطعة الأدبية، والنص الكامل ما أمكن ذلك.

خامسا: البحث في صور التعبير المختلفة كالتشبيه، والاستعارة، والكناية، وغيرها من مباحث علم البيان.

سادسا: التقليل من التقسيمات والتفريعات التي يضل الدارس فيها إذ بلغ عدد أقسام الاستعارة في (معجم المصطلحات البلاغية وتطورها) ثمانية وثلاثين نوعا يمكن ردها إلى نوعين: تصريحية ومكنية، وبلغ عدد أقسام الجناس اثنين وستين

يمكن إرجاعها إلى نوعين: تام وناقص. ومثل ذلك المحسنات اللفظية

والمعنوية إذ يمكن جمع المتشابهات في نوع واحد، والاستغناء عما لا تأثير له في الكلام.

سابعا: توحيد المصطلحات والأخذ بأكثرها دلالة على الفن البلاغي، وترك التسميات المتعددة للفن الواحد، إذ بلغت مصطلحات البلاغة الأساسية والفرعية أكثر من ألف مصطلح، ولا يحتاج الباحث والناقد إلى هذا العدد؛ لأن كثيرا منها تسميات لأنواع من أقسام الفن.

ثامنا: تخلية البلاغة مما علق بها من مصطلحات الفلاسفة وأهل المنطق والعلوم التي لا تمت إليها بصلة وثيقة مما ذكرته (شروح التلخيص) مثل: الكم، والكيف، والعرض، والجوهر، والمؤمن، والدهري، والماهية، والتأسيس، والموجبة، والسالبة، والمسوّرة، والكلام على الألوان، والطعوم، والروائح، واللذة، والألم،وحرارة الحروف وبرودتها ورطوبتها ويبوستها، والتشريح، وما إلى ذلك من مصطلحات وتسميات لا يحتاج إليها الدارس والناقد.

تاسعا: تحلية البلاغة بما استجد ويستجد من دراسات بلاغية ونقدية وأدبية وجمالية مما يرفدها بكل جديد لا يهدم أصولها ولا يمحو معالمها.

عاشرا: الاهتمام بعرض الفنون البلاغية بأسلوب رفيع يثير المشاعر، ويحرك النفوس قبل أن ينفذ إلى العقول فتدركه؛ لان البلاغة فن يرتبط بالذوق والإحساس الروحاني.

حادي عشر: اختيار النصوص الرفيعة، وتلمس البلاغة فيما استجد من فنون أدبية تعبر عن المعاصرة.

ثاني عشر: تحليل النصوص تحليلا أدبيا، والابتعاد عن المماحكة والتحليل الذي يجعلهاطلاسم، كما فعل بعض القدماء، وما يفعله بعض المعاصرين.

ثالث عشر: توحيد أسلوب التأليف، وعدم الانتقال من أسلوب إلى آخر، كما كان القدماء ينتقلون إلى أساليب الفلاسفة وأهل المنطق عندما يناقشون، وأساليب الفقهاء حين يعللون، وأساليب النحاة حين يعرضون لمباحث علم المعاني ويفصلون القول فيها.

هذه بعض الخطوط العامة التي تجعل البلاغة ميسرة، ولا يعني التيسير تجريدها من الذوق الفني والنزعة العلمية، وإنما يعني دقة العرض، وروعة التحليل، وجمال الأسلوب، ورونق التمثيل.

وقد ترسم هذه الخطوط منهجا سداه التراث ولحمته الاتجاهات المعاصرة، ولن يكون هذا المنهج عقبة في تصور مناهج أخرى؛ لأن البلاغة فن لا يقف عند رسوم ثابتة، وإن كان لابد لمن يريد التجديد أو التيسير أن يقبس من مباحثها ما ينير السبيل؛ لأن النقد لا يمكن أن يتخلى عن فنونها، وعما ينفع في ذلك من الدراسات التي تستجد. وما عودة الأجانب إلى البلاغة إلا لشعورهم بأهميتها، واعترافهم بما فيها من طاقات تتفجر لتقويم النصوص، وتحليلها، وتقييمها، وعرضها عرضا يلقي عليها الضوء من غير تمحل وتصورات لا تخدم فن القول، وهي بعد ذلك من أهم وسائل النقد الأصيل، وإن فصلها عنه افتعال لا تقره خصائص اللغة العربية، ولن تكون الأسلوبية بديلا شرعيا عنها، لأن البلاغيين الجدد والأسلوبيين

عادوا إليها، لا لأنها تغني عن غيرها في النقد، بل لأنها أساس تحليل النصوص، وتبيان ما فيها من ألفاظ موحية، وتركيب رائع، وتصوير بديع، وما فيها من أصالة أو تقليد.

هوامش البحث:

1 - مفتاح العلوم ص 196

2 - مفتاح العلوم ص 77

3 - مفتاح العلوم ص 200

4 - ينظر المصباح ص 75، ومناهج بلاغية ص 280

5 - تنظر الشروح في (القزويني وشروح التلخيص) و (مناهج بلاغية).

6 - ينظر مناهج تجديد ص 264.

7 - فن القول ص 223.

8 - ينظر الأسلوب ص 28 وما بعدها.

9- تنظر مقدمة لدرس لغة العرب ص 43، وتهذيب المقدمة اللغوية ص 284.

10 - بحث نظرة في قواعد علوم اللغة العربية وآدابها – ينظر في مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق) المجلد (19) ص 481 ، وينظر رأيه في المقتطف المجلد (102) ص 272.

11 - بحث المسوغات العقلية للبلاغة – ينظر في مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق) المجلد (30) ص 35.

12 - أمالي علي عبد الرازق في علم البيان وتأريخه ص 62

13 - تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ص 111

14 - دلائل الإعجاز ص 393، وينظر مفتاح العلوم ص 77

15 - مفتاح العلوم ص 157، وينظر البلاغة عند السكاكي ص 115 وما بعدها

للوقوف على منهج السكاكي في البلاغة.

16 - نظر شروح التلخيص ج4 ص 285

17 - ينظر مفتاح العلوم ص 95 ، 202.

18 - للوقوف على هذه المسألة ودعاتها ينظر مناهج بلاغية ص 361.

19 - الأسلوبية والأسلوب ص 52، وينظر مدخل إلى علم الأسلوب ص43.

20 - ينظر التركيب اللغوي للأدب ص91-89

21 - علم الأسلوب ص 3.

22 - علم الأسلوب ص 135.

23 - علم الأسلوب ص 135.

24 - البلاغة والأسلوبية ص 191

25 - البلاغة والأسلوبية ص 268.

26 - البلاغة العربية-قراءة أخرى-ص4 .

27 - البلاغة العربية ص8 ، وينظر كلام هنريش بليث في كتابه البلاغة والأسلوبية ص13.

28 - البلاغة العربية ص.14

29 - البلاغة العربية26

30 - يذكر التأرجح في الآراء بقول ابن الرومي:

تقول: هذا مُجاج النحل تمدحه وإن تَعبْ قلت: ذا قيء الزنابير

31 - بلاغة الخطاب ص201

32 - ينظر نقد النقد ص143 وما بعدها، وتقديم كتابه الشعرية ص6

33 - بنية اللغة الشعرية ص47

34 - ينظر في المصطلح النقدي ص151 وما بعدها

35 - في الشعرية ص20 ، وتنظر 43 ، 45

36 - الشعرية ص 84

37 - بنية اللغة الشعرية ص9

38 - ينظر كتاب الصناعتين ص 3، مناهج بلاغية ص 32.

39 - بلاغة الخطاب ص 84، 93.

40 - اتجاهات البحث الأسلوبي ص6 ، وينظر الألسنية والنقد الأدبي ص 6 ،21.

41 - نظرية الأدب ص 203، وينظر التركيب اللغوي للأدب ص 110.

42 -دليل الدراسات الأسلوبية ص 7.

43 - الأصول ص 303، وتنظر ص 337،391.

44 - بلاغة الخطاب ص 80، وينظر اتجاهات البحث الأسلوبي ص 9.

45 - مدخل إلى مناهج النقد الأدبي ص 232.

المصادر:

1 - اتجاهات البحث الأسلوبي – اختارها وترجمها الدكتور شكر محمد عياد – الرياض 1405 هـ - 1985م.

2 - أسرار البلاغة – عبد القاهر الجرجاني. تحقيق ريتر – استانبول 1954م.

3 - الأسلوب – أحمد الشايب. الطبعة الثالثة – القاهرة 1952م.

4 - الأسلوبية والأسلوب – الدكتور عبد السلام المسدي – الطبعة الثانية. تونس 1982م.

5 - الأصول – دراسة ايبستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي – الدكتور تمام حسان – الدار البيضاء – المغرب 1401 هـ - 1981م.

6 - الألسنية والنقد الأدبي في النظرية والممارسة – الدكتور موريس أبو ناضر- بيروت 1979م.

7 - أمالي علي عبد الرازق في علم البيان وتأريخه – الشيخ علي عبد الرازق- القاهرة 1330 هـ - 1912م.

8 - بلاغة الخطاب وعلم النص – الدكتور صلاح فضل. (عالم المعرفة 164) – الكويت 1413 هـ - 1992م.

9 - البلاغة العربية – قراءة أخرى – الدكتور محمد عبد المطلب- القاهرة 1997م.

10 - البلاغة عند السكاكي – الدكتور أحمد مطلوب – بغداد 1384 هـ - 1964م.

11 - البلاغة والأسلوبية – الدكتور محمد عبد المطلب – القاهرة 1984م.

12 - البلاغة والأسلوبية – هنريش بليث – ترجمة الدكتور محمد العمري – الدار البيضاء – المغرب 1989م.

13 - بنية اللغة الشعرية – جان كوهين – ترجمة محمد الولي ومحمد العمري – الدار البيضاء – المغرب.

14 - تأريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها – أحمد مصطفى المراغي – القاهرة 1369 هـ - 1950م.

15 - التركيب اللغوي للأدب – بحث في فلسفة اللغة والاستطيقا – الدكتور لطفي عبد البديع – القاهرة 1970م.

16 - تهذيب المقدمة اللغوية – عبد الله العلايلي – بيروت 1388 هـ - 1968م.

17 - دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني. تحقيق محمود محمد شاكر – القاهرة 1404 هـ - 1984م.

18 - دليل الدراسات الأسلوبية – الدكتور جوزيف ميشال شريم- بيروت 1404 هـ- 1984م.

19 - شروح التلخيص – القاهرة 1937م.

20 - الشعرية – تزفيتان تودوروف – ترجمة شكري المنجوت ورجاء بن سلامة – الدار البيضاء – المغرب 1986م.

21 - الشعرية العربية – الدكتور علي أحمد سعيد (أدونيس)- بيروت 1985م.

22 - علم الأسلوب – مبادئه وإجراءاته – الدكتور صلاح فضل – الطبعة الثانية – القاهرة 1985م.

23 - فن القول – الشيخ أمين الخولي- القاهرة 1366 هـ - 1947م.

24 - في الشعرية – الدكتور كمال أبو ديب – بيروت 1987م.

25 - في المصطلح النقدي – الدكتور أحمد مطلوب. بغداد 1423 هـ 2002-م.

26 - القزويني وشروح التلخيص – الدكتور أحمد مطلوب 1387 هـ - 1967م.

27 - كتاب الصناعتين – أبو هلال العسكري – تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم – القاهرة 1371 هـ - 1952م.

28 - مدخل إلى علم الأسلوب – الدكتور شكري محمد عياد – الرياض 1402 هـ- 1982م.

29 - مدخل إلى مناهج النقد الأدبي – تأليف مجموعة من الكتاب – ترجمة الدكتور رضوان ظاظا- مراجعة الدكتور المنصف الشنوفي (عالم المعرفة 221) – الكويت 1317 هـ- 1997م.

30 - المسوغات العقلية للبلاغة – أنيس المقدسي – بحث نشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق – المجلد (30) سنة 1955م.

31 - المصباح في علم المعاني والبيان والبديع– بدر الدين بن مالك–القاهرة 1341 هـ

32 - معجم المصطلحات البلاغية وتطورها – الدكتور أحمد مطلوب – الطبعة الثانية- بيروت 1996م.

33 - مفتاح العلوم – سراج الدين يوسف بن أبي بكر السكاكي – القاهرة – 1356 هـ- 1937م.

34 - مقدمة لدرس لغة العرب – عبد الله العلايلي – القاهرة.

35 - مناهج بلاغية – الدكتور أحمد مطلوب – بيروت 1383 هـ - 1973م.

36 - مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب – الشيخ أمين الخولي – القاهرة 1961م.

37 - نظرة في قواعد علوم اللغة العربية وآدابها – أدور مرقص – بحث نشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد (19) سنة 1929م.

38 - نظرية الأدب – اوستن وارن، ورينيه ويليك – ترجمة محيي الدين صبحي ومراجعة الدكتور حسام الخطيب – دمشق 1392 هـ- 1972م.

39 - نقد النقد – تزفتيان تودوروف – ترجمة سامي سويدان – الطبعة الثانية – بغداد 1406 هـ - 1986م.

تجليات تحول المجتمع الأندلسي في شعر الهجاء

د. عبد القادر هني
جامعة الجزائر2

إذا كان الأدب والفن عامة لا يمكن أن يختزل في اعتباره انعكاسا آليا لما يجري في محيطه كما يعتقد القائلون بنظرية الانعكاس، فإن ما يصعب نكرانه هو أن الأدب بوصفه نشاطا من الأنشطة الإنسانية يتلون بمنبت الإنسان، وإن كان هذا التلون لا يصل إلى حد ارتسام الواقع كما هو ودون أدنى تغيير في العمل الأدبي،بحكم أن الواقع لا يحيل فقط على ما هو موجود خارج الذات المبدعة من أشياء وأحياء إنما يحيل أيضا على الواقع الخاص للمبدع سواء أكان هذا الواقع واقعا معيشا أم متخيلا.[1]

من هذا المنطلق فإن الشعر الأندلسي لم يكن ممكنا أن يبقى بمنأى عن التأثر بما جد حوله من ظروف وعن الاستجابة لها، فالمجتمع في الأندلس لم يبق ذلك المجتمع البدوي الذي شب فيه العرب قبل الإسلام وبعده بقليل إنما عرفت الحياة فيه طائفة من التحولات مست بنية المجتمع وتركيبته تغيرت على إثرها علاقة الفرد بالمنظومة الاجتماعية التي تحميه خاصة بعد أن أصبحت السلطة للدولة لا للقبيلة كما كان سائدا في

المجتمع القبلي القديم، وتراجعت طائفة من القيم كان لها اعتبار كبير في المجتمع البدوي، وظهرت قيم أخرى جديدة أفرزها التطور الذي عرفته حياة الناس .

ولما كان شعر الهجاء من أكثر أغراض الشعر العربي اتصالا بالحياة الاجتماعية فإنه ليس بدعا أن يتجاوب الشاعر الأندلسي في هذا الغرض مع ما حصل من تحول في الحياة وفي العلاقات الاجتماعية فيتجه به وجهة غير التي اتجهها في المجتمع البدوي القديم فتتغير نظرته إلى المهجو ويتناول شخصيات وظواهر اجتماعية جديدة لم يكن للمجتمع بها قبل، قبل أن تتعقد فيه الحياة وقبل أن تعاد صياغة العلاقات بين بناه الأساسية وتمتزج عناصره امتزاجا ارتخت معه علاقاتها مع أصولها الأولى بعض الارتخاء . فقد كان من نتائج هذا التغير الاجتماعي أن اتجه فن الهجاء في الأندلس إلى تناول الفرد لا من حيث هو جزء في القبيلة مثلما كان عليه الحال في الهجاء الجاهلي إنما بوصفه فردا مجردا من الروابط القبلية والأسرية، فأصبحت المثالب التي هجي بها متصلة به لا بغيره، سواء أكانت هذه المثالب خِلقية أم خُلقية . وتجدر الإشارة – في هذا السياق - إلى أن تتبع النواقص الخلقية في الشخص مما لم يكن يأبه به الذوق القديم، لأن هذا الصنف من العيوب لم يكن يزري بالمرء في نظر المجتمع وقتذاك، لذلك كان اهتمام شاعرهم متجها إلى سلب المهجو القيم التي كان يعظمها المجتمع البدوي، كالشجاعة، والكرم وصراحة النسب وما إليها مما له علاقة بمروءة الإنسان مثلما استقرت في المنظومة القيمية لهذا المجتمع. وفي هذا المعنى قال قدامة بن جعفر: «إنه متى سلب المهجو

أمورا لا تجانس الفضائل النفسية كان ذلك عيبا في الهجاء مثل أن ينسب إلى أنه قبيح الوجه أو صغير الحجم أو ضئيل الجسم».[2]

وإذا كان النقد لا يخلو من تأثير ما في الأدب، فإنه مع ذلك لم يستطع أن يقف في وجه تيار الحياة المتجددة، فمع تغير الحياة وتطور الأذواق، خرج الهجاء في الشعر العربي عن منظومة القيم المعبرة عن الأذواق المحافظة . فإذا أنعمنا النظر في الشعر الأندلسي، وجدنا مادة هجائية مهمة تناولت الهيئة الخِلقية في الإنسان وما يعتريها من نواقص . وهذا الاتجاه إلى عيوب السحنة في الإنسان، له من غير شك علاقة قوية بما عرفه الذوق من تطور بتأثير العوامل الحضارية والطبيعية التي أرهفته فأصبح يتطير من القبح بقدر هيامه وكلفه بالجمال، لذلك فإن الشاعر إذا ما رام تبكيت خصمه أو السخرية منه، جاءه من هذه الناحية التي يتأذى منها ويكون بها مثارا للتندروالضحك في هذا المجتمع الذي تغيرت فيه مقاييس الجمال عما كانت عليه في مجتمع البداوة . على هذه الشاكلة تناول الهجاء الذي تجاوب مع التطور الذي عرفه المجتمع الأندلسي المثالب الخِلقية في المرء بدافع السخط حينا والتندروالتفكه حينا آخر . وأول مثلبة نتناولها في هذا المجال هي ظاهرة هجاء اللحى والملتحين الذين أصبحوا موضوعا هجائيا مهما عند الشعراء الذين تأثروا بما صاحب الحياة الحديثة المصطخبة من حولهم من قيم اجتماعية وجمالية جديدة. ويبدو أن هؤلاء الذين طالتهم سهام الهجاء من هذه الناحية كانوا لا يعنون بتنظيف لحاهم وأنهم كانوا يعدونها مظهرا من مظاهر الرجولة والورع والوقار. فأبو وهب عبد الوهاب بن عبد الرؤوف كان سناطا لا لحية له وكان، على ما يبدو، يعير

بذلك،فحز ذلك في نفسه فانبرى يسفه اللحية ويهجو أصحابها ويزري بهم، فقد شبههم في طلعتهم بالتيوس وتحدث عن عبث الريح بلحاهم وإمالتها يمنة ويسرة،قال :[3]

ليس بمن ليست له لحية　　بأس إذا حصلته ليسا
وصاحب اللحية مستقبح　　يشبه في طلعته التيسا
إن هبت الريح تلاهت به　　وماست به الريح ميسا

لا يخفى ما في الأبيات من حقد على ذوي اللحى، والدافع إلى هذا الحقد ذاتي يعلله افتقاد الشاع لها،فراح يمسخ أصحابها مسخا شنيعا حتى لا يجدوا فيها مظهرا من مظاهر التباهي والمفاخرة، فأية فضيلة في التيس تدعوه إلى التبجح والتعالي ؟

يبدو أن أصحاب هذه اللحى كانوا يتركونها تطول وتتكثف غير مبالين بها فظهروا بها بمظهر غير لائق تشمئز منه النفوس الكلفة بالجمال وتتأذى به العيون التي تنشد التناسق في كل شيء، فانبرى الشعراء يهجون هذه المناظر المقرفة مظهرين الجوانب القذرة فيها . فعبيديس الكاتب هجا المسمى حجاج من أهل وشقة فقصر هجاءه على وصف لحيته سالكا في ذلك أسلوب السخرية والتهكم من المهجو، فصور لحيته وكأنها غابة ضخمة تمور بصنوف الأنعام والطير . وإمعانا في إبراز الجانب القذر فيها راح يصف ريقه المنحدر عليها، ويبالغ في رسم صورة هذا الريق فيشبهه في غزارته بغزارة ما تجود به السماء من قطر، ثم يدقق النظر أكثر فيرى قملا وبقا يسرح فيها أفواجا . وتبدو هذه الأفواج للمرء وسط الريق السائل كأنها موج البحر، قال :[4]

يا من عليه للعلا تـــاج إني إلى اللحية مـــحـاج
وعندكم في وشقة لحيـــة يحملها المائق حـــجاج
للثغر في جانبها مســـرح فيه من الأنعـــام أزوا ج
ومن صنوف الطير في بعضها بط وســـمـان ودراج
يسيـــل من شاربـــه فوقهـــا سلح غزير القطر تـــجـاج
للبق في عثونـــه مكمـــن ومن دبيب القمل أفـواج
إذا مشى تبصر أفواجهـــا كأنها في البحـــر أمـواج
يعقدها في شعـــر وجعائه فهـــو إذا ما شاء صـناج

إن الشاعر، كما هو بين، أبرز لحية مهجوه في صورة مثيرة للتقزز بما يسيل عليها من ريق ويسرح فيها من قمل وبق، ولكنها وإن كانت صورة في منتهى القبح فإنها جميلة من الناحية الفنية، فقد استطاع الشاعر أن يجمع لها من العناصر ما يكشف قذارة حاملها ودناءة نفسه . ويظهره للعيان في أدرئ صورة وأشنع هيئة .

وإذا كان القصد في مثل هذا النموذج هو تبكيت المهجو وشفاء ما بالنفس من حنق عليه،فإن الغرض من هذا الصنف من الهجاء كان أحيانا مجرد التندر والتفكه بقصد التبسط والمداعبة . وليس أمرا غريبا أن تأخذ النادرة والفاكهة في الهجاء مكانها في مجتمع أصاب حظا طيبا من النعيم وتوافر لبعض فئاته فراغ كان من غير شك يملأ بما يطرد الملل عن النفوس، لذلك تطالعنا أخبار عن أفراد في هذا المجتمع عرفوا بالروح الخفيفة الوثابة، كيحيى الغزال الذي لم تفارقه دعابته حتى في أحرج الأوقات[5] وابن عبد ربه [6] بل عرفت هذه الروح أيضا عند أكثر

الشخصيات نسكا وورعا،[7] وللحجاري خبر مهم في ذيوع النوادر والنكت بين الأندلسيين أورده المقري في نفح الطيب ومؤداه»... ولشطار الأندلس من النوادر والتنكيتات، والتركيبات وأنواع المضحكات، ما تملأ الدواوين كثرته، وتضحك الثكلى وتسلي المسلوب قصته، مما لو سمعه الجاحظ لم يعظم عنده ما حكى وركب، ولا استغرب أحد ما أورده ولا تعجب».[8] معنى هذا أن روح النكتة والدعابة في هذا الهجاء ذات صلة حميمة بنفوس الأندلسيين وبحياتهم التي اختلفت عن حياة أسلافهم في جزيرة العرب قبل الإسلام اختلافا بينا رصدته المصادر الأندلسية نفسها.[9] وكان من نتاج هذا التحول في حياتهم أن «تفتحت ملامح شخصية طريفة في الأندلس لاهي بالعربية المعهودة ولاهي بالأعجمية السالفة، إنها الشخصية الأندلسية التي حافظت على مقومات الأصالة واستجابت في الوقت نفسه إلى دواعي التجديد»[10]. لذلك فإن روح الدعابة والنكتة التي تجلت بوضوح في شعر الهجاء غير منبتة الصلة عن تطور حياة الأندلسيين الاجتماعية، ويمكننا أن نمثل لهذه الظاهرة الاجتماعية التي انعكست في الشعر بما ذكره ابن عذاري المراكشي من أن عبد الرحمن الناصر مازح يوما وزيره أبا القاسم لبا، فحرضه على هجو الوزير عبد الملك بن جهور، فامتنع فقال لابن جهور «فاهجه أنت إذ أبى هو من هجوك «فامتنع أيضا صيانة لعرضه منه، فقال الناصر «فأنا أهجوه» فقال[11]:

لب أبو القاسم ذو لحية طويلة في طولهـــــا ميل

ثم قال لابن جهور: «لابد من تذييل هذا البيت، فدع الأعذار» فقال:

وعرضها ميلان إن كسرت والعقل مأفون ومـدخول

لو أنه احتاج إلى غسلها لم يكفه في غسلها النـيل

فضحك الناصر وقال للب: «إنه قد سبب لك القول، فقل «فقال

قال أمين الله في خلقـــه لي لحية أزرى بها الطـــول

وابن عيير قال قول الذي مأكوله القرظيل والفـــول

لولا حيائي من إمام الهدى نخست بالمنخس «شوقول»

فلما بلغ لب إلى قوله:»شو» سكت، فقال له الناصر: قول»، فأتم له على نحو ما أضمر، فقال له: «أنت هجوته يا مولاي» فضحك الناصر»[12].

واضح من سياق الحادثة ومن الصورة التي رسمت للحية ومن بحر الأبيات المتوثب ذي الحركات السريعة (بحر السريع)، ومن تجاوب الناصر مع هذا الشعر أن الغرض في هذا المقام هو التبسط والتفكه ليس غير. وهناك أمثلة أخرى أشار المؤرخون إلى أنها قيلت في قالب هزلي أريد به التفكه والتندر دون أن يكون القصد منها التشفي والانتقام من المهجو [13].

وفي سياق التطور الذي مس الحياة فتجلت آثاره في أذواق الناس تناول فن الهجاء ضخامة الأنوف وطولها المفرط على اعتبار أن هذين المظهرين يخلان بالتناسق والانسجام لدى المرء، لذلك كان هذا الاختلال مصدر مادة هجائية ذات بال لا في الشعر الأندلسي فحسب إنما في الشعر العربي عامة عندما تطورت أذواق الناس مع التطور الذي عرفته حياتهم، وربما كان ابن الرومي مقدما على سواه في هذا الباب مثلما كان مقدما أيضا في هجاء أصحاب اللحى. ولا أميل إلى القول إن هذا اللون من الهجاء عند الأندلسيين كان صدى فحسب لهذا الهجاء الجديد في المشرق، فالكلف بما هو جميل والنفور من السماجة والقبح كان مظهرا من مظاهر الشخصية الأندلسية، لذلك يذكر المؤرخون أن أهل هذا الصقع كانوا يعنون بتبييض

منازلهم لئلا تبدو في مظهر تنبو عنه العين، وأنهم كانوا يفضلون أن يظهروا بمظهر نظيف على أن يظهروا في هيئة وسخة وبطونهم ملأى، وأنهم كانوا يتخذون البياض شعارا للحداد نفورا من السواد. معنى هذا أن هذه المسألة لها علاقة بتطور الذوق عند هؤلاء نتيجة للتحول الذي حدث في حياتهم وليست محض تقليد لنماذج قرؤوها في شعر المحدثين المشارقة. بسبب من ذلك- في تقديرنا- كان ضخام الأنوف عرضة لتهكم الشعراء وسخريتهم، فقد صوروا كبر أنوفهم وطولها تصويرا مضحكا وأخرجوا صورها إخراجا ساخرا هازئا مثيرا للضحك والشفقة على أصحابها في آن معا، لمبالغتهم في رسم صورها مبالغة تخل بالتناسق الكائن بين أعضاء الإنسان، فهم في ذلك يقتربون من أصحاب الفن» الكاريكاتوري» الحديث. وقد احتفظ لنا ابن الكتاني، في هذا المضمار، بطائفة من النصوص الساخرة من ضخام الأنوف، منها هجاء عبد الله بن كليب لأنف الزهري. فقد بالغ الشاعر في تكبير صورة أنف المهجو مبالغة مفرطة فجعله في شكله وضخامته كالبوق، وذهب إلى أبعد مدى في تصوير طوله، فإذا الزهري قاعد في الدار وأنفه ينوب عنه في قضاء حوائجه في السوق. قال:[14]

أنفك يا زهري في قبحه كأنه في صـــورة البـوق

يقعد في البيت لحـاجاته وأنفه يمضي إلى السـوق

إن الصورة التي رسمها الشاعر لهذا الأنف صورة تثير الضحك وتبعث على الإشفاق في وقت واحد، فلنا أن نتصور معاناة صاحب هذا الأنف العظيم الهيئة المفرط الطول ! إننا من هذه الناحية نتعاطف مع الزهري ونرثي لحاله، لما تبرزه هذه الصورة من اختلال في توازنه الجسماني، لكنها

من ناحية أخرى صورة ساخرة تهز النفس وتجعل صاحبها مثارا للتفكه والتندر.

يبدو أن هذه الصورة لأنف الزهري مع ما فيها من مبالغة شديدة، لم تكن مجرد صورة خيالية مفارقة للواقع وبعيدة كل البعد عنه، لأننا نجد شاعرا آخر هو محمد بن الفلاس يتعرض لهجائه من هذه الناحية فيصور طول أنفه، فإذا بالزهري قاعد في بيته أما أنفه فلفرط طوله فإنه يسرح في أنحاء الدار، قال[15]:

أنفك يا زهري من قبحه ... كأنه إرزب قـــصار

يقعد في البيت لحاجاته ... وأنفه يسرح في الدار

وإلى جانب الأنوف المخلة بالتناسق الجسماني كان الحدب وقصر القامة مادة ثرة للسخرية والتندر من جهة ما يلحقانه من إخلال في تناسق خِلقة الإنسان. فقد وصف الشعراء أصحاب هذه العاهات وصفا فيه دقة وبراعة أحيانا، فابن وهب رأى رجلا أحدب فخيل إليه أنه آمرء يشكو ألما في صلبه فجمع بعضه إلى بعض من شدة الوجع فتضاءل جسمه، قال[16]

وأحدب لما بـــدا خلتـــه ... وقد خف من جسمه شبحه

كآس تشكى شديد الكلال ... على صلبه قد خفي جرحه

ومثلما ذم الحدب، ذم قصر القامة أيضا، فعبادة الشاعر، التفت إلى قصر قامة صديق له، فقال يصف حاله هذه [17]:

وصاحـــب لي كأن قامته ... أقصر من يوم وصل معشوقي

ولم يقتصر تناول هذه النقائص المشوهة لخِلقةِ من تلحق به على الرجال، إنما تناولها الهجاء في المرأة أيضا، ولعل عيوب السحنة في

المرأة أبعث على النفور منها ومقتها. وهجاء المرأة ليس جديدا في حد ذاته، فالشعر القديم تناولها هو الآخر بالهجاء، ولكنه كان يعرض لها في الغالب من الناحية التي تجلب العار والمذلة لقومها. وحتى عندما عرض الهجاء لبعض النواحي الجسدية لديها كوصف انتفاخ بطنها واستدارة خصرها، وهي الصورة المناقضة للمثل الأعلى في جمال المرأة عند قدماء العرب الذين كلفوا بالمرأة الهيفاء المخطفة الأحشاء الضامرة الخصر، فإن الغاية كانت الوصول إلى رمي قومها باللؤم والقبح المستمد من قبح نسائهم وقماءتهن[18]. على أي حال إن التعرض للمهجو من هذه الناحية في الشعر القديم لم يكن شيئا إذا قيس بالهجاء السلاب للفضائل التي كانوا يتمدحون بها ويفتخرون.

أما الهجاء الذي نتحدث عنه، أعني الهجاء المعبر عن التطور الذي مس حياة أهل الأندلس وأذواقهم، فإنه تناول المرأة بعيدا عن جميع العلاقات التي تربطها بقومها وأسرتها، فيحيي الغزال على سبيل المثال عرض لهجاء امرأة فمسخها مسخا شنيعا بأن سلبها جميع مظاهر الجمال المادي والمعنوي التي تبعث على الافتتان بالمرأة، فهي – كما قدمها- حادة اللسان، ليس على رأسها أكثر من خمس شعرات، فتعممت لتستر صلعتها المزرية، فيظهر الغزال بدعابته المعهودة فيلطمها ليعري عن صلعتها البراقة متخذا منها مظهرا للسخرية والهزء، ثم يتجه إلى نواح أخرى في خلقتها، فيظهر النتوءات الشديدة البروز في جنباتها. وإمعانا في تشويه خلقتها، انبرى إلى وصف كاهلها الذي شبهه في ضعفه وهزله بسنام إبل أهزلها طول السرى وقطع الفيافي المضنية، قال[19]:

جـرداء، صلعاء لم يبق الـزمان لـها ... ذإلا لـسـانـا ملحـا بـالملامـــات
لطمتها لطمة طارت عمامتها ... عن صلعة ليس فيها خمس شعرات
كـأنها بيضة الـشـاري إذا برقـت ... بـالمـأزق الـضـنك بين المشرفيـات
لـهـا حـروف نـوات في جوانبـها ... كقسمة الأرض حيزت بالتخومات
وكاهـــل كسـنام جـــــرده ... طـول الـسـفـاروإلـحـاح الـقـتـودات

فقد شوه الشاعر صورة هذه المرأة تشويها كبيرا، فبدت وكأنها عجوز أخنى عليها الدهر، فلم يبق منها سوى الجلد والعظم . ونلحظ كيف يميل الشاعر إلى المبالغة والتجسيم ليبرز عيوب الخلقة في هذه المرأة إبرازا شديدا مفيدا من بعض الصور التراثية، كصورة الإبل التي أجهدتها الصحراء، فأصابها الهزال بعد السمنة والاكتناز، وهي صورة تطالعنا غالبا عند حديث الشعراء القدامى عن رحلاتهم إلى ممدوحيهم . وهذه الإفادة من التراث لا تزري بارتباط هذا الهجاء بالتحول الذي حدث في مجتمع الشاعر، فهو – أي الشاعر – أفاد من هذه الصورة التي لم يكن المراد بها الهجاء عند أسلافه . فوظفها في رسم الصورة التي أراد أن يبرز فيها مهجوته التي ظلت رؤيته إليها رؤية الشاعر الذي تفاعل مع تطور المجتمع فأضحى يؤمن أن الفرد بنفسه لا بقومه وأهله مثلما كان يؤمن بذلك المجتمع العربي البدوي القديم .

ومما زاد هذا الهجاء ارتباطا بهذا المجتمع المتحضر اتجاهه إلى هجاء المغنيات . فلما كان صفاء صوت المغنية وحلاوته إلى جانب كمال الخِلقة وبهاء الطلعة مطلبين رئيسين فيها، فإنه من الطبيعي أن يذم الشعراء في المغنية بشاعة الصوت واضطراب النغم والجهد في الأداء، لما تثيره هذه الصفات من سأم وضجر في نفوس جمهورها . ومن الطبيعي أيضا أن يذموا

ما في خِلقتها من عيوب كأن تكون بشعة الصورة منعدمة فيها صفات الأنوثة وماء الشباب وهلم جرا. فقد أورد ابن الكتاني في كتاب التشبيهات خبرا مفاده أن إسماعيل بن بدرزار في جمع من صحبه رجلا فألفوا أمامه خبزا، فساءته زيارتهم له في هذا الأوان، فتنفس تنفس المغموم المأزوم، فقطب جبينه كاشفا عن ضجره منهم، فنفس عليه القوم بأن زهدوا في طعامه وأبدوا له

رغبة في سماع صوت عذب رخيم يطربهم، فأحضر لهم مغنية صلعاء، قد ذهبت أسنانها، فرجَّعت لهم بصوت خشن مضطرب آذى أسماعهم، حتى كأن بحلقها وهي تغني كلابا تتهارش أو ضفادع تنقنق من شدة اضطراب صوتها وبشاعته، فقال إسماعيل بن بدر[20] :

وقطب لما لامسته الأصابع ... تنفس لما لاحظ القوم خبزه
بعود فما القوم غيرك جائع ... فقلنا له إنا شباع فجد لنا
بصوت لها تستك منه المسامع ... فأسمعنا درداء، صلعاء رجَّعت
بحلقومها أم نقنقت بي ضفادع ... فوالله ما أدري كلابٌ تهارشت

لا يغير ما نلحظه من صلة بين هجاء هذه المغنية وهجاء صاحبها مما ذهبنا إليه من أن الفرد في هذا المجتمع أصبح بنفسه لا بقبيلته وأسرته، فهذا اللون من الهجاء يعد أثرا من آثار الحياة الاجتماعية المترفة التي أرهفت الأذواق وصقلتها، فأصبحت تنفر من القبح في المعنويات فضلا عنه في الماديات. ثم إنه، من ناحية أخرى، ظاهرة أدبية جديدة اقتضى وجودها ما تتطلبه صنعة الغناء من صوت ساحر وأداء رخيم حسن وصورة جميلة، فكأن الشعراء بتوجههم إلى هجاء المغنيات من هذه الناحية إنما يرومون تطهير حلبة الغناء ممن يفتقر إلى مؤهلات هذه الصنعة، فضلا عما فيه من دلالة على ارتباط الشعر بالحياة المصطخبة من حوله.

وعرف هذا الفن ظاهرة جديدة اقترنت بظواهر اجتماعية لم يعرفها المجتمع البدوي في أغلب الظن، كالتطفل الذي تولد عنه هجاء الأكلة والطفيليين الذين يفرضون أنفسهم على موائد الآخرين دون سابق دعوة. غير أن هذه الظاهرة لم يعرفها المجتمع الأندلسي بالصورة نفسها التي عرفها المجتمع العباسي، لما بلي به من تمايز طبقي عنيف تولدت عنه فئة معوزة لم تجد حيلة لافتكاك قوت يومها سوى هذه الأساليب بما فيها من إهانة ومذلة وإراقة ماء الوجه .

ولعل مما يدل على ضيق دائرة هذه الظاهرة في الأندلس قلة الأخبار عنها، فكأنها كانت ظاهرة عارضة جدا فلم تلفت أنظار المؤرخين للعناية بأخبار أصحابها مثلما صنع الخطيب البغدادي في كتاب التطفل وحكايات الطفيليين. ويخيل إلينا أن ظهور هذه الجماعة في الأندلس لا يعود إلى اختلال صارخ في توزيع الثروة، إنما إلى شذوذ هذه الجماعة عن أهل الأندلس الذين وصفهم المقري بقوله : « وهم أهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما في أيديهم خوف ذل السؤال، فلذلك قد ينسبون إلى البخل » [21]

على كل حال، إذا كان التاريخ قد أهمل هذه الفئة في الأندلس، فإن الشعر فضحها، فشخص هذا المرض الاجتماعي الخطير. فكأن الشعراء في هجائهم هذه الجماعة إنما كانوا يرومون تطهير المجتمع من أدوائها . فقد عرض عبد الله بن فرج إلى هجاء طفيلي يعرف بابن الأمام، فصور تصويرا مفصلا تحسسه مواضع الولائم، ودخل إلى نفس مهجوه ليعري عما يخالجه من إحساسات قبل وحين يهتدي إلى وليمة من الولائم، فلا تزال نفسه تمور غضبا حتى يلوح له ضباب دخان من بعيد، فيحرك شهوة

الأكل في نفسه، فتقوده حاسته الشمية القوية نحو مصدر الدخان، فهتدي إليه اهتداء الضال بالنجم. فقد علا ذات مرة دخان ب» شنت طولة» إحدى مدن الأندلس، فعرف ابن الأمام من خلاله مكان الوليمة، فانطلق نحوه ركضا مع لمة من أهله الأماميين من دون سابق دعوة، فبدوا في ركضهم كأنهم خيل أعدت للرهان بتصويمها. وحتى لا تفوت هذا الطفيلي أية وليمة أينما عقدت، أقام ببجانة من ينبئه بمواعيد الأعراس ليحضر ولائمها. على هذا النحو، تراه أبدا صبا للتطواف والتجوال، فلو سمع وأهله بموعد وليمة ب»عمان» لقصدوها. ولشره هذا الأمامي، فإنه لا يزور أصدقاءه شوقا إلى لقياهم، بل لما يقدم له أثناء الزيارة من طعام. وإذا وضع طعام وحضره الأماميون، تساقطوا عليه كالذباب فالتهموه التهاما، فترى كبيرهم – وهو المقصود بالهجاء – بينهم يلتطم في لقمته الضخمة وسيماء الغضب بادية عليه، ويثير أثناء الأكل جلبة كتلك التي يثيرها السكران الثمل. ولا يكفي أن يشبع البطن، إنما يملأ أكمامه أيضا تحسبا لجوع مفترض. فقد ضجر رجل من ثقله، مرة، فقصد جيان مستخفيا في قراها، غير أن استخفاءه لم ينجه منه، فكيف ينجو منه وهو لاحقه حتى لوحل بنجران كما قال الشاعر [22]. ونمثل لهذا اللون من الهجاء الراصد لهذه الظاهرة في المجتمع الأندلسي بالبيتين التاليين لابن أبي عيسى يصور فيهما تهالك أحد الطفليين على الأكل وحنينه إليه حنين الرضيع إلى أمه. فقد جسد شرهه من خلال لقمات الطعام التي تبدو عنده على غير معتاد، قال [23]:

يحن إلى طيبات الطعام حنين الرضيع إلى الوالدة
وأركان لقمته ستة كأنه له إصبعا زائدة

ويتصل بمتابعة فن الهجاء تحولات المجتمع من خلال المظاهر السلوكية لإفراده، هجاء الثقلاء والكذبة. وهذا الصنف من الهجاء كهجاء الطفيليين يعد من أخطر أنواع الهجاء، لأنه يتناول نواحي ذات صلة بحياة الإنسان والمجتمع، فهو يقدم لنا صنفا من النماذج البشرية الشاذة في الحياة الاجتماعية. فبالنسبة إلى الثقل، فإنه من الطبيعي أن يصبح صفة مذمومة في مجتمع تطورت أذواق أفراده فأضحت تشمئز من كل ما فيه شذوذ عن الطبيعة الإنسانية السوية في عرف الإنسان المتحضر. فمثلما كان الرجل في مجتمع البداوة القديم يفخر بكرمه وشجاعته، فإن الرجل في هذه الحياة الجديدة أصبح يفخر بخفة الروح التي غدت من فضائل الإنسان المتحضر المرهف الذوق، قال أحمد بن عبد الوهاب يفخر بهذه الصفة في نفسه [24]:

ومن يعزى إلى ثقل فإني أخف على الرياض من الذباب
ولست كمن توصله إليكم طلوع الشيب في ليل الشباب

وعلى النقيض من هذا غدا الثقل مثلبة في سلوك الفرد، فانبرى الشعراء يرشقون بسهامهم أولئك الذين إذا جالسوا امرأ، ناؤوا عليه بثقلهم وغلظ نفوسهم حتى ليحس أن جبالا راسيات قد شدت على ظهره. فقد هجاء ابن فرج الرشاش أحد هؤلاء الثقلاء فقال فيه [25]:

ما إن جلست إلى جليس مرة إلا كان عليه منك الفيلا

وتغلغل هذا اللون من الهجاء إلى أمراض اجتماعية وأخلاقية أخرى كالكذب والرياء. ولاشك أن مثل هذه الأمراض يقترن وجودها في مجتمع ما بما يصيب الحياة من تعقد وبطغيان المصالح الفردية على مصلحة الجماعة وبقيام العلاقات الاجتماعية على أساس من المصلحة والنفعية، الأمر الذي يدفع المرء إلى الظهور بأوجه شتى حسبما تقتضيه مصلحته، ولكن لا ينبغي أن نهمل في مثل هذه الظواهر الاجتماعية العامل النفسي، فالمصابون بمركبات النقص كثيرا ما يحققون أحلامهم وبطولاتهم الخارقة من خلال الكذب فتراهم ينسجون أحداثا وقصصا لا وجود لها إلا في أخيلتهم.

وفي هذا المضمار نجد عددا من الشعراء يتصدون لهذا المرض الاجتماعي بهجاء المصابين به مثلما فعل علي بن أبي الحسين الذي انبرى لذم كذاب وفضح أكاذيبه وأباطيله، فأقوال هذا الإنسان -كما يقول- في مجافاتها الصدق كالطيف الذي يلم بالعاشق في نومه فيخيل إليه أن محبوبته قد جادت عليه بوصل، وهو في الحقيقة يتوهم حدوث هذا الوصل توهما. وكأن أكاذيبه أيضا وعد أعطاه محبوب لمحب ولكن من عادة هذا المحبوب الخلف وعدم الوفاء بالمواعيد. ولأنه جبل على الكذب، فإنه لو سئل عن صدقه فيما ينسجه ويلفقه من أقوال، فإنه لا يستطيع إلا أن يكون كاذبا في إجابته، قال علي بن أبي الحسين[26]:

قول أشبهـــــه خيالا زائـرا أسرى فعلل بالفؤاد مشوقـا

أووعد إلف للجفاء مؤالـف جعل الخلاف إلى العباد طريقـا

لوكنت تسأل هل صدقت تركت:لا حذرا وخوفا أن تكون صدوقا

وفي هذا السياق نفسه هجا محمد بن الحسين الطبني شخصا كان يتظاهر له بالصداقة، فإذا غاب عنه سلط عليه لسانه . فهو شخصية تلبس لكل موقف وجها، فمن شيمه الرياء والنفاق والغيبة ، لذلك تراه يلقى صاحبه بالبشرى والترحاب ويبريه وراء ظهره بري القلم، قال[27] :

ووغد إن أردت له عـقابا عفا عن ذنبه حسبي وديـني

يؤنبني بغيبة مستطيل ويلقاني بصفحة مستكيـــن

ولولا الحلم أن له لـجاما لداس الفحل بطن ابن اللبون

وليست هذه النماذج من المهجوين من صنع أخيلة الشعراء بل هي – في الحقيقة – نماذج واقعية، فالطفيلي والأكول والكذاب والمرائي والمنافق ذو الوجوه المتعددة، هذه كلها شخصيات ملتقطة من صميم الواقع، من ثم تظهر أهمية هذا الهجاء في ارتباطه بالحياة الاجتماعية المتحضرة وفي تعبيره عن التحول الذي عرفه المجتمع الأندلسي، خاصة أن هذا الهجاء لم يقتصر على تشخيص عيوب الطبقة العامة إنما امتد إلى الطبقة الخاصة أيضا، فيحيى الغزال كما قال الدكتور محمد رضوان الداية «انتهج النقد الاجتماعي ولم يكن أحد عنده فوق مستوى النقد، وكانت نماذجه المنقودة من الرؤوس : نصر، زرياب، ويخامر : وهم متنفذ كبير،

ومغني الأمير وضيفه، وقاضيه «[28].فنصر الخصي الذي يقول ابن حيان في حقه :» أرهب ما كان الناس له وأخوفهم لعدوانه «[29] . تناوله يحيى الغزال بالهجاء حيا وميتا بجرأة فائقة معبرا عن رأي العامة فيه، فقد قال فيه وهو حي يرزق[30] :

أيا لاهيا في القصر قرب المقابر ... يرى كل يوم واردا غير صادر

كأنك قد أيقنت أن لست صائرا ... غدا بينهم في بعض تلك الحفائر

تراهم فتلهو بالشراب وبعض ما ... تلذ به من نقر تلك المزامر

ولم يستثن هذا الهجاء في الأندلس الحكام أنفسهم، فتناول الجوانب السلبية في حياتهم، وكان هذا الشعر يعبر - من دون شك – عن رأي عامة الناس فيهم، فهشام بن عبد الجبار أحد المشاركين في الفتنة المبيرة التي هزت الأندلس في نهاية القرن الرابع الهجري، كان، كما جاء في البيان المغرب، على أخلاق رديئة وسلوك سيئ فيه مجون وخلاعة، إلى اختلال في الدين وإدمان على الشراب وإتيان المناكير، فلما تولى أمر الأندلس أيام الفتنة قال فيه بعضهم[31] :

أمير الناس سخنة كل عين ... يبيت الليل بين مخنثين

يجشم ذا ويلثم خد هذا ... ويسكر كل يوم سكرتين

لقد ولوا خلافتهم سفيها ... ضعيف العقل شينا غير زين

وفي هذا السياق أيضا تناول الشعر بالهجاء الحاجب المنصور بن أبي عامر وعلاقته بصبح أم هشام المؤيد خليفة الأندلس، وهي علاقة كان الناس ينظرون إليها بشيء غير قليل من الريب [32].

وتتبع أيضا فن الهجاء المتصل بموضوعنا القضاة فأبرز ما اتصف به بعضهم من نواقص لا تؤهل صاحبها إلى هذه المهنة كالغفلة والبله وضآلة الحظ من الثقافة والجهل بأمور القضاء، فقد هجا يحيى الغزال القاضي يخامر الشعباني من هذه النواحي فقال [33]:

لقد سمعت عجيبا ... من آبدات يخامر
قرا عليه غلام ... طه وسورة غافر
فقال : من قال هذا ؟ ... هذا لعمري شاعر !
أردت صفع قفاه ... فخفت صولة جائر
أتيت يوما بتيس ... مستعبرا متحاسر
فقلت : قوموا آذبحوه ... فقال : إني يخامر

وقال في هذا القاضي نفسه مركزا على بضاعته المزجاة فيما تستوجبه مهنة القضاء من علم وسعه معرفة في علوم الدين (34) :

فقلت له كلفتني غير صنعتي ... كما قلدوا فضل القضاء يخامرا
فأصبح قد حارت به طرق الهوى ... يكابد لجيا من البحر زاخرا
فقلت :لو استعفيت منها فقال لي: ... سأفضح ما قد كان منك مغايرا
فقلت له : رأس الفضوح إقامة ... علينا كذا من غير علم مكابرا
وخبطك في دين الإله على عمى ... خباطة سكران تكلم سادرا
فلن تحمل الصخر الذباب ولن ترى الـ ... سلاحف يزجين السفين المواخر

ويبدو أن هذا القاضي كان ظاهرة في الغفلة والبله والجهل بأوليات المعارف ذات العلاقة بعلوم الشرع والدين وبسواها من المعارف حتى العامة منها، لذلك تناوله أكثر من شاعر بالهجاء من هذه الناحية، فقد جاء

في المقتبس لابن حيان القرطبي أن عبد الله بن الشمر الشاعر ألقى مرة بين السحاءات التي كان يخامر ينادي بها الخصوم للتقدم إليه سحاءة مكتوبا عليها « يونس بن متى « و» المسيح بن مريم «، ولما وصلت هذه السحاءة إلى يده، أمر أن يدعى للخصمين بها، فهتف الهاتف : يونس بن متى والمسيح بن مريم ! ولا مجيب إلى أن صاح ابن الشمر: إن نزولهما من أشراط الساعة، ثم قال [35] :

يخامر ما تنفك تأتي بفضحة ... دعوت ابن متى والمسيح بن مريما

فثوب فينا ثم ناداك صائح ... فإنهما لما على الأرض يعلما

قفاك قفا جحش ووجهك مظلم ... وعقلك ما يسوى من البعر درهما

فلا عشت مودودا ولا رحت سالما ... ولا مت مفقودا ولامت مسلما

وتناول هجاء القضاة ما يناقض العدالة كخيانة الشهادة وتزويرها وما إلى ذلك، فتغلغل من هذه الناحية أيضا في المجتمع فكشف عن الفئة المتصفة بمثل هذه العيوب التي تلحق أضرارا بليغة بالناس وتتسبب في ضياع مصالحهم وحقوقهم ظلما وزورا، كما اتجه في هذا السياق نفسه إلى فضح الطبقة المتظاهرة بالتدين والورع والوقار والتواضع وحسن السيرة والصلاح ليوقعوا ضحاياهم في مصايدهم فيسهل عليهم بلوغ مآربهم وتحقيق مكاسبهم بطرق لا يقرها لا العقل ولا الشرع الذي يتظاهرون بتمثيله، فتناول شعر الهجاء هذه الفئة وأغلبها من الفقهاء والقضاة وجعلها موضوعا من موضوعاته لتعريتها وفضحها، ويعتبر يحيى بن حكم الغزال من أكثر شعراء وقته اهتماما بتتبع السلوكات المنحرفة

التي يصدر عنها أشخاص يفترض فيهم أن يكونوا مثالا للنزاهة والاستقامة والعدل، فقد قال عنه الدكتور محمد رضوان الداية : « كان ينقم سوء استعمال المنصب... ونجد في هجومه على بعض القضاة أو الفقهاء أو العدول الأسباب الموجبة للهجوم... ونقدر موقفه من كل مستغل وجامع للمال الحرام »[36]، فمما قاله في الفقهاء منتقدا ثراهم غير المشروع[37] :

لست تلقى الفقيه إلا غنيا ليت شعري من أين يستغنونا
نقطع البر والبحار طلاب الرز ق والقوم ها هنا قاعدونا
إن للقوم مضربا غاب عنا لم يصب قصد وجهه الراكبونا

وفي استغلال بعض القضاة مناصبهم للاستحواذ على ما بأيدي الآخرين بغير وجه حق، قال[38] :

يقول لي القاضي معاذ مشاورا وولى امرأ فيما يرى من ذوي العدل :
قعيدك، ماذا تحسب المرء صانعا ؟ فقلت : وماذا يفعل الدب في النحل؟
يدق خلاياها ويأكل شهدها ويترك للذبان ما كان من فضل

وفي أولئك الذين يلفقون الشهادة ويزورونها غير مبالين بما يترتب عن سلوكهم هذا من أضرار جسيمة تصيب الغير جورا وظلما قال (39) :

أتاك أبو حفص ويحيى بن مالك فأهلا وسهلا بالوغى والمعامع
رجال إذا صبوا عليك شهادة حكت فيك وقع المرهفات القواطع
أقول لديكي إذ رأيت وجوههم : تعز فقد جاءتك إحدى الفجائع
رثا واستهلت عند ذاك دموعه وقال : كثيرا ما أفاضوا مدامعي

ولم يكن يحيى الغزال مثالا فردا في تتبع هذه الظواهر السلبية التي صاحبت التحول والتعقيد الذي عرفته الحياة الاجتماعية في الأندلس، ففي المصنفات التاريخية والأدبية الأندلسية نماذج شعرية أخرى أماطت اللثام عن مثل هذه الظواهر وانتقدت فيها المتصفين بها [40].

ومع تطور الحياة العلمية والثقافية في الأندلس وبلوغها درجة عالية من النضج حظي العلماء عند الخاصة والعامة على سواء بشيء غير قليل من التقدير والتعظيم فأنزلوهم منازل عالية مرموقة، سوى إنه ظهر بين هؤلاء العلماء بعض المتعالمين الذين قلدوا مناصب غير مؤهلين لها فافتضح أمرهم وانكشف ضيق أفقهم وهشاشة علمهم وضحالة ما بأيديهم منه، فتناولهم الهجاء بلسان درب حديد وسلط عليهم سهامه وألقمهم حجارة مدمية وأظهرهم للناس على حقيقتهم بأن نزع عنهم الأقنعة التي تقنعوا بها على نحو ما فعله الوليد بن عبد الرحمن بعبيد الله بن يحيى الليثي الذي كان يتصدر مجلسا من مجالس العلم بالأندلس نال على إثره لقب « الشيخ»، فقد سئل في مجلس من مجالسه عن « الثغامة» لمرور ذكرها فيما قرئ عليه، فكان جوابه : الثغامة طائر من طيور الماء، فقال فيه الوليد بن عبد الرحمن [41] :

ذهب الزمان بصفوة العلماء وبقيت في ظلم وفي عمياء
وأتى طغام رتع من بعدهم لا فرق بينهم وبين الشاء
فإذا سألت عن الثغام أشدهم علما يفسره بطي رالماء

وفي ابن أرقم الذي تولى خطة التأديب ولم يكن معدودا بين العلماء والأدباء قال بكر الأعمى يزري به ويحط من شأنه ويبدي استغرابه وتعجبه

من الزمن الذي هانت معه خطة التأديب حتى وصلها ابن أرقم قال (42) :

قلب الزمان فجاء بالمقلوب وتظاهرت آيات كل عجيب

لا تيأسن من الوزارة بعدما نال ابن أرقم خطة التأديب

ومن هذا المنظور نفسه، كان الأحداث من الكتاب الذين يدعون المعرفة بفنون الكتابة وهم لا يحسنون منها شيئا دريئة لسهام الشعراء، فتناولوهم بالهجاء، ومما وصلنا في هذا الموضوع البيتان الآتيان لشاعر قال عنه الحميدي إنه أديب قديم، تعرض فيهما لهذه الفئة من الكتاب الذين لا يفقهون للكتابة معنى فضاعت معهم فنونها قال (43) :

قلب الزمان فبان بالآداب ومحا رسوم محاسن الكتاب

وأتى بكتاب لو استخبرتهم لرددتهم طرا إلى الكتاب

وفي سياق التطور الذي عرفه المجتمع الأندلسي، نمت الحياة الثقافية والعلمية به نموا لم يعرفه المجتمع البدوي القديم فاتسعت لعلوم جديدة منها علم الفلك الذي يبدو أنه لم يجد الترحيب عند جميع الناس فناصبه بعضهم العداء فهجوا الآخذين به وسخروا منهم وسفهوا أقوالهم، كما هو شأن ابن عبد ربه في هجائه وسخريته من أبي عبيدة البلنسي وتهكمه به، فقد كان يقول بكروية الأرض وبتعاقب الفصول عليها واختلافها من مكان لآخر باختلاف موقع هذا المكان شمالا أو جنوبا [44] . فراح ابن عبد ربه يسخف آراءه ويرميه بالشذوذ عن الجماعة وينسبه إلى الإرجاء والاعتزال، ويرمي صاحبه ابن موسى بالغواية، قال [45] :

أبا عبيدة والمسؤول عن خبر يحكيه إلا سؤالا للذي سألا

أبيت إلا شذوذا عن جماعتنا ولم يصب لا رأي من أرجا ولا اعتزالا

كذلك القبلة الأولى مبدلة وقد أبيت فما تبغي بها بـدلا
زعمت بهرام أو بيدخت يزرقنا لا بل عطارد أو برجيس أو زحـلا
وقلت : إن جميع الخلق في فلك بهم يحيط وفيهم يقسم الأجـلا
والأرض كورية حف السماء بها فوقا وتحتا وصارت نقطة مثلا
صيف الجنوب شتاء للشمال بها د صار بينهما هـذا وذا دولا
فإن كانون في صنعا وقرطبة برد وأيلول يذكي فيهما الشـعلا
هذا الدليل ولا قول غررت به من القوانين يجلي القول والعـملا
كما استمر ابن موسى في غوايته فَوعَّر السهل حتى خلته جـبلا
أبلغ معاوية المصغي لقولهما أني كفرت بما قالا وما فـعلا !

وعندما صنع عباس بن فرناس في بيته هيئة السماء، وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود، هجاه مؤمن بن سعيد هجاء مذقعا بألفاظ بذيئة ساخرا منه ومسخفا إبداعاته في الفلك، وقد أورد هذا الهجاء المقري في نفح الطيب في سياق كلامه عما يحكى عن أهل الأندلس «في الذكاء واستخراج العلوم واستنباطها.» [46]

وفي هذا المساق أيضا تناول بعض الشعراء بالهجاء المشتغلين بالتنجيم فرموهم بالكذب وسخروا منهم وسفهوا تنبؤاتهم، قال ابن عبد ربه في هجاء بعض المنجمين [47]:

قل لأبن عزرا ألسخيف الحجا زرى عليك الكوكب الثاقب !
ما يعلم الشاهد من حكمنا كيف بأمر حكمه غائـب

وقل لعباس وأشياعه كيف ترى؟ قولكم الكاذب!
خانكم كيوان في قوسه وغركم في لونه الكاتب
فكلكم يكذب في علمه وعلمكم في أصله كاذب
ما أنتم شيء ولا علمكم «قدضعف المطلوب والطالب»[48]

وقد اقتضى تعقد الحياة في المجتمع الأندلسي شأنه شأن المجتمعات الإسلامية الأخرى بعد مخالطة الحضارة إنشاء وظيفة الحجابة، فأصبح الوصول إلى ذوي السلطان أمرا غير ميسور قبل الاستئذان والانتظار لوقت طويل أحيانا، ويبدو أن بعض المحجوبين بالغوا في امتناعهم عن لقاء الناس لاسيما المغمورين منهم، فجروا على أنفسهم قبيح القول، فقد ذكر الحميدي في جذوة المقتبس أن أحمد بن عبد الملك بن عمر بن شهيد زار جد عبد الملك بن جهور، فوافقه محجوبا فعز عليه الوصول إليه فكتب يهجوه[49]:

أتيناك لاعن حاجة عرضت لنا إليك ولا قلب إليك مشوق
ولكننا زرنا بضعف عقولنا حمارا تولى برنا بعقوق

وهجا ابن عبد ربه أحد هؤلاء المحجوبين فسخر منه سخرية مرة، فقد كان يكفي هذا المحجوب قبح وجهه وذمامة خلقته إقامة حاجب على بابه، فما عليه إلا أن يعزل حاجبه، ففي ما في وجهه من عيوب ومن نقص ممقوت ما يصرف عنه قصاده ويرد عنه طراقه، قال[50]:

ما بال بابك محروسا ببواب يحميه من طارق يأتي ومنتاب
لا يحتجب وجهك الممقوت عن أحد فالمقت يحجبه من غير حجاب !
فاعزل عن الباب من قد ظل يحجبه فإن في وجهك طلسم على الباب !

ومما يؤكد ارتباط فن الهجاء في الأندلس بالواقع الاجتماعي وتعبيره عما عرفه من تحول قياسا إلى المجتمع البدوي القديم مراعاته ذوق جمهوره من الناحية اللغوية، فقد ابتعد شعراؤه عن اللغة الغريبة الخشنة التي يعتاص فهمها، فالشواهد التي أوردناها وإن لم يكن مستواها اللغوي واحدا، فإن السمة الغالبة على لغتها هي الوضوح والميل إلى العبارة العذبة الرشيقة، مع توافر موسيقى مرحة ومغرية أحيانا في الأبيات كما يظهر ذلك في الأبيات التي أثبناها ليحيى الغزال يهجو فيها يخامر الشعباني . وإلى جانب ذلك نلحظ في النموذج الذي أوردناه لأبي القاسم لب يرد فيه على ابن جهور ظاهرة لغوية تعبر عن تركيبة المجتمع الأندلسي، الذي لم يكن عربيا خالصا، ففي النموذج المذكور ميل واضح إلى استعمال بعض الألفاظ المتداولة في هذا المجتمع الذي امتزجت فيه العناصر البشرية، من هذه الألفاظ « القرضيل» و « الفول « وهي من ألوان المأكولات التي كانت شائعة في الوسط الشعبي في المجتمع الأندلسي كما نجد في هذا النموذج نفسه لفظتين من العامية الأندلسية المتأثرة بالإسبانية القديمة وهما « شو «الدالة على ضمير الملكية وتطورت في الإسبانية الحديثة إلى «سو،Su» و « قولو « ومعناها الردف، وهي في الإسبانية « 51) » culo) . وهذه الظاهرة اللغوية تعتبر – في تقديرنا – ملمحا من ملاح التحول الذي عرفه المجتمع الأندلسي على إثر الامتزاج الذي حدث بين العناصر البشرية التي شكلت تركيبته .

وتجلى تعبير هذا الهجاء عن المجتمع من خلال بعض معانيه أيضا كما نلمس ذلك في أبيات ليحيى الغزال يهجو فيها الأسوار بن عقبة، قال [52]:

وتحســـب من خبـه أنـــه تراه عن الناس في غربه
وما ذاك منه –فلا تأمنو ه – إلا لتمكنه الوثبه
رأيـــــت لـــه ناظـري هـرة تراءى لها الفأر في ثقبه

إن يحيى الغزال استمد معناه والمثال الذي وضحه به مما يدور في أحاديث العامة، فضرب المثل بالفأر والهرة في الكلام على أولئك الذين ينتهزون الفرص لتحقيق مآربهم، أمر ذائع في الوسط الشعبي، فمنه التقط الشاعر الصورة التي جسد من خلالها معناه . وتلقنا مثل هذه المعاني المستمدة مما هو متداول في المجتمع في أكثر من نموذج من نماذج شعر الهجاء في الأندلس من ذلك هذان البيتان ليحيى القلفاط في محمد بن إسماعيل الحكيم وكان قد قضى ليلة معه في بيته فلم يفيقا من نومهما إلا مع طلوع الشمس فقال القلفاط يخاطبه [53]:

يا ديك مالك لم تصرخ فتنبهنا لقد أسأت بنا ديك الدجاجات
يا آكلا للقذى يا سالحا عبثا على الحصير بهيمي البهيمات

إن هذين البيتين وإن كانت الغاية منهما التبسط والتفكه لا التعبير عن سخط الشاعر وحنقه على مهجوه فإنهما، من حيث ما يتضمنانه من فكاهة ونكته، ومن حيث اللغة المستخدمة فيهما وهي لغة ألفاظها مستقاة مما هو متداول في أوساط العامة من الناس، يشفان عن انعكاس طوابع المجتمع الأندلسي في شعر الهجاء .

على هذا النحو، يبدو واضحا من خلال النماذج التي عرضناها أن شعر الهجاء في الأندلس يعد شاهدا من الشواهد على التحول الذي عرفه المجتمع الأندلسي، فقد عبر بوضوح عن السمات والخصائص التي جعلت منه مجتمعا ذا شخصية مميزة وأبعد من أن يكون صورة مكررة لمجتمع آخر بما توافر له من عوامل بيئية واجتماعية واقتصادية وثقافية وعلمية كانت وراء النقلة الحضارية التي شهدها حتى أضحى مجتمعا واضح الصورة بين القسمات له هويته التي يتفرد بها عما سواه .

الهوامش :

1 – شابحة حمرون، شعر ابن دراج القسطلي في مدح العامريين، قراءة في المحتوى من خلال حياة الشاعر وبيئته ، رسالة ماجستير مخطوطة بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الجزائر 1999 /2000 .ص 13

2 – قدامة بن جعفر، تح : محمد عبد المنعم خفاجي، ط : الأولى، مصر، مكتبة الكليات الأزهرية 1978 ص . 187

3 – أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تح محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة، دار المعارف 1973 ص 296 – 297

4 – أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تح د/ إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة 1966 ص 267 – 262

-5 يحي الغزال، ديوان يحي الغزال، جمع وتحقيق، د/ محمد رضوان الداية، ط : 1، دمشق، دار قتيبة 1982 ص 17

6 – جبرائيل جبور، ابن عبد ربه وعقده، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1933، ص . 84

-7 ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة، ج .س كولان و إ . ليفي بروفنسال، ط . 3، دار الثقافة، بيروت 2، 1983 / 250

8 – أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح، د/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1968 ، 3/ 156

9 – راجع مثلا ما ورد بهذا الشأن في نفح الطيب للمقري 3/ 150 – 151 و 156

10 – عمر الدقاق، ملامح الشعر الأندلسي، دار الشرق، بيروت 1975، ص . 45

11 – ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب 2/ 226 – 227

12 – ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب 2 / 227

13 – أبو عبد الله محمد بن عبد الله أبي بكر القاضي المعروف بابن الأبار، الحلة السيراء، تح د . حسين مؤنس، ط 1، الشركة العربية للطباعة والنشر، 1963، 1 /123

14 – أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ص . 260

15 – أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات، ص . 261

16 – أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات، ص . 260

17 – أبوعبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات، ص . 260

18 – راجع إليا الحاوي ، فن الهجاء وتطوره عند العرب، دار الثقافة، بيروت، (د . ت)، ص . 269

19 – يحي بن حكم الغزال، ديوان يحي الغزال، جمع وتحقيق د . محمد رضوان الداية ص . 58

20 – أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات، ص،257

21 – أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب 1 /223 . وهذا الكلام وإن كان غير محدد بفترة معينة فإني لم أجد ما يناقضه .

22 – الأبيات كاملة أوردها أبو حيان التوحيدي في أخلاق الوزيرين، الصاحب بن عباد وابن العميد، تح محمد بن تاويت الطنجي، دمشق . المجمع العلمي (د . ت) . ص . 398 – 399، وأورد ابن الكتاني أربعة منها في كتاب التشبيهات ص . 256

23 – أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب،ص . 255 – 256

24 – أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات،ص.256-255

25 - أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات، ص.259

26 - أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات ص.259

27 - أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاية

الأندلس، تح محمد بن تاويت الطنجي،ط:1 مكتب نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة 1952،ص،47

28 - يحي بن حكم الغزال، ديوان يحي الغزال، ص 82-81

29 - ابن حيان القرطبي، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تح، د/ علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973،ص.8

30 - يحي بن حكم الغزال، ديوان يحي الغزال، ص.82-81

31 - ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، 3/80

32 - راجع المقري، نفح الطيب، 1/602

33 - ابن حيان، المقتبس، تح، د/ علي مكي،ص.65

34 - ابن حيان، المقتبس، تح، د/ علي مكي، ص.65-64

35 - أورد هذا الخبر والأبيات، ابن حيان القرطبي في المقتبس، تح،د/ علي مكي ص. 65-66

36 - يحي بن حكم الغزال، الديوان، جمع وتحقيق د/ محمد رضوان الداية، ص.19

37 - يحي بن حكم الغزال، الديوان، ص.109

38 - ابن حيان، المقتبس تح، د/ علي مكي،ص.69

39 - ابن حيان المقتبس، تح د/ علي مكي،ص.70

40 - راجع مثلا، ابن حيان، المقتبس، تح د/ علي مكي،ص.58-48

41 - ابن حيان، المقتبس تح، د/ علي مكي ص 175-174

42 - الحميدي، جذوة المقتبس،ص.304

44 - راجع أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ط:7، دار المعارف، مصر 1979 ص 215

45 - ابن عبد ربه، الديوان جمع وتحقيق وشرح د. محمد رضوان الداية،ط.1 مؤسسة الرسالة، بيروت 1979 ص 138

46 - المقري ، نفح الطيب، 3/374

47 - ابن عبد ربه، الديوان، ص 31

48 - نبه جامع شعر ابن عبد ربه الدكتور محمد رضوان الداية إلى أنه يشير إلى قوله تعالى: «..إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب» الحج.73

49 - الحميدي، جذوة المقتبس، تح إبراهيم الأبياري، ط: 2، دار الكتاب اللبناني بيروت 1983،ص.207

50 - ابن عبد ربه، الديوان، ص.24

51 - راجع أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص. 218

52 - ابن حيان، المقتبس، تح د/ علي مكي، ص 58، وقد رجح المحقق أن تكون الأبيات للغزال راجع المقتبس، ص. 58 هامش.2

53 - أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص277 .

مخالفة الأصل في أبنية المشتقات

حالية بنت محمد إبراهيم شيبة
جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية

ملخص البحث

يتناول هذا البحث موضوع (مخالفة الأصل في أبنية المشتقات) ، وهذه المخالفات مذكورة في كتب النحو ، فقام البحث بجمع نماذج من كتبهم ومن كتب التفاسيروغيرها ومن ثم دراستها .

بينت في هذا البحث تعريف المخالفة ، فالاشتقاق ،ثم عرضت أسباب المخالفات في أصل القواعد النحوية ثم قمت بتطبيق ذلك على القرآن الكريم بذكر المواقع التي وقعت فيها المخالفات في المشتقات ومناقشتها.

وأخيرا الخاتمة وتبرز فيها أهم النتائج التي ظهرت في البحث، ومنها إن مخالفة الأصل في أبنية المشتقات التي من القرآن الكريم لا تعد من الشواذ أو الأخطاء المنبوذة، وإن وجود هذه المخالفات لها أسباب من أهمها : مراعاة النظير ،المبالغة ، مراعاة الفاصلة ، والمشاكلة ..الخ.

تعريف المخالفة:

المخالفة : ما خرج عن القاعدة النحوية أوالقياس الصرفي ، ولم يوافق إجماع النحويين عند بنائهم لقوانين اللغة العربية .

والمراد منه مخالفة ما أجمع النحاة على منعه أو ما كان القول بجوازه ضعيفاً وروده في كلام العرب شاذاً .[1]

وقد يوصف هذا المخالف بـ «السماعي»، أو أنه «لغة»، أو «لغية»[2]، أو «لغات»، كما في جواب أبي عمرو بن العلاء، لما سُئل عما وضعه «مما سميت عربية، أيدخل فيه كلام العرب كله؟ فقال: لا، فقال السائل: كيف تصنع فيما خالفتك فيه، وهم حجة؟ فقال: أحمل على الأكثر، وأسمي ما خالفني لغات»[3].

وهناك فرق قليل بين بعض هذه المصطلحات، من ذلك: أن ما خالف القياس، وقل وجوده فهو شاذ ونادر، وإن كثر فهو شاذٌ فقط، وما قل ولم يخالف فهو نادر فقط، والضعيف مباين لهما، وهو ما كان في ثبوته كلام، وفي ذلك يقول الإمام السيوطي: «الشاذ: ما كان من كلام يحتج به على خلاف القاعدة المطردة، سواءٌ كان قليلاً أو كثيراً في نفسه، والنادر: ما قل وجوده، سواء وافق القياس أو خالفه، والضعيف: ما يكون في ثبوته كلام، كـ «قرطاس» بالضم».[4]

فالقليل والنادر ليسا دائماً مخالفين للقياس، في حين أن الشاذ مخالف في كل الأحوال[5].

ويبدو مما تقدم أن أدق وأشهر مصطلح لما يخالف القياس هو: «الشاذ»، قال ابن السراج: «ولو اعترض بالشاذ على القياس لبطل أكثر الصناعات والعلوم، فمتى سمعت حرفاً مخالفاً، لا شك في خلافه لهذه الأصول، فاعلم أنه شاذ، فإن كان سمع ممن ترضى عربيته فلابد أن يكون قد حاول به مذهباً، ونحا وجهاً من الوجوه، أو استهواه أمرٌ عظيم»[6].

ويعد القياس مصدر من مصادر اللغة المتعددة[7]، والغاية منه: تقويم الألسنة، وتدريبها على استعمال العربية استعمالاً سليماً، قال أبو علي الفارسي: «الغرض فيما ندونه من هذه الدواوين، ونثبته من هذه القوانين، إنما هو ليلحق من ليس من أهل اللغة بأهلها، ويستوي من ليس بفصيح ومن هو فصيح، فإذا ورد السماع بشيء لم يبق غرض مطلوب، وعدل عن القياس إلى السماع»[8].

ونظراً للهدف والغاية من القياس فإن له أثراً واضحاً في نقاء اللغة وبقائها.ويرجع الفضل في ذلك إلى المنهج الذي اتبعه أغلب القدامى في أقيستهم؛ إذ كانوا يقيسون على الأكثر الغالب، ويجعلون القليل وبعض ما ورد كثيراً مقصوراً على السماع.[9]

وللقياس فضل في توليد صيغ جديدة ملائمة مع تطورات الحياة؛ لأنه لو صح أن يضع الواضع لكل معنى لفظاً لتعذر جمع اللغة في مجلدات، ولصعب على الناس حفظها[10]، ولبقي كثير من المعاني غير معبر عنه؛ لعدم النقل، وذلك مناف لحكمة الوضع، فالمنقول من كلام العرب محدود ومتناهٍ، والمعاني غير متناهية[11].

هذا، وينبغي التنبيه إلى أن للقياس أثراً – أيضاً – في الدرس اللغوي، ويظهر ذلك في مواضع منها:

- أن القياس هو المعول عليه في أغلب مسائل النحو[12]،كما قال الكسائي.

إنما النحو قياسٌ يُتَّبع ... وبه في كل علم يُنتفع

- ومنها: اختلاف العلماء «في بعض القراءات القرآنية، وروايات الأحاديث النبوية المخالفة للكثير الوارد، فبعضهم حكم القواعد فيهما،

ورفض القياس عليهما، بل خطأهما، وبعضهم قبلهما، ودافع عنهما، واحتج بهما»[13]، وعن ذلك يقول الإمام السيوطي: «كان قوم من النحاة المتقدمين يعيبون على عاصم وحمزة وابن عامر قراءات بعيدة في العربية، وينسبونهم إلى اللحن، وهم مخطئون في ذلك على جوازه في العربية، وقد رد المتأخرون منهم ابن مالك على من عاب عليهم ذلك بأبلغ رد، واختار جواز ما وردت به قراءاتهم في العربية، وإن منعه الأكثرون، مستدلاً به ...»[14].

ومن الجدير بالذكر هنا أن فصاحة القرآن الكريم وقراءاته، وفصاحة ما ثبت عن الرسول (ص)، أمر مسلم به، ومعتمد عليه، فما حكم منهما على الشذوذ والقلة، لا يعني تخطئته، ولا نفي فصاحته، وإنما يعني أنه منفرد عن بقية بابه، مع بقائه على فصاحته، بل من العلماء من يرى أنه لو قيس على ذلك الشاذ، فقيل في "استحوذ": "استحاذ"، لم يكن خطأ[15].

ويذكر – أيضاً – أن القدامى كانوا يهدفون إلى منع تسرب اللحن والخطأ إلى القرآن والسنة؛ لذا أسسوا بنيانهم القياسي على الكثرة استعمالاً وعدداً؛ لأن التهاون في أمر القياس «... يؤدي إلى البلبلة والاضطراب في التفاهم، ويبعد عن اللغة أهم خصائصها، وهو التفاهم الجلي...؛ إذ سوف ينشأ عن هذا التهاون ظهور لهجات فردية، ولغات لا عداد لها، ولا تقييد ...»[16].

تعريف الاشتقاق

الاشتقاق هو "نزع لفظ من آخر بشرط مناسبتهما معنى وتركيباً ومغايرتهما في الصيغة"[17].

وقد اختلف العلماء في تحديد المشتقات ، فيرى النحويون أنَّ المشتق هو ما يرادف الصفة ويعمل عمل الفعل ، أي يكون منحصراً في

الصفات الخمس وهي اسم الفاعل واسم المفعول وصيغ المبالغة والصفة المشبهة واسم التفضيل[18]، ونجد أن الصرفيين يضيفون لها اسمي الزمان والمكان[19] ، ويرى اللغويون أن المشتقات تضم تقاليب اللفظة المأخوذة من الصوامت الثلاثة بطريقة الاشتقاق الكبير[20].

أما البحث في أصل المشتقات فلا طائل منه ؛ إذ لا يؤثر في منهج البحث إن كان المصدر هو أصل المشتقات أو كان الفعل أصلاً لها[21]، ولذلك سنعرض أنواع المشتقات في عرف النحاة.

أسباب مخالفة الأصل في أبنية المشتقات :

كان القدامى يرون أن لغات العرب كلها حجة؛ لذا لم يجز – عندهم – رد إحداها بأخرى، ويرون أن العربي عندما يأتي بكلمة شاذة، لابد أن تكون هناك علة، أو سبب؛ لأن العربي الفصيح لا يخطئ في لغته، قال ابن السراج: «..فمتى وجدت حرفاً مخالفاً – لا شك في خلافه – لهذه الأصول فاعلم أنه شاذ، فإن كان سمع ممن ترضى عربية، فلابد أن يكون قد حاول به مذهباً، أو نحا نحواً من الوجوه، أو استهواه أمر غلطه»[22].

إن وقوع مخالفة الأصل في أبنية المشتقات ترجع في الغالب إلى عدة أمور:

أولا: التنبيه على الأصل: أي: التنبيه إلى أصل الكلمة، أو أصل القاعدة[23].

من ذلك قول ابن يعيش عن شذوذ نحو: «أقوس، وأثوب» جمعاً لـ «قوس، وثوب»: «وقد شذت فجاءت على القياس المرفوض، قالوا: «أقوس، وأثوب، وأعين، وأنيب»، جاءوا بها على «أفعل»؛ منبهة على أنه الأصل»[24].

ثانياً: منع اللبس: قال ابن هشام: وقالوا في(عِيد: عُيَيد)، شذوذاً؛ كراهية لالتباسه بتصغير (عود).[25]

ووضح الدكتور تمام حسان بأن الشذوذ يحدث في اللغة عندما يترخص الفصحاء في قرائن الكلام عند أمن اللبس؛ طلباً للخفة؛ أو سعياً وراء الابتكار والإعراب؛ أو خضوعاً للضرورة، وهذا النوع من الترخص يسمى في علم اللغة بـ«الابتداع في اللغة»، أو «الابتكار اللغوي»، وهو أدنى درجات الصواب؛ لأنه يخالف القاعدة والسنة المتبعة في اللغة، ولا يشفع له إلا أن اللبس معه مأمون[26].

ثالثاً: مراعاة النظير وذلك في قوله تعالى: (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ)[27] فقد جاء (ضائق) معدولاً به عن (ضيّق) لمراعاة النظير مع (تارك).

رابعاً: الإتباع، كقولهم في اسم الفاعل من «أنتن»: «منتُن» شذوذاً، بتحريك التاء ضماً بدل الكسر؛ إتباعا لحركة الميم المضمومة قبلها، قال الصبان: «وأما نحو «منتن» بضم التاء إتباعا فشاذ»[28].

خامساً: زيادة المعنى، كالمبالغة[29] في نحو قوله تعالى: (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ)[30].

سادساً: التوسع في مجال الاستعمال اللغوي؛ إذ الشذوذ أنواع متباينة: منها ما يطرد ويقاس عليه، ومنها ما يوقف على السماع، فلا يجوز القياس عليه31.

سابعا : المشاكلة و مراعاة الفاصلة في آي القرآن الكريم كما في قوله تعالى: «ماء دافق»[32] وكقوله تعالى «عيشة راضية»[33]

ثامنا: التناسب بين المعاني كقوله تعالى : «فرت من قسورة»[34]

نماذج تطبيقية من القرآن الكريم على مخالفة الأصل في أبنية المشتقات:

في أثناء تلاوتي للقرآن الكريم تمر علي بعض الكلمات من المشتقات تخالف مدلولها ، وهذه نماذج أطرح بعضا منها لدراستها[35] ، وأعرض أقوال العلماء فيها :

المبحث الأول:اسم الفاعل من حيث الصياغة والدلالة:

القاعدة : اسم الفاعل :هو ما دل على الحدث والحدوث وفاعله36.

ويُصاغ اسم الفاعل من الثلاثي على وزن (فاعل)، ويصاغ مما زاد على الثلاثي على وزن مضارعه مع إبدال حرف المضارعة ميما مضمومة وكسر ما قبل الآخر.

وقد جاء ما خالف هذه القاعدة وذلك في قوله تعالى (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)[37]

فكلمة(راضية) في قوله تعالى(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) وعندما رجعت إلى التفاسيروجدت أن راضية بمعنى مرضية[38]،وفي ذلك أن اسم المفعول قد جاء على وزن فاعل والقاعدة فيه أن يأتي على وزن مفعول.

ومما جاء في القرآن الكريم فاعل بمعنى مفعول الآيات التالية:

-قوله تعالى (مَاءٍ دَافِقٍ)[39]أي :مدفوق

-وقوله (لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)[40]أي: معصوم

ويرى بعض المفسرين أن هذه الصيغ وهي (راضية – دافق – عاصم) أن تكون مفعول على بابها، وهنا لا تكون مخالفة حينئذ.

والرأي الآخر : أن تكون بمعنى النسب ، وهذا ما أقره الرضي عندما قال في قوله (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) و(مَاءٍ دَافِقٍ) :والأولى أن يكونا على النسب، كنابل وناشب، إذ لا يلزم أن يكون فاعل الذي بمعنى النسب مما لا فعل له، كنابل، بل يجوز أيضا كونه مما جاء منه الفعل، فيشترك النسب واسم الفاعل في اللفظ.[41]

ولعل الرضي يميل بقوله هذا إلى البصريين، فليس عندهم فاعل بمعنى مفعول،ويقدرون ذو دفق و ذو عصمة و ذات رضا ..الخ،

في حين الكوفيون يرون ذلك ، ويقولون بكثرة مجيء فاعل بمعنى مفعول.[42]

وأقول : بأن مجيء فاعل بمعنى مفعول يعد صورة من صور ثراء اللغة العربية، وهو كثير كما قال الكوفيون ،لورود ذلك في القرآن الكريم في أكثر من موضع، وأيضا ورده على لسان العرب كبيت للأعشى:

عهدي بها في الحيّ قدْ سربلتْ بيضاءَ مثلَ المهرةِ الضامرِ[43]

وقول الشاعر[44]:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى[45]

ويمكن النظر إلى المخالفة بهذه نظرة أخرى وهي المشاكلة أو مراعاة الفاصلة في القرآن ،أقول في بعض الأمثلة ، وهو ما جاء في قوله (مَاءٍ دَافِقٍ) فإنها تناسب ما قبلها وما بعدها من الآيات ، وكذلك قوله (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) .

وفي هذه الآية أيضا مخالفة ثانية في اسم الفاعل من غير الثلاثي حيث جاء بمعنى مفعول في كلمة (مستنفِرة) في قوله تعالى: (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ) ،وهذا ما دلت عليه قراءة نافع وابن عامر بفتح الفاء، أي

منفرة مذعورة، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، وقرأها الباقون بالكسر، أي نافرة. يقال. نفرت واستنفرت بمعنى، مثل عجبت واستعجبت، وسخرت واستسخرت، وأنشد الفراء[46]:

أمسك حمارك إنه مستنفر ... في إثر أحمرة عمدن لغرب[47]

وقال الزمخشري : (كأنها تطلُبُ النِّفار مِنْ نفوسِها في جَمْعِها له وحَمْلِها عليه) انتهى . فأبقى السينَ على بابِها من الطَّلَبِ ، وهو معنى حسن .

ورجَّحَ بعضُهم الكسرَ لقولِه (فَرَّتْ) للتناسُبِ . وحكى محمدُ بنُ سَلاَّم قال : «سألتُ أبا سَوَّار الغَنَويَّ وكان عربياً فصيحاً ، فقلت : كأنهم حُمُرٌ ماذا؟ فقال : مُسْتَنْفَرَة طَرَدَها قَسْورة . فقلت : إنما هو (فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ)فقال : أفرَّتْ؟ قلت : نعم . قال : (فمُسْتَنْفِرة إذن) انتهى . يعني أنها مع قولِه (طَرَدها) تُناسِبُ الفتحَ لأنَّها اسمُ مفعولٍ فلما أُخْبِربأنَّ التلاوةَ { فَرَّتْ مِن قسْورة } رَجَعَ إلى الكسرِ للتناسُبِ ، إلاَّ أنَ بمثلِ هذه الحكاية لا تُرَدُّ القراءةُ المتواترةُ .[48]

وأخيرا ورد في هذه الآية مخالفة ثالثة هي مجيء اسم الفاعل الثلاثي على وزن اسم الفاعل السداسي حيث قد تبين من خلال عرض القراءات في كلمة (مُسْتَنْفِرَةٌ) أنها قرئت بالكسر يعني أنها (نافرة) فجاء اسم الفاعل من الثلاثي على وزن اسم الفاعل من السداسي وفي هذا مخالفة للقاعدة ،وعلل العلماء لذلك بقولهم :إن استنفرونَفَربمعنى نحو : عَجِب واستعجب ، وسخِرواسْتَسْخر[49].

و هذه المسألة هي كسابقتها؛ إلا أن اسم الفاعل من غير الثلاثي بمعنى المفعول قل الحديث فيها عند المفسرين، وعدم تتطرق أهل النحو لها ، فدل ذلك على ندور مجيء اسم الفاعل .

المبحث الثاني : اسم المفعول من حيث الدلالة

القاعدة: اسم المفعول: وهو: ما دل على حدث ومفعوله[50]، ك(مضروب) و (مُكرَم)

ويُصاغ اسم المفعول من الثلاثي على وزن (مفعول)، ويصاغ مما زاد على الثلاثي على وزن مضارعه مع إبدال حرف المضارعة ميما مضمومة وفتح ما قبل الآخر.

وقد جاء في القرآن الكريم ما خرج عن هه القاعدة هو مجيء اسم المفعول بمعنى اسم الفاعل ، وذلك عكس ما سبق ذكره ،كما في قوله تعالى (إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا)[51] .

قال الطبري : «يقول تعالى ذكره : إن الله كان وعده ، ووعده في هذا الموضع موعوده ، وهو الجنة مأتيا يأتيه أولياؤه وأهل طاعته الذين يدخلهموها الله. وقال بعض نحويي الكوفة : خرج الخبرعلى أن الوعد هو المأتي ، ومعناه : أنه هو الذي يأتي ، ولم يقل : وكان وعده آتيا ، لأن كل ما أتاك فأنت تأتيه، وقال : ألا ترى أنك تقول : أتيت على خمسين سنة، وأتت علي خمسون سنة ، وكل ذلك صواب..»[52]

وبين ابن كثيرأن (مَأْتِيًّا) بمعنى: آتيا.[53] وقيل مأتي مفعول من الإتيان، وكل ما وصل إليك فقد وصلت إليه، كما تقول: وصل إلي من فلان خير ، ووصلت منه إلى خير. فالضعيف في العربية يقول مفعول بمعنى فاعل54

وفي شرح الرضي قال: الأولى أنه من أتيت الأمر أي فعلته، فالمعنى: أنه كان وعده مفعولا، كما في الآية الأخرى.[55]

المبحث الثالث : صيغ المبالغة من حيث الدلالة والصياغة

القاعدة: صيغ المبالغة هي تحويل صيغة (فاعل) للمبالغة والتكثير على الفعل ، ولها خمسة أوزان هي: (فعَّال ، و فَعُول ، و ومِفْعَال ؛ و فَعِيل و فَعِل). ومن أمثلتها ضراب ، غفور، منحار،رحيم، حَذِر،وهي تصاغ من الفعل الثلاثي المتعدي، عدا صيغة فعّال فتصاغ من اللازم والمتعدي.[56]

وقد اجتمعت صيغتان من هذه الصيغ في قول الشاعر :

وإني لصبَّار على ما ينوبـــني ... وحسبك أن الله أثنى على الصبرِ

ولست بنظَّار إلى جانب الغنى ... إذا كانت العلياء في جانب الفقرِ[57]

إن الخلاف في مدى معرفة صيغ المبالغة من حيث السماع والقياس حاصل بين النحويين، فذكر بعضهم أن الصيغ القياسية ثلاث وهي(فعَّال – ومِفْعَال – وفَعُول) [58] وأما (فَعِيل و فَعِل) فقد ألحقهما سيبويه للمبالغة59. واختلف العلماء فيما عدا ذلك فقالوا بأنه سماع [60].

حيث نقل السيوطي في كتابه المزهر قول ابن خالويه في أبنية المبالغة السماعية: (العرب تبني أسماء المبالغة على اثني عشر بناء : فَعَال كَفَساق ، وفُعَل كَغُدَر ،وفَعّال كغدّار ، وفَعُول كَغَدُور ، ومفْعيل كمعْطير ، ومفْعال كمعْطار ، وفُعَلة كهُمَزة لمَزَة ، وفَعُولة كمَلولة ، وفَعَّالة كعلاَّمة ، وفاعلة كراوية وخائنة، وفَعَّالة كبَقَّاقة للكثير الكلام ، ومفْعالة كمجزَامة)[61]

وقد وجدت بعض الصيغ وردت في القرآن ودلت على المبالغة غير ما ذكره الجمهور في كتبهم وهي كالتالي:

1.-مِفْعِيل في (مِسْكِين) وذلك في قوله تعالى: (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ)[62]، فمسكين أبلغ من الفقير.

2.-فُعَلَة في (همزة ولمزة وحطمة) في قوله تعالى : (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ 63 و(كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ)64فالهمزة صيغة مبالغة أي المكثر من الهمز، والتاء فيه للمبالغة وكذلك (لمزة) العيب وأصله الإشارة بالعين.

3.-فُعُل في (عتل) قال تعالى : (عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ)[65]عتل: الشديد الخصومة بالباطل.[66]

4.-فعّيل في(صدّيق) قال تعالى : (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ)[67]

وقال تعالى :(وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ) الصديقة صيغة مبالغة، والأصل في هذه الصيغة أن تكون مشتقة من المجرد الثلاثي.فالمعنى المبالغة في وصفها بالصدق، أي صدق وعد ربها، وقد لقب يوسف بالصديق، لأنه صدق وعد ربه في الكف عن المحرمات مع توفر أسبابها.وقيل:أريد هنا وصفها بالمبالغة في التصديق لقوله تعالى:(وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا)[68]، فيكون مشتقا من المزيد.

5.فَيْعُول في (قيوم) قال تعالى :(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) [69]والقيوم فيعول[70] من قام يقوم وهو وزن مبالغة، وأصله قيؤوم فاجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت، والمراد به المبالغة في القيام[71]

6.-فَعُل في عبد قال تعالى:(وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ)[72] عبد الطاغوت: وقرأ حمزة «وعَبُدَ الطاغوت» بفتح العين وضم الباء وفتح الدال، [73] وخفض الطاغوت على أن عَبَدَ واحد مراد به الجنس وليس بجمع لأنه لم يسمع مثله في أبنيته بل هو صيغة مبالغة، ولذا قال الزمخشري : معناه الغلو في العبودية ، وأنشد عليه قول طرفة :

أبني لبني إن أمكم أمة وإن أباكم عبد أراد عبدا ، وقد ذكر مثله ابن الأنباري والزجاج فقالا : ضمت الباء للمبالغة ، كقولهم ، للفطن والحذر : فطن وحذر ، بضم العين[74].

وقد ورد في القرآن الكريم مجيء صيغة المبالغة بمعنى اسم المفعول. كما في قوله تعالى(إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)[75]: فـ(حميد)على وزن (فَعِيل)صيغة مبالغة ،بمعنى محمود،أي: كثير الصفات المقتضية للحمد أو المحمود من خلقه كثيراً.

وقوله تعالى (مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) [76](كظيم) : يجوز أن يكون مبالغةً بمعنى فاعِل ، وأن يكونَ بمعنى مفعول كقولِه :(وَهُوَ مَكْظُومٌ)[77]

و أما قوله تعالى (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) [78]: (الودود) بناء مبالغة من ودّ الشيء أحبه وآثره ، وهو على فعل. وسمع الكسائي : وددت بفتح العين ، والمصدر ود ووداد و ودادة. وقال بعض أهل اللغة : يجوز أن يكون ودود فعول بمعنى مفعول[79]

وقوله تعالى : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا)[80] الذَّلُولُ فَعُولٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ ، وَهُوَ مُبَالَغَةٌ فِي الذُّلِّ[81]

ومما خالف القاعدة في ضيغ المبالغة مجيء صيغ المبالغة من غير الثلاثي أي من (أفعل) في قوله تعالى: (أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ) [82]

فـ(الرَّشَادِ) من أرشد ،وقرأ معاذ بن جبل بتشديدِها ، وخَرَّجها أبو الفتح وغيرُه على أنه صفةُ مبالغةٍ نحو: ضَرَب فهو ضرَّاب[83] ، وقد قال النحاس: «هو لحنٌ ، وتَوَهَّمه من الرباعي » يعني أَرْشد[84] . ورُدَّ على النحاس قولُه : بأنه يُحْتمل أَنْ يكونَ مِنْ رَشَدَ الثلاثي ، وهو الظاهرُ .

وقد جاء فَعَّال أيضاً مِنْ أَفْعَل وإنْ كان لا يَنْقاسُ . قالوا : أَدْرَك فهو دَرَّاك وأَجْبَرَ فهو جَبَّار ، وأَقْصَرفهو قَصَّار ، وأَسْأَرفهو سَأَّر ، ويَدُلُّ على أنه صفةُ مبالغةٍ أنَّ معاذاً كان يُفَسِّرها بسبيل الله[85] .

وكلك قوله تعالى : (قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ)[86]

(جبارين)، جمع جبّار وهو صفة مشتقّة من (أجبرت) الرباعيّ. قال الأزهريّ: جعل (جبّارا) في صفة اللّه تعالى أو في صفة العباد من الإجبار وهو القهر والإكراه لا من جبر. ونقل عن الفرّاء قوله: لم أسمع فعّالا من أفعل إلا في حرفين، وهو جبّار من أجبرت ودرّاك من أدركت[87]. وزنه فعّال بفتح الفاء وتشديد العين وهو من أبنية المبالغة.[88]

أقول: إن ورود صيغ المبالغة في القرآن الكريم مثل (رشاد ، جبار، وبصير، أليم ، ونذير ، زهوق) وهي غير ما ذكره الجمهور من الأوزان المشهور الخمسة في صيغ المبالغة، وإطلاقهم على الباقي أوزان سماعية، لأنها خالفت ما لديهم من قواعد ، فلماذا يقايس عليها، فقد قال ابن جني: (ما قيس من كلام العرب فهو من كلام العرب)89فكيف بكلام الله عز وجل؟.

المبحث الرابع :الصفة المشبهة

القاعدة : تعريف الصفة المشبهة أنها اللفظ المصوغ من الفعل اللازم للدلالة على معنى قائم بالموصوف على وجه الثبوت لا الحدوث[90]

أتت الصفة المشبهة في بعض مواضع من القرآن الكريم من أفعال متعدية ، كما في قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(سَمِيعٌ) (عَلِيمٌ) ، صفة مشبّهة باسم الفاعل على وزن فعيل من(سمع) و (علم) المتعدّيان، لدلالتهما على الدوام والاستمرار.

وعلل الشاطبي بأن الصفة المشبهة تصاغ من الفعل اللازم وليس من المتعدي ،وهذا يعد فارقا بينها وبين اسم الفاعل والذي يصاغ من المتعدي واللازم على حد سواء ، وذلك لأن الفعل المتعدي يقتضي العلاج والفعلَ في الغير ، والصفة المشبهة من لوازمها الثبوت ، فلا يجتمعان ، فلا تقول زيد مضارب الأب عمرا ؛ لأن (مضاربا) هنا في معنى (يضارب) .[91]

واشترط ابن مالك أن تصاغ من المتعدي ولكن بشرط أن يقصد به الثبوت ،شرط آخروهو أمن اللبس.[92]

ومما جاء مخالفا للقاعدة العدول عن الأصل الصفة المشبهة إلى اسم الفاعل وذلك في قوله تعالى : (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ) [93] فقد جاء (ضائق) معدولاً به عن (ضيّق) لمراعاة النظير مع (تارك)؛ و (ضائق) ، و (ضيّق) لازمٌ[94] . وجاء العدول هنا عن (ضيّق) وهو الأكثر استعمالاً ؛ لأن المقام مقام الدلالة على الحدوث والعوارض، وليس مقام الدلالة على الثبوت والاستقرار ، إذ لم يكن الضيق وصفا ثابتا في صدره عليه الصلاة والسلام [95]

المبحث الخامس :أفعل التفضيل من حيث الصياغة:

القاعدة :

اسم التفضيل هو اسم مشتق يدل على أن شيئين اشتركا في صفة وأن أحدهما زاد على الآخر فيه،96 ويشترط في أفعل التفضيل الشروط المعروفة وهي :أن يكون له فعلا، ثلاثيا،متصرفا ، وقابلا للتفاضل، ولا

يكون مبنيا للمفعول، تاما ، مثبتا ، وألا يكون الوصف منه على أفعل فعلاء.

فإذا اختل شرط منها جيء له بفعل مساعد وهو (أَشَدُّ) [97].

جاء في القرآن الكريم قوله تعالى :(فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً)[98]

و المخالفة هنا تكمن في مجيء الفعل(أَشَدُّ) مع القسوة ، والقسوة مصدر للفعل قسا ،فهو فعل، ثلاثي، تام ،متصرف، قابل للتفاضل ، مبنى للمعلوم ،مثبت، الوصف منه ليس على أفعل فعلاء، وبهذا قد استوفى الشروط جميعها ، فيا ترى ما السبب وجود الفعل المساعد (أَشَدُّ) معه؟

و أجاب الزمخشري بقوله :»فإن قلت : لم قيل : أشد قسوة ، وفعل القسوة مما يخرج منه أفعل التفضيل وفعل التعجب ؟ قلت : لكونه أبين وأدلّ على فرط القسوة. ووجه آخر ، وهو أن لا يقصد معنى الأقسى ولكن قصد وصف القسوة بالشدة ، كأنه قيل : اشتدت قسوة الحجارة ، وقلوبهم أشدّ قسوة».[99]

وفصّل أبو حيان قوله : وفعل القسوة مما يخرج منه أفعل التفضيل ، وفعل التعجب أن قسا يجوز أن يبنى منه أفعل التفضيل ، وفعل التعجب بجواز اجتماع الشرائط المجوزة لبناء ذلك ، وهي كونه من فعل ثلاثي مجرد متصرف تام قابل للزيادة ، والنقص مثبت. وفي كونه من أفعل ، أو من كون، أو من مبني للمفعول خلاف.[100]

وقال السمين :وهذا كلامٌ حسنٌ جداً ، إلا أنَّ كونَ القسوةِ يجوزُ بناءُ التعجبِ منها فيه نظرٌ ، من حيثُ إنَّها من الأمورِ الخَلْقيَّةِ أو من العيوبِ ، وكلاهما ممنوعٌ منه بناءُ البابَيْنِ.[101]

فالسمين يرى بأن عدم صياغة التفضيل من الفعل مباشرة ؛لأن الفعل يدل على العيوب الخلقية .وأرى أن هذا القول فيه نظر لأن الفعل يدل على العيوب لكان كـ(أعرج – عرجاء) وعند عودتي لمعاجم اللغة لم أجد أن الفعل يدل على العيب ، بل معناه صَلُبَ وغَلُظَ، وهذا ليس عيبا – في ظني-

و الزمخشري يرى أن مخالفة الأصل في مجيء التفضيل من الفعل قسا والاستعانة بالفعل المساعد ، وذلك لما فيه فرط القسوة، وهذا يدل على بلاغة القرآن ، لأن فرط القسوة المعبر عنها لم تأت من لفظ أقسى؛ لأن دلالته على الشدة بجوهر اللفظ الموضوع لها مع هيئة موضوعة للزيادة في معنى الشدة بخلاف لفظ الأقسى فان دلالته على الشدة والزيادة في القسوة بالهيئة فقط.

ولم أجد إلى الآن ما يعضد هذه الآية في مخالفة التفضيل من فعل مستوف للشروط، بل إن كتب النحاة لم تشر إلى هذا – حسب علمي-

ومما خالف القاعدة في صياغة أفعل التفضيل ، مجيء التفضيل من غير الفعل الثلاثي ،كما ورد في قول الله تعالى :(وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ)[102]

ورد في الآية الكريمة ما على وزن(أفعل) للتفضيل (أقسط – أقوم) المخالفة في مجيء التفضيل من غير الفعل الثلاثي. أي من الفعل الرباعي (أقسط وأقام).

ذكر جمهور النحاة عند حديثهم عن أفعل التفضيل ، والتعجب شروط صياغة الفعل – وقد ذكرتها سابقا- وكانوا في عرضهم لتلك الشروط

يشيرون إلى ما خالف القاعدة ، ومن أمثلة ذلك (أزهى من ديك) و(هذا الكلام أخصر من غيره) و(هو أقمن به) أي: أحق، و(ألص من شظاظ)[103]، وقالوا في المثالين الأخيرين أنهما صيغا من وصف لا فعل له.

والسؤال هنا لماذا ذكرت تلك الشروط مع وجود ما يخالفها من كلام العرب، وهل وجد في القرآن مخالفة أيضا للشروط المذكورة؟

إن ذكر الشروط إنما هو تسهيل على المتعلمين ، فإن تعذر صوغ الفعل على (أفعل) مباشرة يتوصل إلى التفضيل منه بذكر مصدره الصريح مسبوقا بكلمة مناسبة على وزن (أفعل) للتفضيل من نحو : (أكبر، أو أشد ، أو أعظم) ويعرب ما بعد المصدر تمييزا .

ومما جاء في القرآن الكريم من باب التفضيل وكان مخالفا للقاعدة ما ورد في الآية الكريمة في (أقسط – أقوم) على وزن(أفعل) للتفضيل في مجيئه من غير الفعل الثلاثي . أي من الفعل الرباعي (أقسط وأقام).

واختلف النحاة في صياغة التفضيل من (أفعل) الرباعي فذهب فريق ومنهم سيبويه: إلى أنه يجوز مطلقا، وقال الفريق الثاني : يمتنع مطلقا، وقال الفريق الثالث : يجوز إن كانت الهمزة لغير النقل؛ نحو: «ما أظلم الليل» و «ما أقفر هذا المكان»؛ وشذ على هذين القولين: «ما أعطاه للدراهم» و «ما أولاه للمعروف»، وعلى كل قول «ما أتقاه»، و«ما أملا القربة»؛ لأنهما من اتقى وامتلأت، و«ما أخصره»؛ لأنه من اختصر.[104]

وناقش السمين هذه المسألة مناقشة وافية في كتبه الدر المصون[105] فقال: (أَقْسَطُ) قيل : هو من أَقْسَطَ إذا عَدَلَ ، ولا يكونُ من قسَطَ، لأنَّ قَسَط بمعنى جار ، وأَقْسَط بمعنى عَدَل ، فتكونُ الهمزةُ للسَّلْبِ ، إلا أنه يَلْزَمُ بناءُ أَفْعَل من الرباعي ، وهو شاذٌّ .

قال الزمخشري : فإنْ قلتَ مِمَّ بُنِي أَفْعلا التفضيلِ - أعني أَقْسَط وأَقْوم؟ - قلت : يجوزُ على مذهبِ سيبويه أَنْ يكونا مَبْنِيَّين مِنْ(أقسط) و (أقام) وأَنْ يكونَ (أَقْسَط) من قاسِط على طريقةِ النسبِ بمعنى : ذي قِسْطٍ؛ و (أقوم) من قويم[106] .

قال أبو حيان: لم ينصَّ سيبويه على أنَّ أفعلَ التفضيلِ يُبْنَى من (أَفْعل) ، إنما يُؤْخَذُ ذلك بالاستدلالِ ، فإنه نصَّ في أوائلِ كتابِه على أنَّ (أَفْعَل) للتعجبِ يكونُ من فَعَل وفَعِل وفَعُل وأَفْعَل ، وظاهرُ هذا أن (أَفْعَل) للتعجب يُبنى منه أَفْعل للتفضيل ، فما اقتاسَ في التعجب اقتاسَ في التفضيلِ ، وما شَذَّ فيه شَذَّ فيه[107].

وقد اختلف النحويون في بناءِ التعجبِ وأَفْعَل التفضيل من أَفْعَل على ثلاثةِ مذاهب : الجوازُ مطلقاً ، والمنعُ مطلقاً ، والتفضيلُ بين أَنْ تكونَ الهمزةُ للنقلِ فيمتنعَ ، أو لا فيجوزَ ، وعليه يُؤَوَّل كلامُ سيبويه ، حيث قال: إنه يبنى من أَفْعَل ، أي الذي همزتُه لغيرِ التعدية . ومَنْ مَنَعَ مطلقاً قال : « لم يَقُلْ سيبويه وأَفْعَلَ بصيغة الماضي، إنما قالها أَفْعِل بصيغةِ الأمر ، فالتبس على السامعِ، ويعني أنه يكونُ فعلُ التعجب على أَفْعِلْ ، بناؤُه من فَعَل وفَعِل وفعُل ، وعلى أفعِل . ولهذه المذاهبِ موضوعٌ هو أليقُ بالكلامِ عليها[108].

ونَقَل ابن عطية أنه مأخوذٌ من « قَسُط » بضمِّ السينِ نحو: (أَكْرَمَ) من (كَرُم) [109]. وقيل : هو من القِسْط بالكسر وهو العَدْلُ ، وهو مصدرٌ لم يُشْتَقَّ منه فِعْلٌ ، وليس من الإقساط؛ لأنَّ أفعَل لا يُبنى من (الإفعال) . وهذا الذي قلته كلَّه بناءً منهم على أنَّ الثلاثيَّ بمعنى الجَوْر والرباعيَّ بمعنى العَدْل .

وأمَّا إذا جَعَلْناه مشتركاً بين عَدَلَ وبين جارَ فالأمرُ واضحٌ، قال أبو القاسم الراغب الأصبهاني : القِسْطُ أن يأخذَ قِسْطَ غيرِه ، وذلك جَوْرٌ ، والإقساطُ أن يُعْطِي قسطَ غيرِه ، وذلك إنصافٌ ، ولذلك يقال : قَسَط إذا جار ، وأَقْسَط إذا عَدَل.[110]

و (أَقْوَمُ) يجوزُ أن يكونَ من (أقام) الرباعي المتعدِّي؛ لكنه حَذَف الهمزةَ الزائدة ، ثم أتى بهمزةِ أَفْعل .. ويجوزُ أن يكونَ من (قام) اللازم..[111]

و الأنسب في هذه المسألة أن يكون (أقسط) و (أقوم) صيغا على وزن (أفعل) للتفضيل من وزن الرباعي (أفعل) ، و بما فيه من مخالفة لأن المقصود من الآية – آية الدين – وما اشتملت عليه من أحكام أمر الله بها عباده المؤمنين أن يعملوا بها فإن ذلك أقسط وأعدل و أحفظ ، وأقوم للشهادة أي أعون على إقامة الشهادة وأثبت لها.

ومثلها قوله تعالى: (أَيُّ الحِزْبَيْنِ أحصى)[112]

حيث اختار الزجاج [113] والتبريزي كون أَحْصى أفعل تفضيل ؛ لأنه الموافق لما وقع في سائر الآيات الكريمة، نحو (أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)و (أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً) إلى غير ذلك مما لا يحصى، ولأن كونه فعلا ماضيا يشعر بأن غاية البعث هو العلم بالإحصاء المتقدم على البعث لا بالإحصاء المتأخر عنه وليس كذلك.[114]

الخاتمة:

اتخذ هذا البحث من (مخالفة الأصل في أبنية المشتقات) موضوعا له ، وفيه دراسة تطبيقية لنماذج من القرآن الكريم ، قدمت فيه الباحثة حدا للمخالفة ، والاشتقاق، وأسباب حدوث المخالفات في أبنية المشتقات، وخرجت الباحثة بما يلي:

1)-إن هذه المخالفات في أبنية المشتقات التي من القرآن الكريم لا تعد من الشواذ أو الأخطاء المنبوذة.

2)-وجود هذه المخالفات لها أسباب من أهمها : مراعاة النظير، المبالغة، مراعاة الفاصلة ، والمشاكلة ..الخ

3)-إن صور المخالفات في أبنية المشتقات متعددة منها:

- تكون المخالفة في الدلالة كمجيء اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول والعكس

-وتكون المخالفة في تبادل الصيغ كمجيء اسم الفاعل من السداسي بدلا من الثلاثي

-وتكون بالاشتقاق من فعل مزيد كقوله تعالى:(وأمه صديقة)

-وتكون بالإعلال و الإبدال كما هو الحال في قوله تعالى: (قيوم)

-وتكون بمجيء أوزان من أفعال غير ثلاثية والأصل مجيئها من أفعال ثلاثية، مثل مجيء صيغ المبالغة من غير الثلاثي ك(جبار) من أجبر

-أن تعامل الصيغة أو البنية على أنها مخالفة للقاعدة وهي في الأصل ليس في مخالفة كمجيء الفعل المساعد مع اسم التفضيل الموافق لقواعد الصرفيين، وهو ما حدث في قوله تعالى: (أو أشد قسوة)

-أن يصاغ المخالف للقاعدة الصرفية أو النحوية على البنية الأصلية، كما في قوله تعالى:(ذلكم أقسط عند الله وأقوم)

4)-ورود هذه المخالفات من القرآن الكريم لم تكن مستثقلة على اللسان لقوله تعالى" ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر"

5)-إن الحاجة ماسة إلى قراءات جديدة بالعودة إلى مائدة القرآن الكريم، وإعادة صياغة قواعد جديدة وفق قوانين وقواعد وفق استقراء يتسم بالاطراد..

6)-حبذا لو يعاد صياغة القواعد النحوية على القرآن الكريم فهو أفصح الكلام على الإطلاق، فما ورد مخالفا لقواعد النحويين فيجيب القياس عليه، ولا يعد مخالفا أو شاذا و لا من باب الضرورات.

وختاما هذا جهدي قدمت فيه ما أعانني الله على تقديمه، كما يفتح الباحثة صدرها لأي نقد مفيد الباحثون من هذا البحث كما أفادت الباحثة من غيرها، كما أرجو أن يغفرلي رب العالمين ما في هذا البحث من نقص وزلل.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين..

هوامش البحث:

1 - ينظر : محمد الطاهر ابن عاشور، موجز البلاغة، ص 9

2 - ينظر: عباس حسن، اللغة والنحو، ص41، 47

-3 الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص39

4 - السيوطي: الأشباه والنظائر 1/217.

5 - مخالفة القياس والأفصح في نظر النحويين والغويين من خلال الصحيحين، رسالة دكتوراه، ص 59

6 - ابن السراج، الأصول في النحو 1/61

7 - ينظرعن مصادر اللغة: السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، ص: 48، عباس حسن، اللغة والنحو، ص20 – 21

8 - ابن جني ،المنصف: 1/279

9 - ينظر: دراسات صوتية في روايات غريب الحديث والأثر، ص11

10 - ينظر: محمد الخضر حسين، القياس في اللغة العربية، ص240

11 - ينظر: السيوطي ،الاقتراح في علم أصول النحو، ص: 95، ومحمد الخضر حسين، القياس في اللغة، ص23

12 - ينظر:السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، ص95

-13 دراسات صوتية في روايات غريب الحديث والأثر، ص: 12، وينظر: د/ حسن موسى الشاعر، النحو والحديث النبوي، ص21

14 - السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، ص49

15 - ينظر: سعيد الأفغاني، تاريخ النحو، ص70

16 - عباس حسن، اللغة والنحو، ص49

17 - الجرجاني ، التعريفات ، 43

18 - ابن عقيل ، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ،1/ 206

19 - الحملاوي، شذا العرف في فن الصرف ،112.

20 - ابن جني ، الخصائص،2/ 134

21 - ابن الأنباري ، الإنصاف في مسائل الخلاف، 1/ 235

22 - ابن السراج، الأصول في النحو 1/56، 57

23 - ينظر: د/فتحي الدجني، ظاهرة الشذوذ في النحو العربي، ص:49

24 - ابن يعيش: شرح المفصل 3/264

25 - ابن هشام، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، 3/273

26 - د. تمام حسان درجات الصواب والخطأ في النحو والأسلوب ، مجلة المجمع اللغوي القاهري، شعبان 1405هـ / مايو 1985م، المجلد 56، ص:88.

27 - هود: 12

28 - حاشية الصبان على شرح الأشموني 2/315

-29 ينظر: ابن مالك، شرح الكافية الشافية 4/1966 ، د . العايد :شواذ النسب ،4

30 - الهمزة 1

31 - ينظر: ظاهرة الشذوذ في النحو العربي، ص48

32 - سورة الطارق 6

33 - سورة الحاقة 21

34 - سورة المدثر 51

35 - وقد استشهدت بمثال أو مثالين على مخالفة القاعدة مخافة الإطالة في البحث ، وللاستزادة ينظر : دراسات في أسلوب القرآن الكريم لعبد الخالق عضيمة ، والعدول الصرفي في القرآن الكريم للطالب : هلال علي محمود الجحيشي ،رسالة دكتوراه في جامعة الموصل، 2005 م، والعدول في صيغ المشتقات في القرآن الكريم ، للطالب : جلال عبد الله محمد الحمادي، رسالة ماجستيرفي جامعة تعز ، 2007م

36 - ابن هشام ، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، 3/ 216

37 - الحاقة -21 القارعة 7

38 - ينظر : الفراء، معاني القرآن 3/ 182 ، الطبري ، جامع البيان 23/ 233، القرطبي ،جامع الأحكام 18/ 271، النحاس ،معاني القرآن 2/ 386،أبو حيان ، البحر المحيط10/261 ، الزجاج ، إعراب القرآن 3/ 844، العكبري، التبيان في إعراب القرآن 2/ 1237،إعراب القرآن 161

39 - الطارق 6

40 - هود 43

41 - الرضي ،شرح الرضي على الكافية القسم الثاني المجلد الاول 723

42 - القيسي إيضاح شواهد الإيضاح 2/ 592

43 - ولم يقل الضامرة، لأنه جاء على النسب، أي ذات ضمور

44 - الحطيئة ، ينظر: التصريح: 2/ 302

45 - أي : المَطْعَمُ المَكسُو

46 -الفراء، معاني القرآن 3/206

47 - القرطبي ،الجامع للأحكام 19/ 89

48 - السمين ، الدر المصون10/ 558

49 - القرطبي ،جامع الأحكام 19/ 89

50 - ابن هشام، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، 3/ 232

51 - مريم 61

52 - الطبري ، جامع البيان ،15/ 575

53 - ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم 3/130

54 - النحاس ، معاني القرآن 4/ 342

55 - الرضي ،شرح الرضي على الكافية القسم الثاني المجلد الأول 723

56 - عباس حسن ،النحو الوافي 3/ 260

57 - في المصباح المنير في مادة (صبر) صبرت صبرا من باب ضرب حبست النفس عن الجزع واصطبرت مثله وصبرت زيدا يستعمل لازما ومتعديا.

58 - ابن مالك ، شرح التسهيل 3/ 79

59 - سيبويه ،الكتاب 1/ 58

60 - في الصرف العربي177

61 - السيوطي ، المزهر 2/ 243

62 - البقرة: 184

63 - الهمزة :1

64 - الهمزة 4

65 - القلم: 13

66 - عظيمة ، دراسات لأسلوب القرآن ، 2/ 4/ 6

67 - يوسف: 46

68 - التحريم :12

69 - آل عمران :2

70 - الفراء ، معاني القرآن 1/ 190

71 - ابن عاشور ، التحرير والتنوير 2/493

72 - المائدة : 60

73 - الفراء ،معاني القرآن 1/ 314

74 - الزجاج ، معاني القرآن،2/ 188 ،الألوسي، روح المعاني 3/343

75 - هود 73

76 - يوسف :84

77 - السمين ، الدر المصون، 6/ 545

78 - البروج 14

79 - أبو حيان ،البحر المحيط6/ 200

80 - الملك: 15

81 - الشنقيطي ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، 8 / 238

82 - غافر :38

83 - ابن جني ،المحتسب 2/ 241

84 - النحاس، معاني القرآن 6/ 219

85 - السمين ، الدر المصون 9/ 475

86 - المائدة : 22

87 - أبو حيان ، البحر المحيط،9/ 254

88 - محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن 6/ 317

89 - ابن جني ، الخصائص 1/111

90 - ينظر : شرح ابن عقيل 3/ 140

91 - الشاطبي ، المقاصد الشافية ،4/ 396

92 - نفسه 397

93 - هود: 12

94 - ينظر : الجامع لأحكام القرآن : 9 / 12

95 - الشاطبي، المقاصد الشافية، 4/ 399

96 - عباس حسن ، النحو الوفي 3/ 395

97 - ابن عقيل ، شرح ابن عقيل 3/155

98 - البقرة 74

99 - الزمخشري، الكشاف 1/ 290

100 - أبو حيان البحر المحيط 1/ 425

101 - السمين ،الدر المصون 1/ 437

102 - البقرة 282

103 - شظاظ: اسم لصّ من بني ضبّة؛ يُضرب به المثل في اللّصوصيّة.

يُنظر: كتاب الأمثال لأبي عُبيد 366، وجمهرة الأمثال 2/180، ومجمع الأمثال 3/230، والمستقصى 1/328.

104 - ابن هشام ، أوضح المسالك 3/ 287

105 - السمين ، الدرالمصون 2/ 669

106 - الزمخشري ، الكشاف ، 1/404

107 - أبو حيان ، البحرالمحيط، 2/ 351

108 - ينظر : د . العايد، التعجب من فعل المفعول بين المانعين والمجيزين ، (مقالة)، ص 8 وما بعدها.

109 - ابن عطية ، المحرر الوجيز ، 2/369

110 - المفردات، 418

111 - السمين ، الدرالمصون 2/ -669 671

112 - الكهف 12

113 - الزجاج ،معاني القرآن 3/ 271.

114 - أبوحيان ،البحرالمحيط 7/ 146

المراجع والمصادر

•ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ، دار الفكر، بيروت

•ابن جني ، الخصائص،، تحقيق محمد علي النجار ، دار الهدى، بيروت

•ابن جني ، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، أبو الفتح عثمان بن جنى، دار سزكين ،ط2، 1986م

•ابن جني ، المنصف، تحقيق : إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، مكتبة مصطفى البابي، 1960

•ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 2000م

•ابن عقيل ، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث - القاهرة، دار مصر للطباعة ،الطبعة العشرون 1400 هـ - 1980 م

•ابن مالك، شرح التسهيل، محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي ، بتحقيق الدكتور عبد الرحمن السَّيِّد والدكتور محَمَّد بدوي المختون، الطبعة الأولى، 1990-1410م، هجر للطباعة والنشر والتوزيع- لبنان.

•ابن مالك، شرح الكافية الشافية، تحقيق : عبد المنعم أحمد هريدي، جامعة أم القرى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ،مكة المكرمة، الطبعة الأولى

•ابن هشام ، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية.

•ابن يعيش: شرح المفصل، عالم الكتب بيروت.

•أبو السعود الفخراني ، دراسات صوتية في روايات غريب الحديث والأثر،مكتبة وهبة 1998م

•أبو حيان ، البحر المحيط، دار الفكر بيروت، 1992م

•أحمد عفيفي، ظاهرة التخفيف في النحو العربي، الطبعة الأولى، سنة 1417هـ1996-م، الدار المصرية اللبنانية- القاهرة.

•الألوسي ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، تحقيق : على عبد البارى عطية،دار الكتب العلمية. بيروت، 1415 هـ

•تمام حسان ، الأصول، دار الثقافة، المغرب ،1981م.

•د. تمام حسان، درجات الصواب والخطأ في النحو والأسلوب/ ، مجلة المجمع اللغوي القاهري، شعبان 1405هـ = مايو 1985م، المجلد 56

•الجوهري ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت،الطبعة: الرابعة 1407 هـ - 1987 م

•حسن موسى الشاعر، النحاة والحديث النبوي. الطبعة الأولى، سنة 1400هـ1980-م،

•الحملاوي، شذا العرف في فن الصرف ، دار الكيان

•الرضي شرح الرضي لكافية ابن الحاجب ، تحقيق : د. حسن محمد الحفظي، إدارة الثقافة في جامعة الإمام ،1993

•الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف،ط2

•الزجاج ، إعراب القرآن،تحقيق :إبراهيم الابياري،دار الكتاب اللبناني، 1982م

•الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق إبرهيم بن السري،عالم الكتب، 1988م

•الزمخشرى ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، دار الكتاب العربي. بيروت، 1407 هـ

•د. سليمان العايد ، دراسات وبحوث في اللغة العربية ، مكتبة الرشد، الرياض،-1431 2010م

•السمين الحلبي،الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخرّاط، الطبعة الأولى، سنة 1406هـ1986-م، بنشر دار القلم- دمشق وبيروت.

•سيبويه ،الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثالثة، سنة 1408هـ1988-م، مكتبة الخانجي بالقاهرة.

•السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، بشرح وتعليق محمد جاد المولى بك ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، طبعة ونشر المكتبة العصرية- بيروت، سنة 1986م.

•السيوطي: الأشباه والنظائر، دار الحديث- بيروت ،ط3 ،1984م

•السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق :د.أحمد محمد قاسم ، مطبعة السعادة - القاهرة،1976م

•الشاطبي، المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، تحقيق : د محمد البنا وآخرون، معهد البحوث ، جامعة أم القرى ، 2007م

•الشنقيطي ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان، - 1995م

•الصبان ، حاشية الصبان على شرح الأشموني.

•الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، دار الهجر

•عباس حسن ،النحو الوافي، مع ربطه بالأساليب الرفيعة، والحياة اللغوية المتجددة، الطبعة الخامسة، طبعة دار المعارف بمصر.

•عباس حسن، اللغة والنحو، دار المعارف بمصر، ط2

•العكبري، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق : علي محمد البجاوي، الناشر : عيسى البابي الحلبي .

•فتحي الدجني ، في الصرف العربي ، مكتبة الفلاح، الكويت ، 1979م

•فتحي الدجني ،ظاهرة الشذوذ في النحو العربي، وكالة المطبوعات ، الكويت ، 1974م

•الفراء، معاني القرآن، تحقيق : أحمد يوسف نجاتى وآخرون ، دار المصرية للتأليف والترجمة

•القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن، تحقي سمير البخاري، الرياض ،دار عالم الكتب ،

•القيسي، إيضاح شواهد الإيضاح، تأليف أبي علي الحسن بن عبد الله القيسي ، تحقيق الدكتور محمد بن حمود الدعجاني، الطبعة الأولى، سنة1408هـ- 1987م، بنشر دار الغرب

•محمد الخضر حسين، القياس في اللغة، المطبعة السلفية- القاهرة، سنة 1353هـ من دون الطبعة.

•محمد الطاهر ابن عاشور ، موجز البلاغة، http://www.saaid.net/book/open.php?cat=90&book=2809

•محمد عبد الخالق عضيمة ، دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، دار الحديث

* أبو جعفر النَّحَّاس، معاني القرآن الكريم، تحقيق : محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى - مكة المكرمة ،الطبعة الأولى ، 1409

*الرسائل الجامعية والمجلات و المقالات العلمية

•إبراهيم صمب انجاي ،مخالفة القياس والأفصح في نظر النحويين واللغويين من خلال الصحيحين _جمعا ودراسة، رسالة دكتوراه ، الجامعة الإسلامية

• العدول الصرفي في القرآن الكريم للطالب : هلال علي محمود الجحيشي ،رسالة دكتوراه في جامعة الموصل، 2005 م،

•العدول في صيغ المشتقات في القرآن الكريم ، للطالب : جلال عبد الله محمد الحمادي، رسالة ماجستير في جامعة تعز ، 2007م

الصورة الأدبية من منظور الشعرية اللسانية العربية

د. خالد بوزياني
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة عمار ثليجي الأغواط - الجزائر

الملخص:

لقد انطلق المذهب الشعري العربي من الجانب البلاغي منطلقات أصيلة في تراثنا البلاغي، واعتمدت على سنّ المعايير والقوانين الشعرية، من القرآن الكريم، وأشعار العرب، ونثرهم المأثور، واستخدمت القواعد في نقد الشعر، وميّزت بين جيده ورديئه، من خلال ما استنبطته من مرجعيتها الأدبية، ومدونتها الشعرية. والمطّلع على المذهب الشعري البلاغي العربي، يجده ينقسم إلى اتجاهات ثلاثة:

اتجاه يتمثل في قواعد شعرية بلاغية* عربية أصيلة، تمزج بين معايير الشعر والبلاغة والنقد، واتجاه ثاني يتمثل في مذهب شعري أرسطي يمزج بين معايير الشعر والمنطق، واتجاه ثالث لغوي لساني، يتمثل في الصياغة والنظم. وسأركز في هذا البحث على الاتجاه الثالث المتمثل في الذهب الشعري اللغوي في استنباطها للقوانين التي تقوم عليها الصورة الأبية في التراث الشعري العربي.

نعني بهذا المذهب الشعري، الصياغة والنظم والتأليف والتركيب، بالاعتماد على القوانين اللغوية والنحوية والصرفية. وكانت بداية ذلك مع الجاحظ الذي أصّل لهذا المذهب الشعري، معتمداً على معارف عصره اللغوية، بعيدا عن ثقافة اليونان، كما يزعم بعضهم، ومن هذه الاتهامات، ما ذكره الدكتور طه حسين، حول تأثر الجاحظ بكتاب «الخطابة» لـ(أرسطو) ، من دون أي دليل، سوى الشك الذي جعله منهجاً له في قراءة التراث البلاغي العربي. والمتأمل لكتاب «البيان والتبيين» للجاحظ، لا يجد أثر كتاب «الخطابة»، إذ الكتابان مختلفان تماماً، فالبيان والتبيين نابع من أصالة الدرس اللغوي والبلاغي عند العرب، في حين، كان كتاب الخطابة وهو من متمات النطق الأرسطي. وقد قال من (أرسطو)، (رولان بارث)، أنها بلاغة القياس والاستدلال1، وليس الأمر كما قال لأن الخطابة عند أرسطو هي دراسة وسائل الإقناع و خاصة بالأساليب الكلامية لكنه بعيد جدا عما تعرض له الجاحظ.

لقد تبلورت نظرية الصياغة إلى مستوى النضج مع عبد القاهر الجرجاني الذي أفاد كثيراً من آراء الجاحظ، بل إنّ في كتب الجاحظ بذور أفكار عبد القاهر الجرجاني2 التي عمّقت في مفاهيمه النقدية، لتؤسس نظرية من أكبر النظريات في التراث اللغوي والبلاغي عند العرب. إنها نظرية النظم والصياغة، ذلك الذي سوف نتناوله من خلال كتابيه دلائل الإعجاز و«أسرار البلاغة»، مركزين على الصورة الأدبية، في ظل الشعرية اللغوية، بعد الإشارة إلى أصولها عند الجاحظ.

*يسمي النحاة ما يسمى بالفرنسية Poétique «قواعد الشعر» بالمعنى الواسع وهو أم لكتاب ثعلب. ولا ينبغي أن تسمى به» الشعرية «لأننا لا نقول اللسانية في علم اللسان ولا الرياضية في الرياضيات و قس على ذلك. وقد اشتهر في زماننا المذهب الشعري.

1. الجاحظ [ت.255]:

لقد كانت الصياغة من أبرز اهتمامات (الجاحظ) في آرائه، حول الشعر، ويفسر هذا الاهتمام، طريقته ومنهجه في إرساء دعائم النظرية الشكلية، القائمة على مبدأ الصياغة وصناعة الشعر، يقول الجاحظ:»والمعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسيج، وجنس من التصوير»3.

وبقليل من التأمل في هذا النص، نصل إلى أن الجاحظ، لم يشترط اللفظ الواحد، وإنما أقرّ سلسلة العناصر التي تؤدي إلى جودة الصياغة الشعرية، وهذه العناصر هي:

1 - الجوانب الإيقاعية في الاهتمام بالوزن.
2 - الجوانب المعجمية المتمثلة في تخير اللفظ.
3 - الجوانب الصوتية المتمثلة في سهولة المخرج.
4 - الجوانب التركيبية المتمثلة في صحة الطبع، وجودة السبك.
5 - الجوانب المتعلقة بالصورة الشعرية.

فهذه جملة من المسائل، طرحها الجاحظ في هذا التعريف، عادا المعاني مجردة من هذه الجوانب، ولا شأن لها، ولا مزية، كما يقول الجاحظ: «المعاني مطروحة في الطريق»، ولم يكن الجاحظ من الذين يهتمون بالمعنى وحده، أو اللفظ وحده، بل بمجموع هذه العناصر التي حصرها فهي التي تؤدي إلى هذه الصياغة، وإلى هذا النظم، وفي نظرنا، لم يكن الجاحظ، ليدعوَ إلى اللفظ وحده، فعندما نطرح أحد العنصرين المتقابلين، فهذا لا يعني أننا اخترنا الآخر، والمسألة – هنا - تختلف. ولعل هذا ما فهمه عبد القاهر الجرجاني عندما وجّه نقده لأنصار اللفظ، ومن بينهم الجاحظ4.

وعدم اهتمام الجاحظ بالمعاني، هو الذي صرفه عن الإسهام في الحملة العنيفة للسرقات الأدبية التي اشتدت في عصره، وبهذا «يكون الجاحظ قد حاول الردّ على هذا التيار مرتين، مرة بأن بعدم انشغاله بموضوع السرقات، كما فعل معاصروه، ومرة إقراره بأن الأفضلية للشكل، لأن المعاني قدر مشترك بين الناس جميعاً، وسبب ثالث قائم في طبيعة الجاحظ نفسه، فقد كان رجلاً خصب القريحة، لا يعييه الموضوع، ولا يتقل عليه المحتوى، أياً كان لونه»5.

الصورة الأدبية:

لم يتناول الجاحظ موضوع الصورة الأدبية بشكل منفرد وموسع، وإنما أشار إلى ذلك إشارات قوية، يمكننا عدها أولى الملاحظات الدقيقة في هذا الباب فالصورة عنده ليست سوى جزء من مجموع كلي، هو الصياغة، وهذا هو السبب الذي جعله ينظر إلى مسألة الصورة بشمولية.

فالصورة عند الجاحظ شكل، وليست مادة، وربما كان هذا المعنى هو الذي عبر عنه قدامة بن جعفر بقوله:»المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة، والشعر فيها كالصورة»6.

ويضع الجاحظ صوراً مختلفة للدلالة على المعنى7:

1 - الدلالة باللفظ.

2 - الدلالة بالإشارة

3 - الدلالة بالخط

4 - الدلالة بالعقد (ضرب من حساب اليد، مثل الذي نجده عند عمال البورصات).

5 - النِّصبة (الوضع الذي تكون عليه الأشياء، فتدرك منها الدلالة كتوقف القلب دليل موت صاحبه).

على أنّ موضوع الصورة الأدبية، قد بلغ ذروته بالدرس والتحليل، في ظل نظرية الصياغة عند عبد القاهر الجرجاني.

عبد القاهر الجرجاني [ت.471]:

ينطلق عبد القاهر الجرجاني من المفهوم الذي أعطاه الجاحظ للشعر، بأنه «صناعة، وضرب من نسج، وجنس من التصوير»8، فصناعة الشعر مبنية على التصوير الذي قد يزيد في قيمة الكلام، ويرفع من قدره وشأنه، ما دامت الصورة محفوظة، وأثر الصنعة باقياً9. بل يذهب الجرجاني إلى أبعد من ذلك، عندما يرى أنّ جلّ محاسن الكلام، إنّ لم تكن كلّها، متفرعة عن التشبيه، والتمثيل، والاستعارة، وهي راجعة إليها بوصفها أقطابا تدور

عليها المعاني في متصرفاتها10، ويقول أيضاً: «ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة»11.

الصورة الأدبية ونظرية النظم:

على الرغم من أنّ عبد القادر الجرجاني قد أفرد، في كتابه «دلائل الإعجاز» حيزا للصورة الأدبية، إلا أنه لم يكد يخرج عن (نظرية النظم)، بحيث إنّ دراسته لها كانت ضمن هذه الصياغة، وهي الصياغة نفسها التي دعا إليها الجاحظ من قبل ثم يأتي الجرجانيّ، ليبدأ من حيث انتهى الجاحظ، لكنّه بمنهج مختلف عنه.

غير أن من الباحثين العرب من يرجع شيئا من مصادر ثقافته، لإنجازات البلاغيين الإغريق. يقول جابر عصفور: «.. وتفضيل عبد القاهر للاستعارة على التشبيه، أمر يذكرنا بـ (أرسطو)، وأغلب الظن أن عبد القاهر قد آثر خطى المعلم الأول في هذا التفضيل، وأفاد من شراحه العرب.. ولن ننسى – في هذا المقام – أن المثال الذي يلوكه عبد القاهر كثيرا هو: «زيد أسد» لا يفترق عن مثال أرسطو إلا في أن الاسم الأعجمي (أسخلوس) قد تحوّل إلى اسم عربي خالص».12

إنّ حكما مثل هذا، ليس من الموضوعية في شيء، ومثله، الحكم الذي أطلقه الدكتور طه حسين على مصادر ثقافة الجاحظ، حين زعم يونانية الأصل فيها، وإذا افترضنا أن هناك شيئا من التأثر، فإنّ ذلك لا يعني- على الإطلاق - أن العبقرية العربية لم تكن في مستوى الابتكار، إن البلاغيين العرب، كانوا أقرب إلى الدرس الحديث من غيره من الأمم الأخرى.

1 – النظم:

ترتكز الشعرية اللغوية عند الجرجاني على مبدأ الصياغة والنظم. والنظم عنده وضع الكلام الذي يقتضيه علم النحو، والعمل عل قوانينه وأصوله، ومعرفة مناهجه التي نهجت، وحفظ الرسوم التي ارتسمت13.

هذه النظرية - كما دعا إليها الجرجاني - تجمع بين علمين كبيرين في التراث العربي هما:النحو والبلاغة.

- فأمّا النحو: فبما يمتلكه من قوانين تحكم قواعده التركيبية والدلالية.
- وأمّا البلاغة: فبما تملكه من صناعة الشعر والخطابة.

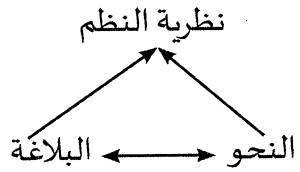

الصورة الأدبية والنظم:

مرّ بنا، أن عبد القاهر لم يدرس الصورة بشكل منفرد، وإنما درسها في إطار النظرية العامة للنظم والصياغة، بل إنها عنده، من مقتضيات النظم. يقول الجرجانيّ:».. بل ذلك يقتضي دخول الاستعارة ونظائرها فيما هو به معجز، وذلك لأن هذه المعاني التي هي الاستعارة والكناية والتمثيل، وسائر ضروب المجاز من بعدها، من مقتضيات النظم، وعنه يحدث، وبه يكون، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم، وهي أفراد، لم يتوخّ فيما بينها حكمة من أحكام النحو، فلا يتصور أن يكون هاهنا

فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة، من دون أن يكون قد ألف مع غيره، أفلا ترى أنه إذا قدّر في «اشتعل»، من قوله تعالى {واشتعل الرأس شيبا}14 أن لا يكون الرأس فاعلاً له، ويكون الشيب منصوباً عنه على التميز، لم يتصور أن يكون مستعاراً»15.

فالصورة – إذًا - تخضع للنظم، ولا تخرج عن نطاقه، بسبب التأليف والصياغة، ودليله على ذلك، التحليل النحوي للاستعارة، في قوله تعالى:{واشتعل الرأس شيبا}، فليس الرأس هو الذي اشتعل، وإنما الشيب، مشيراً في ذلك إلى تحويل في الجملة:

- اشتعل شيب الرأس - اشتعل الرأس شيبا

وأمثلة ذلك:

- طابت نفس زيد - طاب زيدٌ نفساً

- قرّت عين زيد - قرّ زيد عيناً

فليس زيد هو الذي طاب، وإنما نفسه، كما لا يقرّ زيد، وإنما عين زيد، كذلك ليس الرأس هو الذي اشتعل، وإنما هو الشيب.

ويفرّق عبد القاهر بين نوعين من الاستعارة على الأساس نفسه، وهو التركيب يقول:»فالاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء، فتدع أن تصفح بالتشبيه وتظهره، وتجيء إلى اسم المشبه به، فتعيره المشبه، وتجريه عليه، تريد أن تقول:»رأيت رجلاً، هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه، سواء، فتدع ذلك وتقول:»رأيت أسداً»، وضرب آخر من الاستعارة، وهو ما كان نحو قوله:

«إذا أصبحتْ بيد الشَمال زِمامُها»

هذا الضرب، وإنْ كان الناس يضمّونه إلى الأول، حيث يذكرون الاستعارة، فليسا سواءً، وذاك أنّك في الأول، تجعل الشيءَ الشيءَ ليس به، وفي الثاني تجعل للشيءِ الشيءَ ليس له».16

إنّ الأساس الذي بنى عليه عبد القاهر هذا التعريف، هو أساس لغوي.

ففي المثال الأول:

رأيت أسداً

↓

الشيء: الشبه ليس به ⟵ أي لا يكون الإنسان أسداً

وفي المثال الثاني:

↓

يد الشمال

الشيء: الشبه ليس له ⟵ ليس للريح يد

فالصورة – إذًا - تخضع للصياغة، وهي عنصر من عناصر النظم ومقتضياته.

وظيفة الصورة:

يركز عبد القاهر الجرجاني، عند تناوله للصور البلاغية، على مسألة دقيقة في التحليل، ألا وهي تتبع الوظيفة الأساسية لهذه الصور، وإذا كانت نظرية النظم عنده، تهتم بتتبع المعاني وصياغتها في بناء متماسك، أو كما عبر عنه الجاحظ بجودة السبك، فهذا يعني أيضاً تتبع الوظائف التي تهتم بإظهار هذه المعاني.

ولعل أبرز وظيفة يشدد عليها عبد القاهر، هي وظيفة إثبات المعنى، وهذا الإثبات هو شكل من أشكال الصياغة، حيث يأخذ فيه المعنى الرتبة الأولى، لأن اللفظ هنا، قد لا يدل على هذا الإثبات، وهذا يعني، أن عبد القاهر لا يحيد عن المنهج الذي رسمه لنفسه، متخذاً بذلك مسألة شرف المعنى وأهميته في السياق.

ويضرب لذلك مثالاً بـ (الكناية)، فيرى بأنها تعتمد على هذه الوظيفة التي سماها «إثبات معنى من المعاني، وعدم ذكره باللفظ الذي وضع له في اللغة، وإنما بمعنى ثان متعلق بالأول، فيشير إليه، ويجعله دليلاً، أي أن (الكناية) عنده، لا تتحقّق إلى في المعنى الثاني الذي هو ظل للمعنى الأول17، كما هو مبين في هذا الشكل:

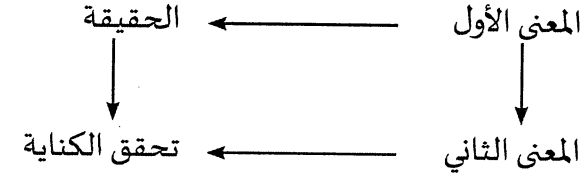

ويضرب لذلك أمثلة، يشرح فيها هذه الوظيفة، مثل: «هو طويل النجاد»، ويريدون: طويل القامة، و «كثير رماد القدر»، يعنون: كثير القرى، و «المرأة نئوم الضحى»، والمراد أنها مترفة، مخدومة، لها من يكفيها أمرها، فقد أرادوا في هذا كله كما ترى معنى، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر، من شأنه أن يردفه في الوجود، وأن يكون إذا كان. أفلا ترى أن القامة، إذا طالت، طال النجاد؟ وإذا كانت المرأة مترفة، لها ما يكفيها أمرها، رَدِف ذلك أن تنام إلى الضحى؟»18.

فالكناية – إذًا – هي معنى المعنى، إذ لا تتحقّق إلا في المعنى الثاني، ولا دور للفظ في هذه المسألة، والوظيفة هي إثبات المعنى بمعنى ثان مرادف للأول، وظل له. ويمكننا وضع هذه الأمثلة في هذا الشكل:

المعنى الأول	المعنى الثاني
طويل القامة	طويل النجاد
امرأة مترفة	نئوم الضحى
كثير القرى	كثير رماد القدر

فليست الوظيفة في الكناية الزيادة في ذات المعنى، بل في الزيادة في الإثبات، فيصبح المعنى– حينئذ - أبلغ وأوْكد وأشد و"ليست المزية في قولهم (جمّ الرماد)، أنّه دلّ على قِرى أكثر، بل أنك أثبت له القرى الكثير، من وجه هو أبلغ، وأوجبته إيجاباً هو أشد، وادعيت دعوى أنت بها انطقُ، وبصحتها أوثقُ"19.

والملاحظ أن عبد القاهر الجرجاني هنا، لا يعير اهتماماً للفظ، وإنّما كان يركز على المعنى. وما قد يكون ثغرة في هذا الرأي، هو هدم الدال الذي يدل على المعنى، وهدم ركن أساسٍ من أركان الصياغة، وكان في هذا. ربما. رداً على فكرة (المعاني مطروحة في الطريق).

وقد استدرك هذه الثغرة قائلاً:»هذا ما ينبغي للعاقل أن يجعله على ذكر منه أبداً، وأن يعلم أن ليس لنا، إذا نحن تكلمنا في البلاغة والفصاحة مع المعاني الكلم المفردة شغل، ولا هي منا بسبيل، وإنما نعمد إلى الأحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب»20.

وظيفة الإثبات في الاستعارة:

للوصول إلى وظيفة الإثبات، يقارن عبد القاهر بين نوعين من هذه الصياغة:

1 -**الأولى:** لا تتوفر على وظيفة الإثبات، مثل:»رأيت أسداً» فالأسد ليس بحاجة إلى هذا الإثبات، فهو مكتفٍ بذاته على وجه الحقيقة.

2 -**الثاني:** وهو الذي تتحقّق فيه هذه الوظيفة مثل:»زيد أسدٌ» ذاك أنّ زيدا هو الأسد.

ويعطي لنا عبد القاهر الجرجاني تحت هذا النوع مجموعة من الصياغات:

-زيدٌ أسدٌ

-زيدٌ هو الأسدُ

-إنْ لقيتَه لقيتَ به أسداً

-وإن لقيته ليلقِيَنَّكَ منه الأسدُ

فالنوع الأول ليس باستعارة إذ لا تتحقّق فيه وظيفة الإثبات، وأما الثاني، فهو استعارة، ما دامت الوظيفة متحققة21.

وظيفة الإثبات بين التشبيه والاستعارة:

الفارق بين وظيفة الإثبات، في التشبيه والاستعارة، يتمثل في نوع الصورة، ودرجة دلالتها. فقولنا:»رأيت أسدا»، دون أن يصرّح بالتشبيه، معناه أننا أثبتنا ما في الأسد من الصفات على المشبه، كأنه هو حقيقة، فيتحقّق– عندئذ – القول بالإثبات الكلي، أما إذا صرحنا بالتشبيه، مثل: «رأيت رجلاً كالأسد» فإنّ الشيء يترجح، بين أن يكون، وبين ألا يكون22،

فيكون الأمر من قبيل المشابهة، ويكون الإثبات جزئيا. ولعل الجدول الآتي يحصر لنا ذلك:

المثال	طريقة التركيب	النوع	درجة الوظيفة
1	رأيت أسداً	استعارة	إثبات كلي
2	رأيت رجلاً كالأسد	تشبيه	إثبات جزئي

من خلال هذا الشكل، الذي حاولت فيه إعادة صياغة عبد القاهر الجرجاني، يتبين لنا أن الوظيفة في الاستعارة هي إثبات كلي، أما الوظيفة في التشبيه فهي إثبات جزئي.

خاتمة:

نستنتج من خلال ما سبق أن الآراء التي تمخضت عن الفكر اللغوي عند الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني قد رسمت نظرية في الشعر يمكننا أن نعدها نواة لشعرية لسانية عربية بعيدة عن التأثير الأرسطي المزعوم فقد استطاعت أن ترسم لنفسها منهاجاً بلاغيًا خاصاً «مخالفاً في أساسه لمنهج أرسطو إذ قصد أرسطو إلى وسائل الإيحاء التي غايتها الإقناع وجلاء الحقائق، وقد قصر كلامه على الوجوه البلاغية من حيث هي وسائل لهذه المعاني، أما الباحثون العرب ومنذ البداية لجؤوا إلى شرح الوجوه البلاغية بالاستقراء وتتبع كلام العرب، وحصر ما أجازوه، وجرت به عادتهم.

الهوامش:

1. ينظر رولان بارث، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ترجمة عمر أوكان، دار إفريقيا الشرق الدار البيضاء ،1994 ، ص 26.

2. ينظر محمد غنمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، دار الثقافة ودار العودة، بيروت، الطبعة الأولى، 1973، ص285.

3. الجاحظ، كتاب الحيوان ،تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1996، 3/131

4. ينظر عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، الطبعة الثالثة ،تحقيق محمد محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة ، 1992

ص57 و 58.

5. إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق للنشر والتوزيع عمان، الأردن، 1986 ، ص 65

6. قدامة بن جعفر ، نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم الخفاجي، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان (دت) ، ص65

7. ينظر الجاحظ، البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الفكر بيروت، 1/82

8. الجاحظ، الحيوان، 3/131

9. ينظر عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، الطبعة الأولى دار المدني ، جدة، 1991 ، ص26

10. المرجع نفسه ، ص27

11. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص254

12. جابر عصفور ، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص 233 234.

13. المرجع نفسه، ص81

14. سورة مريم ، الآية 4

15. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ، ص393

16. المرجع نفسه ، ص 60

17. ينظر المرجع نفسه، ص 66

18. المرجع نفسه، ص 66

19. المرجع نفسه ، ص71

20. المرجع نفسه ، ص 64. 72.

21. المرجع نفسه، ص68

22 . المرجع نفسه ، ص72

قراءة في موقف عبد القادر الفاسي الفهري من «التراث» و «اللغة العربية» في كتابه: «اللسانيات واللغة العربية»

د. حميدي بن يوسف
قسم اللغة والأدب العربي جامعة المدية (الجزائر)

1. مقدمة:

يتخذ هذه البحث موضعه ضمن إطار لساني عام يتمثل في علاقة التراث باللسانيات المعاصرة، ونحاول فيه التعرض إلى أحد أبرز المشتغلين بالدرس اللساني في الوطن العربي وهو عبد القادر الفاسي الفهري، من خلال تقديم قراءة نقدية لبعض القضايا اللسانية الجريئة التي طرحها في كتابه الشهير: "اللسانيات واللغة العربية" الصادر سنة 1985. ومن أهم هذه القضايا موقفه من اللغة العربية (القديمة) وعلاقتها باللغة العربية المستعملة حديثا، وموقفه من التراث اللغوي العربي، بحيث حاول هذا اللساني نفي إمكانية الاعتماد على هذا التراث في بناء نظرية لسانية، وهذا بالاستناد إلى بعض الحجج.

ونبتغي من خلال هذه القراءة مساءلة الأفكار التي عرضها الفاسي الفهري لتوضيح ما إذا كانت حججه مؤسسة معرفيا ومنهجيا، فنقف أولا عند مناقشة ونقد فكرته التي ترى بأن اللغة التي استعملها العرب القدماء

تختلف عن العربية المستعملة حديثا، كما نحاول الرد على فكرته التي مفادها أنه لا يوجد داعٍ لتوظيف التراث العربي في دراسة اللغة الحالية.

2. موقف الفاسي الفهري من اللغة العربية:

شغل موضوع اللغة العربية محل اهتمام عبد القادر الفاسي الفهري، وهو ما يعكسه عنوان كتابه الذي أسماه: "اللسانيات واللغة العربية"، ولقد أبدى في هذا الكتاب موقفه بوضوح من اللغة العربية. وهذا الموقف يبرز فيه حكمان مثيران للانتباه والجدل، موقف يتصل بعلاقة اللغة العربية بغيرها من اللغات الأخرى، وموقف تتحدد فيه علاقة ما أسماه "اللغة العربية القديمة" بـ"اللغة العربية الحالية". سنحاول فيما يلي مناقشة هذين الحكمين، بالاستناد إلى بعض ما أفرزته اللسانيات الحديثة في نظرتها إلى مفهوم اللغة وطبيعتها، وعلاقة اللغات بعضها ببعض.

1.2. اللغة العربية واللغات الأخرى:

يطلق عبد القادر الفاسي الفهري في كتابه: «اللسانيات واللغة العربية» جملة من الأحكام على اللغة العربية، من ذلك قوله تحت عنوان: «تصور خاطئ للغة العربية»: «ليست العربية، كما يدعي بعض اللغويين العرب، لغة متميزة تنفرد بخصائص لا توجد في لغات أخرى، ومن ثمة لا يمكن وصفها بالاعتماد على النظريات الغربية التي بنيت لوصف لغات أوربية، بل العربية لغة كسائر اللغات البشرية. فاللغة العربية بصفتها «لغة» تنتمي إلى مجموعة اللغات الطبيعية وتشترك معها في عدد من الخصائص (الصوتية والتركيبية والدلالية)، وتضبطها قيود ومبادئ تضبط غيرها من اللغات»[1].

والحق أن هذا الحكم الذي يجعل من اللغة العربية لغة كغيرها من اللغات الأخرى يبدو مقبولا؛ فما دامت اللغة العربية تتوفر على خصائص (صوتية وصرفية وتركيبية) هي موجودة أيضا في كثير من اللغات، فهذا

مؤشر على عدم تميزها. وما دامت تحكمها بعض القيود والضوابط (الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية) التي تضبط غيرها من اللغات، فهذا مؤشر ثان على عدم القول بأفضليتها. بل إنه، بحسب ما أقره شومسكي، فإن الضوابط والقوانين اللغوية تصدق على جميع الألسن في مستواها العميق، وأن الاختلاف بين اللغات لا يعدو أن يكون في المستوى الظاهر، وهذا الحكم يوافق ما هو سائد بين اللسانيين في عصرنا الحديث، فمسألة المفاضلة بين اللغات قد أقفل باب البحث فيها.

وبالرغم من أن هذا الحكم يبدو منطقيا وقريبا من الصواب، إلا أنه لا يمكن الجزم بصحته، فهناك بعض الملاحظات التي تغري بالقول بأن اللغة العربية لغة متفردة في كثير من الجوانب عن اللغات الأخرى، فاللغة العربية على خلاف اللغات الأخرى، بقيت مستخدمة في التواصل لفترة تربو عن أربعة عشر قرنا من الزمان، مما يوحي بأنها تحمل بذور حياتها في ذاتها، وفي بنيتها.

وإضافة إلى ما سبق، يمكن أن نسجل شيئا من التحفظ على حكمه السابق الذي مفاده بأن «اللغة العربية يمكن أن نصفها بالاعتماد على النظريات اللسانية التي بنيت لوصف لغات أوربية»، فما دامت هذه النظريات قد تأسست انطلاقا من النظر والتأمل في نظام وبنية عدد من اللغات الأوربية فإن نتائجها تصدق على هذه اللغات الموصوفة، ودون أن ينفي هذا إمكانية أن يتوسع هذا الوصف لينطبق على لغات أخرى غير أوربية، لا تنتمي إلى نفس النمط الذي تنتمي إليه هذه اللغات، كالعربية مثلا، فهناك بعض المفاهيم التي نتجت من دراسة لغات أوربية ووصفها تنطبق تماما على اللغة العربية. ومع ذلك فلا ينبغي تعميم الحكم، ليصل الأمر إلى حد اعتماد هذه النظريات لوصف اللغة العربية، فلا يوجد ضامن علمي أو منطقي يمكن أن نستند إليه في ذلك.

وربما ما يقوي هذا التحفظ هو الاختلاف في الطبيعة الصرفية بين اللغة العربية وكثير من اللغات الأوروبية، فاللغة العربية ذات طبيعة توليدية اشتقاقية، بحيث تتجدد مادتها الإفرادية بالاعتماد أساسا على الاشتقاق والحركة الداخلية للأصوات داخل الميزان الصرفي، وهذا خلافا لكثير من اللغة الأوربية التي تعتمد على الإلصاق، وهذا ما يجعل كثيرا من القوانين الصرفية لا يصلح تطبيقها على اللغة العربية. ولعل من أهم الأمثلة المؤكدة لهذه الفكرة، فكرة الزوائد (les affixes)، وبخاصة الدواخل أو الدوامج (les infixes)، فهذه الوحدات اللغوية صنفت في علم الصرف الغربي باعتبارها مورفيمات تحمل في ذاتها معنى صرفيا مستقلا، ثم نقل هذا التصنيف وأسقط على اللغة العربية دون تمحيص أو دراسة أو مراعاة لخصوصياتها الصرفية، فنتج عن ذلك أن عد بعض المشتغلين بالدرس اللساني من العرب المحدثين «الألف» في صيغة «فاعل» مثلا داخلة (مورفيما)، أدت بمفردها معنى الفاعلية، دون التنبه إلى أن معنى الفاعلية في اللغة العربية متأتٍ من الصيغة كلها، وليس من الألف بمفردها2. وقد جاء ذلك نتيجة الإسقاط المباشر واللاواعي لمفهوم الداخلة على اللغة العربية، في حين أن هذا المفهوم قد يكون غائبا تماما عن اللغة العربية.

ثم إنه ولو سلمنا أن هذا الحكم الذي يقضي بصلاحية تطبيق النظريات اللسانية الغربية على اللغة العربية صحيح، ألا يشكل ذلك دافعا إلى اكتفاء باحثينا اللسانيين العرب المحدثين بعملية إسقاط هذه النتائج والنظريات اللسانية الغربية على اللغة العربية دون محاولة أو سعي إلى إنشاء نظريات لسانية متولدة من رحم العربية، ومستمدة من النظر في بنيتها وفي نظامها أولا.

2.2. اللغة العربية «القديمة» والحالية:

يقول الفاسي الفهري: «وواضح أن اللغة العربية، قديمة أو حالية،

توجد مستقلة عن النحو الذي يمكن أن يبنيه اللساني لوصفها»3. ويظهر في هذا الإقراروجود فصل بين اللغة العربية في فترتين مختلفتين (القديمة والحالية)، وفصلٍ ثانٍ بين اللغة العربية باعتبارها نظاما أو موضوعا للدراسة والوصف، والنحو باعتباره أداة للدراسة. فالفصل الثاني هو تفريق أساسي من الضروري توضيحه للقراء، خاصة وأن أداة الوصف هي من جنس الموضوع؛ فاللغة تمثل الأداة والموضوع في الآن نفسه، وهو ما يجسد مفهوم الوظيفة الواصفة التي تقوم اللغة بتأديتها (la fonction métalinguistique).

والملاحظ في هذا المقتطف أن الفاسي الفهري يورد مصطلحين هما: "اللغة العربية القديمة" و"اللغة العربية الحالية"، وهو يفصل بينهما وفق معيار زمني، ويمكن أن نحمل استعماله هذا على المقصد الذي يعني به الاستعمال دون الوضع، أو الكلام دون النظام، بحيث يمكن اعتبار أنه يقصد باللغة العربية القديمة اللغة التي استعملها العرب القدماء، واللغة العربية الحالية هي اللغة القديمة نفسها ولكنها مستعملة في عصرنا الحالي فقط.

ولكن مثل هذا الفهم ينهدم للأسف، حينما يورد، في سياق نقده توظيف التراث من قبل الدارسين العرب، نصا آخر يقول فيه[4]: «.. فالخطأ الأول في تصور التراث هو اعتقاد أن لا بد من توظيفه في بناء نحو يصف اللغة العربية. ونصحح ذلك بالقول إن التوظيف غير ضروري. وحين يتم هذا التوظيف لا يمكن أبدا أن يكون توظيفا في نحو اللغة الحالية، لأن هذا يؤدي إلى خلط بين نسقين مختلفين»[5].

والواضح من العبارة الأخيرة، أن الفاسي الفهري يعتبر اللغة العربية المستعملة في العصور القديمة مختلفة عن اللغة العربية الحالية اختلافا يجعل كل واحدة مبنية وفق نظام أو نسق معين. وإذا كان ذلك كذلك، فإن اللغة العربية الحالية بحسبه تختلف عن اللغة العربية القديمة

كاختلافها عن اللغة الفرنسية وغيرها؛ لأن المسألة ليست مرتبطة باختلاف يتعلق بغنى اللغة أو ثرائها بالمفردات بالقياس إلى لغة أخرى، أو يتصل بتغير دلالي في عدد منم المفردات ناجم عن التطور الحضاري الذي لحق بالمجتمع الناطق بتلك اللغة، أو غير ذلك من الاختلافات التي لا تطال نظام اللغة الصوتي أو الصرفي أو النحوي. ولكن المسألة مرتبطة بهيكل اللغة وأساسها الذي هو النظام؛ فالنظام أو النسق هو جوهر اللغة وهو الذي يشكل ماهيتها، وبخاصة عند البنويين من اللسانيين المحدثين.

وفي هذا السياق يحسن بنا أن نستحضر قول فرديناند دي سوسير الذي يحدد فيه اللغة «langue» بأنها «نظام من الأدلة، ليست في جوهرها سوى اتحاد المعنى والصورة، وهذان القسمان من الدليل نفسيان»[6]. وإذا كانت مكونات هذا النظام هي الأدلة، وهي وحدات نفسية أي مجردة، فإن النظام ليس هو المكونات فقط، وإنما العلاقات التي تنسجها هذه الأدلة فيما بينها. ويتبين من خلال ذلك، أن النظام مفهوم مجرد أساسه العلاقات. وهي على نوعين «تتعلقان بصورتين من نشاطنا الذهني، وهما ضروريتان لحياة اللغة. ففي الخطاب، من جهة، تعقد الكلمات فيما بينها، بمقتضى تسلسلها، علاقات مؤسسة على الخاصية الخطية للغة التي تقصي إمكانية النطق بعنصرين في آن واحد. وهذه الكلمات تترتب الواحدة تلو الأخرى في سلسلة الكلام. وهذه التوليفات الممتدة يمكن تسميتها بالتركيبية (...) ومن جهة أخرى، وخارج الخطاب، تجتمع الكلمات التي توفر على أشياء مشتركة بينها في الذاكرة، لتكون مجموعات تسود بينها علاقات متنوعة جدا (...) نسميها علاقات استبدالية»[7].

إذن، فالذي يجعل من اللغة لغة هو تلك العلاقات والقوانين التي تنضبط بها الأصوات داخل الكلمة، والكلمات داخل الجمل، والمعاني مع بضعها البعض، وإذا حدث أن وجد اختلاف بين نسقين معينين فمعنى ذلك أن اللغتين المتوفرتين على هذين النسقين مختلفتان تماما.

وإذا ما أردنا إسقاط هذا المفهوم (مفهوم النظام) على اللغة العربية المستخدمة في القديم والمستخدمة في عصرنا الحالي، يتبين بأن الاختلاف بينهما وإن كان حاصلا وموجودا، وفي كل المستويات، فإنه لا يصل في حقيقة الأمر إلى اختلاف نسق عن نسق، فاللغة العربية المستخدمة حاليا، وإن اختلفت في نطق بعض أصواتها عن اللغة التي تواصل بها العرب القدماء، أو تغيرت معاني كثير من ألفاظها، أو تضاعف معجمها، فإنها ما زالت متقيدة بذات القواعد الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية التي سار على هديها العرب القدماء، على الأقل في المجتمع الجاهلي، حيث وصلنا عنه كثير من الأخبار المتعلقة بلغة التواصل بين أفراده. فالنظام الصوتي العربي المكون من ثمانية وعشرين صوتا صامتا، ومن ستة حركات (قصيرة وطويلة) مازال محافظا عليه في استعمال الفصحاء من الناطقين المحدثين، وكذلك الأمر بالنسبة للقوانين النحوية التي ما زالت مستعملة في أغلب وجوهها. وإذا حدث مساس بالنظام فإنه لم يطل إلا جزءا يسيرا منه لا يعتد به، ولا يمكن على أساسه القول بأننا انتقلنا من نسق لغوي إلى نسق آخر، ومن ثم من لغة إلى لغة.

إن هذا الحكم الذي يقر به الفاسي الفهري لهو في غاية الخطورة، ذلك، وحتى إن لم يقصده، فإنه يدعم القطيعة بيننا وبين تراثنا، تلك القطيعة التي يدعو إليها كثير من المعاصرين، فاللغة قد تكون أهم الوسائل التي تحفظ الصلة بيننا وبين التراث. وإذا حدث أن اندثرت اللغة أو تم الانتقال من نظام لغوي إلى آخر، فإن هذا يؤثر تأثيرا كبيرا على التواصل الزماني، فنضطر حينها إلى الترجمة من النظام اللغوي القديم إلى الحديث، وسيعتري ذلك حتما عقبات تؤدي في الغالب إلى فتور التواصل بيننا وبين التراث.

إذن فاستعمال مصطلح: «اللغة العربية القديمة» «واللغة العربية الحالية» يبدو لنا بأنه استعمال خاطئ، فما دمنا لم ننتقل من نظام إلى

نظام لغوي فهناك لغة عربية واحدة. وإن العنصر المتغير هو التأديات المختلفة من عصر إلى عصر وليس النظام اللغوي، ذلك العنصر المتأسس على العلاقات والقوانين المجردة. وقد يكون تصويب ذلك بالقول: «الاستخدام القديم للغة العربية « أو «الاستخدام الحالي للغة العربية».

وغير بعيد عن هذه المسألة ينتقد عبد القادر الفاسي الفهري اللسانيين العرب المحدثين الوصفيين بخصوص طبيعة المادة اللغوية المدروسة، فيقول بهذا الخصوص: «وأظن أن البحث في اللغة العربية الفصيحة يطرح إشكالا عميقا هو إشكال المادة اللغوية أو المعطيات التي يقوم بوصفها اللغوي. ومع كامل الاستغراب، لا نجد أحدا يطرح هذا المشكل في عمقه، بل لا نجد أحدا يصرح بوجود مثل هذا المشكل. حتى الوصفيون الذين انتقدوا النحاة القدامى أشد ما يكون الانتقاد وعابوا عليهم إفسادهم للنحو بإدخال أدوات ومفاهيم منطقية فيه، وانتصارهم للقياس، واصطناع أمثلة وتراكيب كثيرة لم تكن موجودة في اللغة، ولم تسمع عن العرب، وإنما أوردوها لتزكية أصولهم، حتى هؤلاء اكتفوا بالاحتفاظ بما أتى به القدماء من معطيات، ولم يحاولوا وصف لغة أخرى بالاعتماد على جرد مواد جديدة انطلاقا من نصوص شفوية أو مكتوبة (كالروايات والمحاضرات والأشعار... الخ)»[8].

ويظهر في هذا النص أن عبد القادر الفاسي الفهري قد انتقد اللسانيين العرب المحدثين في التزامهم بنفس الأمثلة التي اختارها اللغويون العرب القدماء للتدليل على قواعدهم وأصولهم التي بنوا عليها هذه القواعد اللغوية. والحق أن هذا الانتقاد يبطل من الناحية العلمية على اعتبار أن اللغة العربية ما دامت لغة واحدة، وما دامت هي نفسها في القديم أو في عصرنا الراهن، فإن اختيار الأمثلة والمعطيات اللغوية بغرض التدليل والاستشهاد بها أمر مقبول، لا سيما إذا كانت الأمثلة المختارة عبارة عن مادة لغوية تمثل عصر الفصاحة، فما دام النظام اللغوي يتسم بالثبات،

بخلاف الكلام الذي يتسم بالتغير، فإن ما يستنبط من المادة اللغوية القديمة من قواعد وقوانين لغوية يصلح للعصر الحديث. ولكن بالرغم من ذلك، فإن الأفضل في رأيي هو الاعتماد على نصوص لغوية حديثة، وهذا لكي يعكس ذلك الجرد اللغوي الواقع الذي يعيش فيه اللساني والمتعلم على حد سواء، ولكن بشرط أن تختار النصوص اللغوية بعناية كبيرة، بحيث يراعى فيها مستوى الفصاحة، ولا ضير أن تكون في صورة روايات أو محاضرات أو أشعار، بل على العكس فإن اختيار هذه النصوص المعاصرة للدراسة يمكن أن يضفي شيئا من الحيوية والجدة عليها.

3. موقف الفاسي الفهري من التراث اللغوي العربي:

كما هو الشأن بالنسبة إلى موقف الفاسي الفهري من اللغة العربية، فقد جاء موقف هذا اللساني صريحا كذلك من التراث العربي، وقد تلخص في رفضه المطلق للاعتماد عليه في بناء نظرية لسانية معاصرة. سنحاول مناقشة الحجج التي قدمها هذا اللساني، بالاستناد أيضا إلى ما هو واقع في الدرس اللساني الحديث، وإلى آراء بعض اللسانيين العرب المحدثين، مثل عبد السلام المسدي.

يقول الفاسي الفهري: «فالخطأ الأول في تصور التراث هو اعتقاد أن لا بد من توظيفه في بناء نحو يصف اللغة العربية. ونصحح ذلك بالقول إن التوظيف غير ضروري. وحين يتم هذا التوظيف لا يمكن أبدا أن يكون توظيفا في نحو اللغة الحالية، لأن هذا يؤدي إلى خلط بين نسقين مختلفين. وهذا خطأ ثان. أما الخطأ الثالث، فهو اعتقاد أن الآلة الواصفة للغة العربية الحالية أو القديمة تحتاج ضرورة إلى مفاهيم القدماء وأصولهم، أو بعبارة إلى الفكر النحوي العربي القديم. وقد بينا أن هذا التصور خاطئ وأن الآلة الواصفة الموجودة عند القدماء ليس لها أي امتياز في وصف العربية، بل هي غير لائقة في كثير من الأحوال»[9].

ويظهر من خلال النص في مجمله أن الفاسي الفهري ينكر على الإطلاق استثمار التراث في دراسة اللغة العربية، بل إنه يرى بأنه من الخطأ اعتماده. والحق بأن من الواجب الاعتراف بأن في التراث بعض المواد المعرفية الخام التي لا يمكن الاستفادة منها دون تصفيتها وتمحيصها وتنظيمها، وبعض الآراء الشاذة التي لا تستند إلى رؤية علمية دقيقة، ولكن مع ذلك فإن هذا التراث العربي يضم في ثناياه كثيرا من الآراء المبثوثة المفيدة التي يتاح للساني العربي المعاصر توظيفها في دراسة اللغة العربية، بل إن هذا التراث قد تضمن أفكارا مؤسسة استوت على سوقها، وأينعت نظرياتٍ صالحة للتطبيق على كثير من المسائل اللسانية الحديثة، كما هو الشأن بالنسبة إلى نظرية النظم البلاغية التي أخذت صورتها الناضجة عند عبد القاهر الجرجاني، ونظرية العامل في النحو وغير ذلك من النظريات اللغوية.

وبخصوص إمكانية توظيف هذه الأفكار التراثية في دراسة اللغة العربية في العصر الحديث، يمكن القول بأن هنالك كثيرا من النظريات التراثية العربية متأسسة على قواعد صورية ومنطقية وعقلية، وبالتالي فهي تتعالى على التاريخ والزمن، ويمكن تطبيقها على أية مادة لغوية كانت، وبالتالي يصلح استثمارها في دراسة اللغة في عصرنا، وفي إيجاد حلول لبعض المشكلات اللغوية المستعصية التي نعاني منها في راهننا، بل إن دائرة توظيفها قد تتسع لتصبح صالحة للتطبيق حتى على لغات أخرى غير العربية، وذلك في مستوى من مستوياتها على الأقل.

فنظرية الخليل بن أحمد الفراهيدي الخاصة بالتقليبات الصوتية مثلا تصلح لأن يستفاد منها في صناعة المعاجم، وفي توليد الألفاظ والمصطلحات، لأنها مرتبطة بنظام صوتي معين، فما دامت الوحدات الصوتية العربية (الفونيمات) ثابتة لم تتغير من حيث عددها، فإن هذه النظرية تبقى صالحة للتطبيق. وقد لا نجد نموذجا للتدليل على ما ذكرناه أحسن مما قام به ويقوم به عبد الرحمن الحاج صالح في نظريته الخليلية

الحديثة التي ليست في حقيقتها سوى قراءة حديثة للتراث العربي بمختلف مناهله، فنظرية الحد (le schème) عنده توضح مراتب الوحدات اللغوية ومواضعها في اللغة العربية، سواء تعلق الأمر بمستوى اللفظات أو مستوى التراكيب، وهذا يصلح لأي مادة لغوية حديثة كانت أو قديمة[10].

وتدعيما لما سبق، يمكن القول بأنه من خلال إطلالة على ما أنجز في الدرس اللساني الغربي الحديث يتبين بأن كثيرا من اللسانيين البارزين قد عادوا إلى تراثهم، بل إن نظرياتهم قد تأسست على هذا التراث، فشومسكي قد أقر برجوعه إلى ديكارت في بناء نظريته، بل إنه أسمى أحد كتبه باللسانيات الديكارتية، وضمن هذا الإطار يصرح عبد السلام المسدي قائلا: «أما المظهر الثالث من مظاهر اكتمال اللسانيات فيتجلى في الحركة الاستبطانية التي تشهدها الدراسات التاريخية والمحاولات التنظيرية العامة، ذلك أن الفكر اللساني الغربي قد اتجه أخيرا. فيما اتجه إليه. إلى إعادة قراءة تراثه اللاتيني نافذا من خلاله إلى التراث اليوناني أحيانا»[11].

وبالفعل فإن نظريات أرسطو ما زالت حاضرة في كثير من الأبحاث اللغوية المعاصرة، ويكفي هنا أن نستشهد بقولين من أقوال المعجميين المعاصرين، حيث يذكر «ساتي» في سياق حديثه عن التعريف المصطلحي بأن «المقصود به هو التعريف الأرسطي المعروف في المعجمية (الجنس والفصول النوعية)»[12]. كما ينقل أيضا عن «روسو» بأنه «تاريخيا، سيطر التعريف الأرسطي في المصطلحية [الحديثة]»[13].

وإذا كان هذا حال الدراسات اللسانية الغربية التي تغيرت فيها اللغات عبر الزمن تغيرا كبيرا، بحيث اندثرت كثير من اللغات القديمة كاليونانية واللاتينية وقامت مقامها لغات أخرى تختلف عنها كثيرا في نظامها، فإنه من الأولى والأجدر أن تطبق على اللغة العربية. هذه اللغة التي لم تتغير في نظامها. النظريات النحوية والصرفية والتركيبية والدلالية والبلاغية التي أنجزها العلماء العرب القدامى.

وإذا كان هذا هو موقف عبد القادر الفاسي الفهري من التراث اللغوي العربي، فإن البديل الذي طرحه يتمثل في اعتماد النظريات اللسانية الغربية وتطبيقها على اللغة العربية، وهو ما جسده من خلال محاولة تقديم تطبيقات لنظريات المدرسة التوليدية التحويلية على اللغة العربية، فالمطلع على أعماله يجد أن عددا معتبرا منها لا يحيد ولا يخرج عن هذا المنحى. والحقيقة أن هذا الإجراء بالرغم مما فيه من فائدة إلا أنه يبقى محفوفا بالمخاطر، وعرضة للانزلاقات المفهومية، ذلك أنه مهما كانت قوة النظرية اللسانية فإن الاختلاف بين بنية اللغة العربية وغيرها من اللغات، وبخاصة في المستوى الصرفي، يمكن أن يوقعنا في الإسقاط التعسفي لكثير من الأحكام اللغوية.

وبناء على ما سبق يمكن القول بأن ما قاله عبد القادر الفاسي الفهري بخصوص عدم حاجتنا لتوظيف التراث الفكري العربي في الدراسات اللغوية المعاصرة يفتقر إلى التأسيس. فالأمة التي تريد أن تحل مشكلاتها اللغوية، تنطلق أولا من توصيف هذه المشكلات، ثم اللجوء إلى تراثها اللغوي الذي يمكن أن تجد فيه الحلول، أو مفاتيح الحلول على الأقل، وبخاصة ذلك التراث المبني على أسس عقلية ومنطقية تتعالى على الزمن. وهي بذلك تسهم في تحقيق التواصل بينها وبين تراثها.

ومن مظاهر رفض الفهري لتوظيف التراث رفضه لاستخدام المصطلحات القديمة، فهو يرى بهذا الشأن بأن »توظيف المصطلح القديم لنقل مفاهيم جديدة من شأنه أن يفسد علينا تمثل المفاهيم الواردة والمفاهيم المحلية على السواء، ولا يمكن إعادة تعريف المصطلح القديم وتخصيصه إذا كان موظفا.14« ويظهر في هذا القول بأن الفهري قد برر رفضه هذا بسببين، فالأول الذي يرى من خلاله بأن المصطلح القديم إذا سميت به مفاهيم جديدة فإنه يقف حائلا أمام تمثل هذه المفاهيم. والحق أن استعمال مصطلحٍ واحدٍ للتعبير عن أكثر من مفهوم يمكن أن يؤدي

إلى لبس مفهومي؛ فإضفاء تصوراتٍ حديثةٍ على ذلك الزاد الاصطلاحي التراثي العربي أمر فيه كثير من المجازفة؛ لأن هذا الإجراء «يتعارض مع قاعدة ضرورية، وهي وجوب مراعاة أحادية المعنى لكل مصطلح»[15]، غير أن الحاجة الماسة إلى مجابهة العدد الهائل من المصطلحات الوافدة من لغات أخرى تتطلب استغلال كل الوسائل المتاحة. وبالنظر إلى فاعلية هذه الوسيلة في صياغة المصطلحات فإن كثيرا من المصطلحيين يلجأون إليها، حيث تتميز هذه الطريقة عن غيرها من حيث أن المصطلح لا يبتكر، إنما يستمد مباشرة من الرصيد اللغوي التراثي.

وقد يكون بالإمكان الاستفادة من المصطلحات التراثية بأخذ الدال وطرح المدلول، فهنالك مصطلحات لم تعد صالحة للاستعمال لزوال المدلول الذي تدل عليه، ومن ثم ينبغي إحياؤها والعمل بها. وقد يسلم بجدوى هذه الطريقة إذا علم أنها «تكاد تكون الأداة الرئيسية المستعملة اليوم لوضع المصطلحات الجديدة في اللغات الأوربية»[16].

وبناء على الاعتبارات السابقة يمكن القول بأن توظيف المصطلحات التراثية قد يكون مشروعا في حالة ما إذا لم نستطع توليد مصطلح عربي يفي بالحمولة الدلالية للمفهوم المستحدث، فاللجوء إلى المصطلحات التراثية أفضل من اعتماد التعريب أو الاقتراض من اللغات الأجنبية. وفي حالة ما إذا حصل لبس، فإن السياق المصطلحي هو الذي يفصل بين مفهوم المصطلح القديم ومفهومه الجديد.

أما بخصوص السبب الثاني الذي قال به الفهري، والمتمثل في أنه «لا يمكن إعادة تعريف المصطلح القديم وتخصيصه إذا كان موظفا» ففيه شيء من المبالغة. صحيح أن المصطلحات القديمة ذات المفاهيم القديمة تترسخ في الأذهان بفعل الزمن والاستعمال، وهذا يجعل توظيفها للتعبير عن مفهوم جديد أمرا صعبا بعض الشيء، وتعريفها كذلك، ولكن مع ذلك فإن تعريفها انطلاقا من المفهوم الجديد أمر ممكن، فليس

هناك تنازع أو استحالة، على اعتبار أن المصطلح المقترح التراثي يعبر عن مفهومين متمايزين، وبالتالي يمكن أن يخصص تعريف للمفهوم القديم وآخر للمفهوم الجديد. ويكفي تدليلا على ما ذكرناه أن نعود إلى المعجمات المتخصصة، فهذه المعجمات كثيرا ما تحتوي مداخلها المصطلحية على مصطلح يعبر عن مفهومين متمايزين أو أكثر، ثم يحد تبعا لذلك بتعريف أول خاص بالمفهوم الأول، وبتعريف ثان للمفهوم الثاني، ثم يوسم كل تعريف برقم خاص به.

4. خاتمة:

نخلص من خلال ما ذكر إلى أن عبد القادر الفاسي الفهري قد أدار ظهره تماما للتراث العربي، كما أنه حاول أن يفصل فصلا بين النظام التواصلي اللغوي العربي في القديم والحديث، وهو ما يعني أنه حاول أن يقيم سدا منيعا بين دارس اللغة وبين هذين المعلمين الجوهريين من معالمّ الحضارة لدى أية أمة، ولكنه لم يقدم حججا وأدلة مقنعة تعكس توجهه. وبالرغم من أننا لا ننكر علو كعب هذا الرجل في الدراسة اللسانية العربية الحديثة، بحيث إن التأريخ للسانيات العربية الحديثة لا ينبغي أن يتجاوزه، فإن موقفه من التراث العربي ومن اللغة العربية الذي أعلن عنه في كتابه «اللسانيات واللغة العربية» يعد موقفا خطيرا، وفي حاجة إلى مراجعة.

الهوامش والمراجع:

1 - عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، (دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1985)، ص. 56.

2 ينظر: كتاب، مبادئ اللسانيات، لأحمد محمد قدور، (دار الفكر العربي، ط2، 1999)، ص. 150.

3 الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، ص. 53.

4 سنعود إلى هذا النص عند حديثنا عن موقف الفاسي الفهري من التراث العربي.

5 عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، ص. 60.

6 Ferdinand De Saussure, Cours de linguistique générale, (Enag éditions, Algérie, 1994), 2éd., p. 31.

7 - Ibid. p.p. 197 – 198.

8 عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، ص. 52.

9 نفسه، ص – ص. 60 – 61.

10 يراجع بهذا الشأن الباب الثاني من رسالته للدكتوراه المعنونة بـ - Hadj-Salah, A, Linguistique arabe et linguistique générale (Essai de méthodologie et d'épistémologie du 'ilm al-'arabiyya, thèse de doctorat, (Paris, 1979), T2.، وبخاصة الفصول (4، 5، 6)

11 عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص. 14.

12 Skora Setti, La relation concept - objet autour des définitions de termes, p. 274.

13 Louis-Jean Rousseau, «Vers une Méthodologie de La Définition Terminologique», (dans: Langues et Société en Contact, publié par: Pierre Martel et Jaques Maurais, (Tübingen, Niemeyer, 1994), p. 170.

14 - نقلا عن: علم المصطلح لطلبة العلوم الصحية والطبية، أعضاء شبكة

تعريب العلوم الصحية، (المكتب الإقليمي لشرق المتوسط ومعهد الدراسات المصطلحية، فاس، المغرب، 2005)، ص. 53.

15- Alain Rey, La terminologie, noms et notions, (Que sais je ? p.u.f. Paris, 1979), p. 72.

16 جميل الملائكة، «المصطلح العلمي ووحدة الفكر»، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج. 34، ج. 3، 1983، ص. 98.

(كأين) تأصيلها ولغاتها والقراءات فيها، ومعناها*

أ.د. سعد حمدان الغامدي
كلية اللغة العربية- جامعة أم القرى-
مكة المكرمة

الوزن الصرفيّ لكأيّن:

حاول ابن جنّي أن يزنها صرفياً على الرغم من أنها من الأدوات المبنية التي لا تدخل ضمن البحث الصرفي عند جمهور النحاة؛ إذ جعلوه خاصاً بالأسماء المعربة والأفعال المتصرفة، ولعله بهذا ينهج منهج الكوفيين الذين يتحدثون في تأصيل وبنية كثير من الأسماء المبنية، فكان الأمر عنده على النحو التالي:

1 - جعل (كأيّن) على وزن (كَفَعْلِنْ) فالكاف زائدة فجاءت بلفظها في الميزان، وعدّ الهمزة فاء الكلمة والياء الأولى عينها والثانية لامها، وعبّر عن التنوين بلفظه؛ لأنه عدّه زائداً.

2 - جعل وزن (أيّ) فَعْلاً، وذلك أن أصلها: أَوْيٍ؛ لأنها فَعْل من: (أَوَيْت) كما يقول.

(*) هذا الجزء الثاني المتمم للجزء الأول المنشور في العدد السابق متضمنا المبحث الأوّل: (كأين) تأصيلها ولغاتها والقراءات فيها، ومعناها.

3 - جعل (كائن) على وزن كَعْفِن، ومعلوم هنا قولهم بالقلب المكاني والحذف في هذه الصيغة، وكلاهما يراعى في الميزان الصرفي، فإحدى الياءين بعد التقديم حذفت، وقد نص على أن الياء الثانية هي التي حذفت وهي تقابل اللام في الميزان، ولذلك حذف ما يقابلها في الميزان، والياء الباقية التي تقابل العين في الميزان قلبت ألفا، وهذا النوع من القلب لا يراعى في الميزان فقد وزنوا: قال بـ (فَعَل)؛ لأنه (قوَم) كما يقول ابن جنّي، وأخّر فاء الميزان لتأخر فاء الكلمة، وعبر عن الزائد وهو الكاف والتنوين بلفظهما.

وعند من يرى أن الياء المقابلة لعين الكلمة هي المحذوفة فإن الوزن عنده (كَلْفِن) كما مرّ معنا عند السمين الحلبي في الدرّ.

4 - وذكر ابن جنّي أيضاً أن أصل (كائن) كيّئن -وقد رأينا أن بعضهم يكسر الياء وبعضهم يفتحها- وأنّ ابن يعيش يعدّها لغة، وقال إن مثالها جَيّد وسيّد، وعلى هذا فوزنها كما قال ابن جني كعْلَفِن، وأُثبتت في المحتسب بفتح اللام، وهو ضبط قلم، وأظن الصواب ما قاله ابن يعيش، وعلى هذا فاللام مكسورة.

5 - ذكر أيضاً أن (كيّئن) حذفت ياؤها الثانية كما حذفت من مَيْت فبقي (كَيْئِن)، وهكذا فهو يزنها (كَعْفِن) حاذفاً اللام من الميزان، ومقدماً العين على الفاء؛ لأن ذلك مما يراعي في الميزان الصرفي.

6 - جعل (كأْين) على وزن: كَفْعِن؛ لأن الهمزة عادت إلى مكانها من التقدم كما يقول. ويلاحظ أن اللام حذفت من الميزان. فإذا اعتقدنا أن العين هي المحذوفة كان الوزن كفْلِن.

7 - بقيت لغة واحدة من اللغات الست وهي (كَئِنْ) ووزنها حسب ابن جني (كَعِنْ) قال: «والعين واللام محذوفتان».

وهكذا يظهر لنا أنّ بعض النحاة يذكرون مثالين لكلمة كأيّن ولكلّ لغة من لغاتها؛ أحدهما يبين طريقة نطقها، والثاني يبيّن وزنها الصرفي، وهذا ما فعله ابن جنّي والقيسي والسمين الحلبي في بعضها ويمكن جمع ذلك على النحو التالي:

1 - كأَيِّن، مثالها: كَعَيِّن، ووزنها: كَفَعْلِنْ.

2 - كائن، مثالها: كاعن، ووزنها: كَعْفِنْ على رأيٍ، وكَلْفِن على آخر.

3 - كيِّئن، مثالها: كَيِّعِن، ووزنها: كعْلَفِن. (بكسر الياء وفتحها في المثال، وكسر اللام وفتحها في الميزان».

4 - كيْئِن، مثالها: كيْعِن، ووزنها: كَعْفِن أو كَلْفِن على رأي آخر.

5 - كأْيِن، مثالها: كَعْيِن، ووزنها: كَفْعِن أو كفْلِن.

6 - كَئِن، مثالها: كَعِن، ووزنها: كَفِنْ.[121]

كما يظهر أيضاً أن بعض حروف الكلمة لم يحدث له أيّ تغيير في أيّ لغة من هذه اللغات، وهما حرفا الكافُ والنون، ولم يحدث للهمزة أكثر من تأخيرها عن الياءين الباقيتين في (كيِّئن) والمحذوف إحداهما في (كائن) و(كيْئِن)، وبقيت الهمزة في موضعها في (كأْيِن) وربما كانت كذلك في (كَئِن) إلا إذا كان حذف الياءين حصل وهما متقدمتان عليها، وعلى كلّ حال فالهمزة بقيت في جميع لغات الكلمة.

أما ما تُصرّف فيه فهما الياءان، وذلك بالتقديم كما في (كيِّئن)، وبالقلب والإعلال لإحداهما والحذف للأخرى كما في (كائن)، وبالحذف لإحداهما وإبقاء الأخرى كما هي مُقدمةً كما في (كيْئِن)، أو مؤخرة كما في (كأْيِن)، أو بالحذف لكلتيهما كما في (كئن).

كما ظهر أنها مبنية في جميع لغاتها حتى (كائن) مما يدل على عدم صحة ما قيل من أنّها اسم فاعل من كان أوكاءَ، والله أعلم.

القراءات في كأيّن:

مما يتصل بالبحث في تأصيلها ولغاتها ذكر القراءاتِ المرويّة فيها.

لقد عد معجم القراءات القرآنية الذي أعدّه الدكتور أحمد مختارعمر وعبد العال سالم عشرَ قراءات في موضع آل عمران 146، ولكنّ بعضها كان نتيجة لقراءة خاطئة لمصارد هذه القراءات من ذلك (كأَنْ) والصواب (كئِن)، ورسمت في بعض المصادر كالبحر: (وكان) مما أوجد الخطأ في القراءة وذلك لعدم وضع همزة مكسورة في رسمها؛ إذ ترسم في مصادر أخرى كأِن.

وهاك عرضاً لما استطعت استخراجه من قراءات في هذه الكلمة وأقوال العلماء في كل موضع.

1 - كأَيِّنْ: بهمزة مفتوحة وياء مشدّدة مكسورة، وهي قراءة ستة من السبعة والمخالف ابن كثير (120هـ) قال ابن مجاهد (324هـ) «فقرأ ابن كثيروحده (وكائن)، الهمزة بين الألف والنون في وزن كاعِن، وقرأ الباقون (وكأيّن) الهمزة والكاف والياء مشدّدة في وزن (كعَيِّن)»[122] وكانت إحدى قراءتين ذكرهما الطبري[123] وجعلها أبو حيان قراءة الجمهور(124) هذا في الوصل، وقد ذكر مكّي أنه «ثبتت في المصاحف بعد الياء نون؛ لأنها نقلت عن أصلها».[125].

2 - وجاء في الشوارد للصغانيّ (ص61) في قسم ما قرئ في الشواذ من القراءات قوله رحمه الله: «كَيَيِّنْ: لغة في كأَيِّنْ، وقرأ ابن كثيرفي رواية شِبْل (148هـ) عنه {وكَيَيِّنْ من نَبِيٍّ}» آل عمران 146، ولا أعدها قراءة مستقلة

لأنها تسهيل لكأَيِّن، باستبدال ياء (محركة بالفتحة) بالهمزة (المتحركة بالفتحة)؛ والياء تناسب الياء المثقلة المكسورة بعدها، وقد مرّ حديث ذلك.

3 - كأَيٌّ (وقفاً): عن أبي عمرو (154هـ) أنّه وقف بغير نون على الأصل، لأنّه تنوين كما يقول مكي(126)، وجاء في البحر «وكتبت بنون في المصحف ووقف عليها أبو عمرو، وسورة بن المبارك عن الكسائي (189هـ) بياء دون نون ووقف الجمهور على النون اتباعاً للرسم».[127]

وذكر ابن الجزري في «حذف ما ثبت رسماً مما اختلف فيه كلمة واحدة» وهي (وكأيّن) قال: «وقعت في سبع مواضع في آل عمران ويوسف وفي الحج موضعان وفي العنكبوت والقتال والطلاق. فحذف النون منها ووقف على الياء أبو عمرو ويعقوب (205هـ)، ووقف الباقون بالنون وهو تنوين ثبت رسماً من أجل احتمال قراءة ابن كثيروأبي جعفر (130هـ) كما سيأتي والله أعلم».[128]

إذاً فأبو عمرو ويعقوب يقرآن بها وقفاً في جميع المواضع بدون نون حسب النشر، ويضاف إليهما سورة بن المبارك عن الكسائي في موضع آل عمران، حسب البحر.

4 - كائِنْ: قراءة لابن كثيروحده من السبعة كما يقول ابن مجاهد[129]، وقال القرطبي «وقرأ ابن كثير (وكائن) مثل (وكاعن) على وزن فاعل، وأصله كيْئِن فقلبت الياء ألفاً كما قلبت في يَيْأس فقيل ياءس».[130]

وذكر الدمياطي في الإتحاف أنه قرأ بها ابن كثير وأبو جعفر (وهو من العشرة) قال: «ووافقهما الحسن فيما عدا الحجّ»[131] (وهما موضعان في الحج).

وذكر أبو جعفر النحاس أن أكثر ما جاء في كلام العرب وأشعارها كائن من رجل قد رأيت، وقرأ بهذه اللغة جماعة من أئمة المسلمين منهم أبيّ بن كعب وعبد الله بن عباس ومجاهد وأبو جعفر وشيبة والأعرج والأعمش». [132] وهذا الكلام يبدو منه أنها قراءتهم في جميع المواضع، وإن كان قاله عند موضع يوسف.

5، -6 (كايِنْ) و(كَيِنْ): الأولى ذكرها الطبري (310هـ) قائلاً: «وقرأ آخرون بمد الألف وتخفيف الياء» علماً أنه لم يذكر مع قراءة الجمهور (كأيّن) سوى هذه القراءة، وقال عنهما «وهما قراءتان مشهورتان في قراءة المسلمين، ولغتان معروفتان لا اختلاف في معناهما، فبأيّ القراءتين قرأ ذلك قارئٌ فمصيبٌ، لاتفاق معنى ذلك وشهرتهما في كلام العرب» [133] ولم يسند أيّاً من القراءتين إلى أحد بل قال: «فقرأه بعضهم (وكأيّن) بهمز الألف وتشديد الياء، وقرأ آخرون بمدّ الألف وتخفيف الياء».

وحسب النشر فإنّ الذي سهل همزة (كائن) هو أبو جعفر يزيد بن القعقاع أحد القراء العشرة، قال: «وحققها الباقون» ثم قال: «وانفرد الهذلي عن ابن جماز بتحقيق الهمزة في كاين فخالف سائر الناس عنه والله أعلم، وانفرد أبو علي عن الأصبهاني بتسهيل الهمزة في موضع العنكبوت مع إدخال الألف قبلها كأبي جعفر سواء، وقد خالف في ذلك سائر الرواة عن النهرواني وعن الأصبهاني والله أعلم». [134]

وهناك ملحوظة بالنسبة لهذه القراءة فقد ذكر ابن خالويه أنه قرأ بها قتادة، وأشك في صحة قراءتها من قبل ناشر الكتاب المستشرق برجشتراسر [135]، ولعلها (كأْين) بهمزة ساكنة وياءٍ مكسورة وهي التي ذكر ابن جنّي أنّها لابن محيصن والأشهب والأعمش والله أعلم.

وذكر النحاس أنه «قد روى عن الحسن (وكاين) بغير همز».[136]

والثانية:وهي (كَيِن) ذكر أبو حيان أن الحسن البصري قرأ (كَيِن) بكاف بعدها ياء مكسورة منونة، وهذا في موضع آل عمران، وفي موضع يوسف ذكر أن صاحب اللوامح ذكر: «أنّ الحسن قرأ (وكَيِن) بياء مكسورة من غير همز ولا ألف ولا تشديد، وجاء كذلك عن ابن محيصن فهي لغة انتهى».[137]

وقوله هي لغة لعله يقصد تسهيل الهمز في (كَئِن) أما أنها لغة مستقلة فهذا مستبعد، قياساً على أن اللغات كلها مهموزة؛ ولكن من العرب من يسهل الهمز كما في (كائن) التي مرّت.

ونُسِبَ إلى أبي جعفر أنه قرأ (وكائِن) مع التسهيل بالمدّ والقصر في موضع محمد.[138]

وجاء عند ابن خالوية «وكَيَنْ في وزن وكَعَن ابن محيصن»[139] وضبطها الناشر بفتح الكاف والياء والكاف والعين من الوزن ضبط قلم، وهو واهم، والصواب ما حرره أبو حيان من أنها بياء مكسورة.

-7 و(كأْيِنْ): كذا ضبطها ووصفها ابن جني بهمزة بعد الكاف ساكنة وياء بعدها مكسورة خفيفة ونون بعدها في وزن كَعْيِن، وذكر أنها قراءة ابن محيصن والأشهب والأعمش، ولم يذكر غيرها من الشواذ في موضع آل عمران[140]، وذكرها القرطبيّ عن ابن محيصن، مثل: وكَعْيِن وهو مقلوب كيْئِن المخفّف[141]، وذكر أبو حيان أنّ الذي قرأ بها ابن محيصن والأشهب العقيلي.[142]

وجاء في بعض المصادر (كأَيْن) بفتح الهمزة وإسكان الياء ضبط قلم وهو خطأ محض، والصواب ما قيده ابن جني من الضبط باللفظ.[143]

-8 (كيْئِنْ): ذكر القرطبي أن (كيْئِن) بياء ساكنة وهمزة مكسورة لغة، ولكنه لم يذكر القراءة بها وقال عنها «ولغة خامسة كيْئِن مثل كيْعِن وكأنه مخفف من كيِّئِن مقلوب كأيّن».[144] وقال أبو حيان «وقرأ بعض القراء من الشواذ (كيْئِن) وهو مقلوب قراءة ابن محيصن»[145] يقصد: كأْيِن مثل كَعْيِن التي مرت قبل هذه.

ولم يحسن ناشر شرح الأشموني ضبط هذه الكلمة فجعلها مفتوحة الياء مكسورة العين وهو ضبط قلم لم يقيد بالألفاظ، والصواب إسكان الياء وكسر العين، وكذلك كان الضبط خطأً في لغتي كأْيِنْ، وكَئِنْ حيث ضبطت الهمزة بالفتحة في الأولى والثانية، وهو خطأ محض.[146]

-9 كَئِنْ: بكسر الهمزة وتنوينها، ذكرها القرطبي قراءة لابن محيصن، وضبطها بقوله وكَئِن مهموزاً مقصوراً مثل: وكَعِنْ، وهو من (كائن) حذفت ألفه».[147]

وقال أبو حيان «وقرأ ابن محيصن فيما حكاه الداني كَئِن على مثال كَعِن وقال الشاعر:

كَئِن من صديق خلته صادق الإخا = أبان اختباري أنّه لي مداهن»[148]

وقد أخطأ واضعا معجم القراءات القرآنية في ضبطها فجعلاها (كأَن) بفتح الهمزة وما ذلك إلاّ أنها رسمت في البحر وغيرها (كان) غير مهموزة، ولكنّ شيخنا أ. د. محمد أحمد خاطر تنبّه إلى الصواب في هذه القراءة فضبطها على النحو التالي: «كَئِن بفتح الكاف وكسر الهمزة وسكون النون».[149]

ويبدو أن كَئِنْ تسهّل همزتها فتكون قراءة:كَين، وعلى هذا فإن القراءة الأساس لقراءات:كاين وكئِن وكَين هي قراءة ابن كثير (كائن) سهلت الهمزة فكانت كاين وحذفت الألف من كائن فكانت (كئِن) وسهلت الهمزة في هذه فكانت (كَين)، أو ربما كانت الأخيرة نتيجة حذف ألف كاين المسهلة الهمزة والله أعلم.

هذا ما تأكدت من وروده من القراءات في مصادر مختلفة مما دلني عليه معجم القراءات القرآنية أو وصلت إليه بنفسي، ونبهت على بعض أخطاء المعجم في طبعته الأولى والثانية التي استدرك بعضها واضعاه في آخر طبعاته.

وقد وجدت أن سبب هذه الأخطاء هو القراءة الخاطئة لبعض المصادر التي لم تعن بوضع الهمزة ولم تقيد كيفية قراءة الكلمة بالحروف.

وإذا تأملنا هذه الصور التسع للقراءات فإنّا نجدها لا تخرج عن خمس لغات من اللغات الست التي ذكرناها وذلك على النحو التالي:

1 - لغة (كأَيّن) بفتح الهمزة وتشديد الياء المكسورة قرأ بها الجمهور بالنون وصلاً ووقفاً وهذه القراءة الأولى، وحذف بعض القرّاء النون وقفاً وهذه القراءة الثانية،وروى شبل عن ابن كثير تسهيل الهمزة إلى ياء متحركة (كَيَيّنْ).

2 - لغة (كائن) بألف بعد الكاف بعدها همزة مكسورة ونون، قرأ بها ابن كثيروجماعة من الأئمة. وقرأ أبو جعفر بتسهيل الهمزة فهاتان قراءتان في لغة واحدة.

3 - لغة (كأْين) بهمزة ساكنة وياء مكسورة مخفّفة، وربما سهلت همزتها فجاءت منها (كاين) إن لم تكن من كائن.

4 - لغة (كيْئِن) بياء ساكنة ثم همزة مكسورة. وقيل إنها مقلوب اللغة والقراءة السابقة، وهي اللغة الخامسة التي ذكر القرطبي أنه لم يقرأ بها.

5 - لغة (كَئِن) بهمزة مكسورة ولا ياء، ومثالها كَعِن، ووزنها الصرفي حسب ابن جنّي كَفِنْ، وجعلها بعضهم من (كائن) حذفت ألفها، ولعل قراءة كِين بياء مكسورة تسهيل لكئِن المهموزة، أو لعلها مقتطعة من (كاين) بالألف والياء.

وبقيت اللغة السادسة وهي (كَيِّئِنْ) وهي التي نص ابن يعيش دون سواه على أنها لغة، وكما هو ظاهر فإنه لم يقرأ بها أحد، والله أعلم.

المبحث الثاني: معناها

يقول سيبويه إنّ «كأيّن معناها (ربّ)»[150] ومعنى (ربّ) عنده هو: التكثير كما حققه ابن مالك إذ صحّح أن (ربّ) للتكثير، وذكر أنه مذهب سيبويه، وأنّ ابن خروف قال: «وذكر سيبويه في باب (كم) أنّ (ربّ) للتكثير» قال ابن مالك: «قلت: فمن كلامه الدال على ذلك قوله في باب (كم): «اعلم أن لكم موضعين: أحدهما: الاستفهام، والآخر: الخبر ومعناها معنى (ربّ)» ثم قال (يعني سيبويه) بعد ذلك في الباب: «واعلم أنّ (كم) في الخبر لا تعمل إلاّ فيما تعمل فيه (ربّ)؛ لأنّ المعنى واحد، إلاّ أن (كم) اسم و(ربّ) غير اسم»[151]، هذا نصّه، ولا معارض له في كتابه، فعُلِمَ أنّ مذهبه كون (ربّ) مساوية لكم الخبرية في المعنى، ولا خلاف أن معنى كم الخبرية: التكثير».[152]

إذاً فمراد سيبويه من جعل (كأيّن) بمعنى (ربّ) أنها بمعنى التكثير.

واختار جماعة من النحاة والمعربين أن يقولوا بأنها بمعنى (كم) دون نص على أنها للتكثير أو مع نصٍّ عليه؛ فأبو عبيدة يقول عند قوله تعالى:{فكأيّن من قرية أهلكناها} الحج 45: ومعناها: وكم من قرية، وقال عند قوله تعالى:{وكأين من دابّة} العنكبوت 60:»وكم من دابة»[153]، والفرّاء يقول: «ومعنى: وكأيّن: وكم»[154]، والفارسي يقول: «ومما يجري مجرى كم في أن المراد به التكثير قولهم: كأين رجلاً جاءك».[155] والجرجانيّ يقول: «وأما (كأيّن) فبمنزلة (كم) في الدلالة على العدد الكثير»[156] وعلى هذا المنوال نسج كلٌّ من الزجاج ومكّي وابن الأنباري والقيسي والعكبري والقرطبي وأبو حيان[157] مع نصّه أحياناً على أنها للتكثير دون ذكر لـ(كم)، وفعل ذلك غيرهم.

وذكر أبو حيان أنه مما يدل على أنّ (كأيّن) بمعنى كم قول [لعلها: الكميت]:

وكأيّن وكم من محدث قد أجرتم بلا سبب دان إليه ولا...[158]

عطفَ كم على كأيّن توكيداً كأنه قال: كم وكم ثم قال: «وزعم سيبويه أنّ معنى (كأيّن) معنى (ربّ)، قال بعض أصحابنا: وذلك غير خارج عما قاله غيره من النحويين من أنها بمعنى (كم)؛ لأن معنى (رب وكم وكأيّن) واحد؛ لأنّ جميعها يستعمل في المباهاة والافتخار».[159]

وقد وجدتُ بيتين في شعر الكميت فيهما عطف كم على كأيّن[160] وهما:

وكائن وكم من ذات وَدْقَين ضِئْبِلٍ نآدٍ كَفَيْتَ المسلمين عضالَها

وكائن وكم من ذي أواصر حوله أفاد رَغِيباتِ اللُّهى وجزالَها

وأقوى من هذا أن أُبَيًّا رضي الله عنه في قوله تعالى: {كم من فئةٍ قليلة غلَبَتْ فِئَةً كثيرةً بإِذْنِ اللهِ} البقرة 249 قرأ (كأَيِّن من فِئَةٍ قليلةٍ غلبت)، وهذا يدلّ بوضوح على أنهما بمعنى واحد.[161]

وللأعلم تعليق على هاتين الطريقتين بناه على ما رآه وجه شبه بين ربّ وكأيّن قال: «ومعنى (كأيّن) عند سيبويه كمعنى (رُبّ) وقال الفرّاء: معناها (كم)، وقول سيبويه أصحّ؛ لأنّ الكاف حرف دخوله على ما بعده كدخول (رُبّ)، و(كم) في نفسها اسم» وأضاف: «وأنت تقول: كم لك؟ ولا تقول كأين لك؟ كما لا تقول: ربّ لك».[162]

وطريقة أخرى في التعبير عن معنى (كأيّن)، وهي النص صراحة بأنّ معناها التكثير، وهذه الطريقة هي الأسلم؛ لأن الخلاف في دلالة (رُبّ) خلاف واسع وكبير[163] وكذلك خالف بعض النحاة في دلالة (كم) الخبرية على التكثير؛ إذْ جاء عند أبي حيان عن (كم): «وما ذكره المصنف (ابن مالك) من كون (كم) الخبرية يراد بها العدد الكثير هو مذهب المبرّد ومَنْ بعده من النحاة إلاّ أبا بكر بن طاهر وتلميذه ابن خروف، فإنهما زعما أنها تقع على القليل والكثير؛ من حيث كان معناها (ربّ)، وكما أنّ (ربّ) يكون للقليل، ويكون للكثير في مواضع المباهاة والافتخار، فكذلك (كم)، وزعما أن ذلك هو مذهب سيبويه والكسائي، قال سيبويه: «ومعناها ربّ»، وقال (ابن الكسائي) : وتقول: كم رجل كريم قد أتاني فكم إخبار بمعنى ربّ... قال: (ابن طاهر وابن خروف): «فهذا نصّ منهما على أنها تقع على القليل والكثير كما أنّ ربّ كذلك».[164]

واستدل ابن خروف على وقوع (كم) على القليل بما حكاه الأخفش عن العرب: «كم مكث عبدالله أيوماً أم يومين، ففسّر بالواحد والاثنين، ووجه الدليل من ذلك عنده أنّ (كم) الاستفهامية تعم (كم) الخبرية في اللفظ والمعنى، لا تفارقها في أكثر من أنها متضمنة لحرف الاستفهام وإلاّ فهما معاً واقعان على عدد مبهم، فكما أنّ الاستفهامية تقع على القليل فكذلك الخبرية؛ إذ لا يختلف مسمى الاسم بالنظر إلى الاستفهام والخبر».[165]

ورأى ابن عصفور أنه مما ينبغي أن يستدل به على أنّ (كم) الخبرية تقع على القليل والكثير قول الفرزدق[166]:

كم عمة لك يا جرير وخالة ... فدعاء قد حلبت عليّ عشاري

شغّارةٍ تَقِذُ الفصيلَ برجلها ... فطّارةٍ لقوادم الأبكار

كنّا نحاذر أن تضيع لقاحُنا ... ولَهًا إذا سمعت دعاءَ يَسَارِ

قال: «ألا ترى أنه لا يمكن أن يكون لجرير عمّات وخالات كثيرة كلهن فُدْع، يقِذْن الفصلان بأرجلهن، حالبات لعشارِ الفرزدق، وكلفات براعيه يسار، ومما يبيّن أنّه ليس يريد تكثير العمات والخالات رواية من روى برفع عمة وخالة؛ ألا ترى أنّ العمّة والخالة لا يراد بهما [إلاّ] الأفراد، و(كم) واقعة على المراد..» الخ ما قال.[167]

إذاً فقول سيبويه إنّ (كأيّن) بمعنى (ربّ) وقول عدد من العلماء إنها بمعنى (كم) قد يفهم منه أنها تفيد التقليل والتكثير، كما فُهم ذلك في (كم) عندما ذكر سيبويه أنها بمعنى (ربّ) فلم يبق إلا أن يصرّح بمعناها، وجيّد أيضاً أن يقول بعضهم: «كأيّن بمنزلة (كم) في الدلالة على العدد الكثير»[168] وما شابه ذلك من عبارات توضح المراد بتنزيل كأيّن منزلة (كم) في المعنى.

وعلى كل حال فالذي يظهر من كلام النحاة أنه لا يراد بها إلا التكثير؛ لأنّ الاستعمال كذلك في الأكثر، ولا يعقل أن يقولوا بمعنى لم يرد به إلاّ استعمال نادر؛ وهاهو أبو حيان يقول: «والذي يظهر من استعمال العرب لها أنها للتكثير».[169] وبهذا تفارق (كم) و(كذا)، أختيها في الكناية عن العدد، بالنسبة للمعنى، ذلك أنه اختُلِفَ في (كم) على النحو الذي أوردنا، كما ظهر في (كذا) أنها لم توضع للتكثير بل هي مبهمة في العدد سواءً كان كثيراً أو قليلاً كما يقول أبو حيان.

أمّا كيفية حدوث هذا المعنى فيها فحديث هذا يتصل بالحديث عن تركيبها من الكاف التي هي للتشبيه قبل التركيب ومن (أيّ) التي هي استفهامية، وعندما أرادوا معنى جديداً ركبوهما.

يقول مكي عن (كأيّن): «هي (أيّ) دخلت عليها كاف التشبيه فصار الكلام بمعنى كم».[170] وعبارة السمين أوضح عندما يقول: «وحدث فيها بعد التركيب معنى التكثير» إلى أن قال: «وقد عهدنا في التركيب إحداث معنى آخر، ألا ترى أنّ لولا حدث لها معنى جديد».[171]

وقد مضى طرف من هذا في الحديث عن تركيبها.

كأيّن استفهامية:

في معناها يذكر ابن مالك أن (كأيّن) تنفرد عن (كذا) بأنها قد يستفهم بها، واحتج لذلك بقول أبيّ بن كعب رضي الله عنه لعبد الله: «كأيّن تقرأ سورة الأحزاب، أو كأيّن تعدّ سورة الأحزاب؟ فقال عبد الله: ثلاثاً وتسعين، فقال أبيّ: قط» أراد ما كانت كذا قطّ، كذا قال ابن مالك.[172]

والقول إنها تأتي للاستفهام نسبه ابن هشام إلى ابن عصفور[173]، ولم أجده في كتابيه المقرب وشرح الجمل، وإلى ابن قتيبة أيضاً، ولعله في كتاب الجامع في النحو الذي ذكره أبو حيان وأورد منه نصاً يقول: «(كأيّن) بمعنى (كم) تقول: بكأيّن تبيع هذا الثوب أي: بكم تبيعه»، وهذا المثال بالإضافة إلى أنّ فيه دخول حرف الجرّ على كأيّن فإنّها فيه استفهامية.

وعلى كلّ حال فإنه يظهر أن أبا حيان لا يرتضي أن تكون استفهامية؛ لأنه بعد أن أورد كلام ابن مالك قال: «[ولم][174] يذكر (يعني ابن مالك) دليلاً على أنه يستفهم بها سوى هذا الخبر»، ولأبي حيان موقف من ابن مالك في استشهاده بالحديث سواء أكان مما هو من حديث النبي صلى الله عليه وسلم أم من الآثار المنسوبة إلى صحابته، ولذلك قال: «وقد تقدم لنا الكلام في أنّه يخالف النحاة في إثبات القواعد النحوية بما ورد في الآثار كهذا الأثر وغيره، وبيّنا العلة التي عدل النحويون لأجلها عن الاستشهاد بذلك»[175] ويمكن مراجعة موقفه من الاستشهاد بالحديث ومن ابن مالك في مظانه من كتبه وفي الاقتراح للسيوطي.[176]

وهذا الأثر ورد عند العكبري (616هـ) في كتابه إعراب الحديث النبوي، ولم يصرّح بأن كأين للاستفهام بل ذكر أنّها اسم بمعنى (كم) دون تحديد لكم هذه هل هي الخبرية أم الاستفهامية.[177]

وعلى كل حال فهذا الأثر في مسند أحمد برقم 21207 ونصّه:

«حدثنا عبد الله حدثنا خلف بن هشام حدثنا حمّاد بن زيد عن عاصم بن بَهْدَلَة عن زِرّ قال: قال لي أبيّ بن كعب: كأين تقرأ سورة الأحزاب أو كأين تعدّها؟، قال: قلت: ثلاثاً وسبعين آية، فقال: قطُّ؛ لقد رأيتها وإنها لتعادل

سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عليم حكيم)».

ولغة الصحابة كما هو معلوم حجّة، وأبو حيان جانبه الصواب في موقفه هذا، وقد عُني علماءٌ كثر بالرد عليه.

وللعلم فقد حلت (كم) محل كأيّن في رواية أخرى في المسند نفسه وكانت هكذا: "كم تقرؤون سورة الأحزاب..." الخ الحديث رقم 21206.

وهكذا فإنّ (كأيّن) تأتي خبرية تفيد التكثير واستفهامية، وربّما كانت خاصة بالسؤال عن الكثير، وهذه المعاني في (كم) بشكل ما.

الخاتمة:

كشف هذا البحث وجمع ما يتصل بكأين من حيث تأصيلها ولغاتها والقراءات فيها والمعاني التي تأتي عليها، وخلاصة ذلك على النحو الآتي:

-أن كأين مركبة من الكاف وأيّ الاستفهامية تحديدا، وفيها مباحث عدّة.

-أن لغاتها فيما أحصاه العلماء ست، ولا يدخل فيها ما سهلت همزته منها.

-أنها جاءت في القراءات على تسع صور، ولكنها لا تخرج عن خمس لغات من اللغات الست.

-أمّا بالنسبة لمعناها فإنها تأتي خبرية تفيد التكثير واستفهامية، والله أعلم.

الحواشي والتعليقات (الجزء الثاني):

(121) انظر المحتسب173-1/172 بتصرف، وإيضاح شواهد الإيضاح1/236 وما بعدها، والدر424-3/422.

(122) السبعة 216، وانظر الحجة للفارسي 3/80.

(123) جامع البيان 3/460.

(124) البحر 3/72.

(125) مشكل إعراب القرآن 1/160.

(126) نفسه 1/160، وانظر البيان 1/224.

(127) البحر 3/72.

(128) النشر 2/134.

(129) السبعة 216.

(130) الجامع 4/224.

(131) الإتحاف 1/489.

(132) إعراب القرآن 2/159، 160

(133) جامع البيان 3/460.

(134) النشر 2/344.

(135) مختصر في شواذ القراءات 22.

(136) إعراب القرآن 2/160.

(137) البحر 3/172، ثمّ5/351.

(138) النشر 1/400، 2/242، والإتحاف 393.

(139) مختصر في شواذ القراءات 22.

(140) المحتسب 1/170.

(141) الجامع 4/224.

(142) البحر 3/72.

(143) الأشموني 3/343.

(144) الجامع 4/224.

(145) البحر 3/72.

(146) الأشموني 3/343.

(147) الجامع 4/224.

(148) البحر 3/72.

(149) القراءات القرآنية في البحر 1/118، وانظرها في إعراب القرآن للنحاس 2/160.

(150) الكتاب 2/156.

(151) نفسه 2/161.

(152) شرح التسهيل 3/177، 178.

(153) مجاز القرآن 2/52، 53، 171.

(154) معاني القرآن للفراء 1/237.

(155) المقتصد 750، من نص الإيضاح.

(156) المقتصد 751.

(157) معاني القرآن وإعرابه 1/475، 3/431، 4/173، 5/8، 9، ومشكل إعراب القرآن 160، 161، 163، والبيان 1/224، وإيضاح شواهد الإيضاح 1/263، والتبيان 297، والجامع 4/224، والبحر 3/65، 73، 6/376، 379.

(158) لم أتمكن من قراءتها.

(159) التذييل 3/150أ.

(160) شعر الكميت: جاء البيت الأول وحده بلا سابق ولا لاحق ص:389، المقطوعة رقم 576، وجاء الثاني مع أبيات في المقطوعة رقم 577، في الصفحة نفسها.

(161) معاني القرآن للفراء 1/168، والبحر 2/267.

(162) النكت 533.

(163) انظر هذا الخلاف في الهمع 2/347-348.

(164) التذييل 3/150أ، والضمير في (منهما) يعود على سيبويه والكسائي.

(165) نفسه 3/143ب، 144أ.

(166) ديوان الفرزدق 1/361، والبيت الثالث قبل الثاني فيه.

(167) التذييل 3/44أ.

(168)

(169) التذييل 3/150أ.

(170) مشكل إعراب القرآن 1/160، وانظر 1/163.

(171) الدر 3/421.

(172) شرح التسهيل 2/423.

(173) المغني 246.

(174) في المخطوط (وقد) تحريفٌ.

(175) النصّان في التذييل 3/151أ. وبالنسبة لكلام ابن قتيبة فقد بحثت عنه في كتابه تلقين المعلم فلم أجده، علمًا أن محققه أشار إلى سقط في مبحث كم لم يُعرف مقداره، أمّا عن كتاب الجامع الذي ذكره أبو حيّان فالحقيقة أن المترجمين لابن قتيبة ذكروا كتابين: جامع النحو الصغير وجامع النحو الكبير، ويبدو أنهما مفقودان، انظر تلقين المتعلم، الدراسة:24، والنص: من 269 إلى 271 مع حاشيتها رقم 5.

(176) الإصباح شرح الاقتراح 98-76.

(177) النحاة والحديث النبوي (إعراب الحديث النبوي) 2/51، ومسند الإمام أحمد 35/133،134.

مصادر البحث:

- الإتحاف، للدمياطي (1117هـ)، نشره: شعبان محمد إسماعيل، عالم الكتب ط 1، 1407هـ

- الإصباح في شرح اقتراح السيوطي، لمحمود الفجال، ط1، دار القلم، دمشق، 1409هـ

- إعراب الحديث النبوي، للعكبري (616هـ)، تح: حسن الشاعر، دار المنارة ط2، جدة، 1408هـ

- إعراب القرآن، للنحاس (338هـ)، تح: زهير غازي زاهد، مطبعة العاني، بغداد.

- أمالي ابن الشجري (542هـ)، تح: محمود الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة.

- الإنصاف، لابن الأنباري (517هـ)، ومعه: الانتصاف، لمحمد محيي الدين، القاهرة، 1380هـ

- إيضاح شواهد الإيضاح، للقيسي، من القرن السادس، تح: محمد الدعجاني، دار الغرب الإسلامي.

- البحر المحيط، لأبي حيان (754هـ)، دار الفكر، بيروت، 1403هـ

- البغداديات (المسائل المشكلة)، للفارسي (377هـ)، تح: السنكاوي، مطبعة العاني، بغداد.

- البيان، لابن الأنباري (517)، تح: طه عبد الحميد، الهيئة المصرية للكتاب1400هـ

- التبيان في إعراب القرآن، للعكبري (616هـ)، تح: علي البجاوي، نشر عيسى البابي، مصر.

- التذييل والتكميل، لأبي حيان، مخطوط، دار الكتب.

- التفسير الكبير، للرازي، دار إحياء التراث العربي، ط2، 1417هـ

- تلقين المتعلم في النحو، لابن قتيبة (276)، تح: محمد سلامة الله، رسالة ماجستير، ج أم القرى.

- جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (310هـ)، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 1418هـ

- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (671هـ)، تح: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي.

- الحجة للقرّاء السبعة، للفارسي (377)، تح: بدر الدين قهوجي وآخر، دار المأمون، ط1، 1407.

- دراسات لأسلوب القرآن، لمحمد عبد الخالق عضيمة، مطبعة السعادة، ط1، 1392هـ

- الدر اللقيط من البحر المحيط، الحنفي (749هـ)، بهامش البحر.

- الدر المصون، للسمين الحلبي (756هـ)، تح: أحمد الخراط، دار القلم، دمشق.

- ديوان الفرزدق، كرم البستاني، دار بيروت، 1400هـ

- زاد المسير، لابن الجوزي (597هـ)، المكتب الإسلامي، ط4، 1407هـ

- السبعة، لابن مجاهد (324هـ)، تح: شوقي ضيف، ط2، دار المعارف، 1980م.

- سر صناعة الإعراب، لابن جنّي (392هـ)، تح: حسن الهنداوي، دار القلم، دمشق، 1405هـ

- شرح الأشموني علي بن محمد (900هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

- شرح ابن عقيل على الألفية، تح: محمد محيي الدين، ط20، دار التراث.

- شرح التسهيل لابن مالك(672)، تح: عبد الرحمن السيد والمختون، هجر، القاهرة، ط1، 1410هـ

- شرح الكافية، للرضي (686هـ)، قدم له وحشّاه، إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ

- شرح المفصل، لابن يعيش (643هـ)، عالم الكتب، بيروت.

- شعر الكميت، جمع وتقديم: داود سلّوم، عالم الكتب، ط2، 1417هـ

- الشوارد، للحسن بن محمد الصغاني (650) تح: مصطفى حجازي، نشر مجمع اللغة بمصر 1403.

- القراءات القرآنية في البحر، لمحمد أحمد خاطر، دار الباز، مكة المكرمة.

- الكامل، للمبرد (285هـ)، عني به: محمد أبو الفضل، دار نهضة مصر، القاهرة.

- الكتاب، لسيبويه (180)، تح: عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت 1403هـ

- مجاز القرآن، لأبي عبيدة (210)، تح: فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، مصر.

- المحتسب، لابن جنّي (392هـ)، تح: علي النجدي ناصف وآخرين، القاهرة، 1386هـ

- مختصر في شواذ القراءات، لابن خالويه (370هـ)، نشره: ج برجشتراسر، مكتبة المثنى، القاهرة.

- المسائل العضديات، للفارسي (377)، تح: علي جابر المنصوري، عالم الكتب، بيروت، 1406هـ

- مشكل إعراب القرآن، لمكّي بن أبي طالب (437)، تح: ياسين السواس، دار المأمون للتراث، دمشق.

- معاني القرآن، للفراء (207هـ)، تح: أحمد يوسف نجاتي وآخرين، بيروت، 1980هـ

- معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (311)، تح:عبد الجليل شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408هـ

- مغني اللبيب، لابن هشام (761هـ)، تح: مازن مبارك و محمد علي حمد، دار الفكر، ط5، 1979م.

- المفصل، للزمخشري، ط2، دار الجيل، بيروت0

- المقتصد في شرح الإيضاح، للجرجاني (471هـ)، تح: كاظم بحر المرجان، بغداد، 1982م.

- النشر في القراءات العشر، لابن الجزري (833هـ)، تصحيح: علي محمد الضبّاع، دار الفكر.

- النكت، للأعلم الشنتمري (476)، تح: زهير عبد المحسن، معهد المخطوطات العربية، الكويت ط1.

- همع الهوامع، للسيوطي، (911هـ) تح: عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلميّة، الكويت.

ملخص
معجم اللغة العربية التاريخي
بين آمال الإعدادِ ومقدماتِ الإنجاز

أ.د. صادق عبد الله أبو سليمان

مقدمات مضيئة إلى معجم اللغة العربية التاريخي

(3)

وإذا كنا في السطور السابقةِ قد وقفنا عندَ مقدماتٍ جَديدةٍ خطت بالدرسِ اللغويّ العَرَبيّ نحوَ المقارنةِ والتأريخِ للغةِ العربيةِ منذ وجودِها الأول؛ بغيةَ الوصولِ إلى أسرارِها عبرَ العصور، والتعرفِ على علاقاتِها بغيرِها من لغات البشر، ولاسيما اللغات السامية، فسنقف في هذا السياقِ عندَ مقدماتٍ نظريةٍ، وإنجازاتٍ مضيئةٍ أخرى للمُحْدثين شَكَّلت جميعُها دعواتٍ وبذوراً يمكن تنميتُها والاستفادةُ من مناهجِها ومتونِها في إنجازِ هذا العملِ اللغويّ الكبير، ويمكن عرضُها على النحوِ التالي:

1 - مقدمات نظرية في الفكر المعجمي التاريخي:

وتتمثلُ في دعواتٍ وتعريفاتٍ وتجهيزاتٍ تصبُّ في خدمةِ إعداد هذا المعجم، وهي تنقسم إلى قسمين، وذلك على النحو التالي:

(*) هذا الجزء الثاني المتمم للجزء الأول المنشور في العدد السابق متضمنا المبحث الأوّل: معجم اللغة العربية التاريخي

دعوات إلى إعداد هذا المعجم:

وقد تتضمن هذه الدعواتُ تعريفاتٍ للمعجمِ التاريخيّ، وبياناً لمضامينِهِ، ومقترحاتٍ لإعدادهِ، وانتقاداتٍ، وإطْلاعاً للقارئ العربي على معجماتٍ لغويةٍ تاريخية، ونودُّ في هذا السياقِ عَرْضَ نماذجَ منها على النحو التالي:

أ-* في مجال التعريف:**

وفي مجالِ التعريفِ وَرَدَ في مجلة المقتطف تحت عنوان:» القاموس الأكبر» للأستاذ سقراط أفندي سبيرو تعريفٌ بالمعجم الإنجليزي» The New Monumental Dictionary of the English Language" قالَ فيه" هو قاموسٌ تاريخيٌّ للغةِ الإنكليزيةِ يجمعهُ جماعةٌ من علماءِ الإنكليز وأدبائِهم، ولم يظهرْ منه حتى الآن سوى بضعةِ مجلداتٍ، والأرجحُ أنه لا يتمُّ في أقلَّ من خمسينَ مجلداً، ويُذكَر فيه تاريخَ كلِّ كلمةٍ؛ أي المعاني التي استعملت فيها بحسب تواريخِها، فيقال: إنَّ معنى هذهِ الكلمةِ كان كذا وكذا حتى سنة كذا، ثمَّ استعملها فلانٌ الفلانيُّ بالمعنى الفلانيِّ سنةَ كذا، ويتلو ذلكَ أولُ جملةٍ أُستُعمِلتْ فيها بالمعنى المذكور، وهذا القاموسُ لا يَهُمُّ سوى العلماءِ والمشتغلينَ بالإنشاءِ في اللغةِ الإنكليزيةِ، وأجزاؤهُ تَرِدُ إلى الكتبْخانةِ الخديويةِ كلما طُبِعَ جزءٌ منها»[1].

بين آمال الإعدادِ ومقدماتِ الإنجاز.

ب-* في مجال الانتقاد:**

يأتي الدكتور بشر فارس لينتقدَ عدمَ عنايةِ العربِ بوضعِ معجمٍ تاريخيٍّ للغتِهم، رغمَ بحثِهم في هذا الجانب، فقد» تكلَّموا- كما يقول- على نقْلِ الألفاظِ من معنىً إلى معنى، وعلى ذهابِ تراكيب، وهجران أخرى؟، إلا أنَّ لغتَنا لا تضمُّ بين كنوزِها معجماً تاريخياً يَرُدُّ اللفظةَ الواحدةَ إلى أصلِها

في اللغاتِ الساميةِ، أو يدفعُها إلى إخوانِها فيهن، ثمَّ ينحدرُ باللفظةِ من الجاهليةِ حتى عهدِنا هذا، ممهلاً حيث يتسعُ المعنى، مسرعاً حيثُ يضيق، وعُكّازُهُ في انحدارِهِ شواهدُ مستخرجةٌ من أمّاتِ التآليفِ والمراجعِ العُمَد، أما الفرنجةُ فما أبطأوا إنْ أخرجوا لأقوامهم معجماتٍ تلك صفتها، وحبي أنْ أدلَّكَ على معجمٍ ليتريه Lattre الفرنسي، والمصنَّف حجةٌ بل بنيان! ذلك عملٌ ضخمٌ أقبل عليه المستشرق الألماني الأستاذ فِشِر"[2].

ج-* في مجال الاقتراح:**

وفي هذا السياق ظهرت مقترحاتٌ مباشرةٌ تدعو إلى إعدادِ هذا المعجمِ، وأخرى تصبُّ في مجالِ بحوثِهِ وتأليفه، وسنعرضُ نماذجَ منها بحسبِ سياقاتها التاريخية، ومما تدخلُ في هذا المجالِ دعوةُ الإمام محمد عبده(1905-1849م) إلى» تأليفِ المجامع لوضع المعاجم اللغوية، وتاريخ تطور اللغة، وما دخل فيها من اصطلاح ومعرب وغيره، والمعاجم العلمية، وفلسفة البيان، والانتقاد، وغيرذلك[3].

وفي سنة 1947م يُقدِّمُ الدكتورُ محمد شرف(1890م1949-م)[4] إلى مجمعِ اللغةِ العربيةِ بالقاهرةِ- صددَ مناقشته لإعدادِ المعجمِ الكبير- مقترحَهُ بشأنِ إعدادِ» المُعْجَمِ اللغويّ العربيّ الواسِعِ»[5]؛ لِ» يكونَ شبهَ موسوعةٍ صغيرةٍ كمعجم أكسفورد أو معجم لاروس أو معجم وبستر على الأقل»[6].

ووجدنا الشيخ عبد الله العلايلي(1914 - 1966م) الذي عُني في كتاباتهِ وتطبيقاتِهِ بالتطورِ اللغويّ ونتائجِهِ التي تجلّت في كتابه:» مقدمة لدرس لغة العرب وكيف نضع المعجم الجديد»، يقترحُ تحت عنوان» المعجم كيف نضعه؟[7]» عدداً من المعجمات كان منها:» المعجم التاريخي أو النشوئي» الذي وصفه بأنه يُعنى ببيانِ معنى المفردةِ الأصل وتفرعه بين الحقيقةِ

والمجاز»[8]، و» المعجم المَعْلمي» وهو يضم جميع المعجمات التي اقترحها في كتابه؛ فهو يراهُ دائرة معارف صغرى على مثل معلمة أكسفورد ووبستر ولاروس. وقد أراده شاملاً لهذا المعجم، والمعجمات الأخرى التي اقترحها، وهي:» المعجم المادي»، و» المعجم العلمي»، و» المعجم الاصطلاحي».

وفي سنة 1949م طالبَ الأستاذ محمد رضا الشبيبي(1888 - 1965م)- عضو» مجمع اللغة العربية» المصري من العراق في كلمته» بعث العربية»[9] أن يشرع- المجمعُ- في إعدادِ معجمٍ حديثٍ يختلفُ عن المعجمات القديمة والحديثة، ويبدو أنه يقتربُ في مضمونهِ من المعجم اللغوي التاريخي؛ فهو يقول:» نريد معجماً يوضع على غرار أحدث المعجمات اللغوية المصنفة في اللغات الأوروبية الحديثة، من حيث الدقة والإتقان والاستيعاب، نريد معجماً يُعنى بتأريخِ الكلمةِ وكيفَ تحولَّتْ مدلولاتُها بتحولِ العصور، على أن تكونَ عنايتُهم معززةً بالشواهدِ والنصوصِ المقتبسةِ من آدابِ لغتنا العربية في مختلِفِ عصورِها»[10].

وَيُقَدِّمُ د.نصار تصوراً لمعجمِ اللغةِ العربيةِ التاريخيّ يهدُفُ من خلالهِ إلى تقديم» الوصف الدقيق لمعنى الكلمة وأصلها وتاريخها» كما يقول معجم أكسفورد التاريخي الكبير[11].

وفي مجال الاقتراحِ الرافدِ لعمل المعجمِ التاريخي نجدُ دَعوةَ بعضِ علماءِ العربيةِ إلى إنجازِ دراساتٍ لغويةٍ متخصصةٍ في لغةِ الأعلامِ والعصورِ والبيئاتِ العربيةِ؛ فالدكتور طه حسين مثلاً وجدناهُ يدعو إلى عقدِ مسابقاتٍ لعملِ معجماتٍ لأشعار الشعراء[12] كالفرزدق وجرير والأخطل ومن إليهم، مرتئياً أن هذه الأعمال خطوات لإعداد المعجم المذكور، وهي دعوةٌ نجدُ صداها عند د.حسين نصار في دعوتهِ إلى إعدادِ معجماتٍ مختصةٍ بلغةِ كبارِ الأدباء، ومعجماتٍ خاصةٍ بعصورٍ معينةٍ في حياة

اللغة والأدب[13]، وفي دعوةِ الدكتور إبراهيم أنيس إلى تصنيف» معجمٍ لألفاظ الأدب الجاهلي» في إطارِ الدعوةِ إلى وضعِ معجماتٍ خاصةٍ بعصورٍ معينةٍ[14]. وتأتي هذهِ المعجماتُ بمثابةِ مقدماتٍ مهمةً لتأليفِ المعجمِ التاريخي.

2 - إنجازات مفيدة في متنِ المعجم التاريخي:

تعددت مجالات إنجاز المحدثينَ في سياقِ خدمةِ متنِ معجم اللغة العربية التاريخي، على أنهُ يمكنُ تصنيفُ هذه الإنجازاتِ إلى قسمين: الأول- إنجازات خاصة بالأفراد، والآخر- إنجازاتٌ خاصةٌ بالجماعات، وَغَنِيٌّ عن البيانِ في هذا السياقِ ما كان لجهودِ المستشرق الألماني فيشر في إنجازِ معجم اللغةِ العربيةِ التاريخيّ من آثارٍ مهمةٍ في توجيهِ الفكرِ اللغويّ العربيّ الفرديّ والجماعيّ نحو هذا الجانبِ النظري والتطبيقي في الدرسِ اللغويّ العربيّ.

ولمّا كانَ عملُ الأفرادِ والجماعاتِ في هذا السّياقِ يُكْمِلُ بعضَهُ بعضاً، ويصبُّ في خانةٍ واحدةٍ: هي خانةُ عملِ معجمِ لغةِ العربِ التاريخي فإننا سنسوق في هذا السياقِ بعضاً من إنجازاتِ الفريقينِ؛ لتكونَ أمثلةً يُمكنُ لهيئةِ إعدادِ هذا المعجمِ إكمالُ جَمْعِ أمثالِها، وتصنيفِها للاستفادةِ منها في متنه، وذلك على النحوِ التالي:

***** التراث وفهرسة المصنَّفات:**

برز الاهتمامُ بنشرِ كتبِ التراثِ منذ بدايةِ العصرِ الحديث، وقد عُنِيَ المحدثون بصناعةِ الفهارسِ التي تُعنى بِذِكْرِ أسماءِ الكتبِ، ومجالاتِها على غرارِ ما صنعه القدماءُ كالفهرست لابن النديم، وكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة، ومن الإنجازاتِ الحديثةِ في هذا

السياقِ:» فهارس(دار الكتب المصرية)» التي صدرت في ثمانيةِ مجلداتٍ في سنة(1301هـ= 1881م)، وقدّمت الدارُ أيضاً فهارسَ للكتب المخطوطة والمطبوعة، وقد أخذت في نشرها منذ سنة 1924م، و» معجم المطبوعات العربية والمُعَرَّبَة» ليوسف إليان سركيس الذي صدر في القاهرة في سنة(1928م)، و» مصادر الدراسة الأدبية» ليوسف أحمد داغر الذي صَدَرَ في جزأين(-1950 1956م)، وله أيضاً» فهارس المكتبة العربية في الخافقين»، وصدرت في بيروت في سنة 1967م، و» فهرس المقتطف1876 - 1952م» الذي صدر في بيروت في 1966م، و» جمهرة المراجع البغدادية» لسركيس عواد وعبد الحميد العلوجي، وصدر في بغداد في سنة 1965م، و» معجم المطبوعات العراقية ومؤلفيها منذ سنة 1800 -إلى سنة 1970م» لسركيس عواد، وصدر في بغداد في 1970م، و» جامع التَّصانيف المصرية الحديثة» الذي أصدرهُ عبد الله الأنصاري، وجمع فيه المصنفاتِ التي صدرت بين سنتي 1301هـ و1310هـ، و» تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان، و» تاريخ آداب العربية» لجرجي زيدان»، و» المصادر العربية والمعرّبة» للدكتور محمد ماهر حمادة...الخ.

ويمكن لواضعي المعجم التاريخي الاتصالُ بالمكتبات ودورِ النشرِ في بلاد العربِ وغيرها في الجامعاتِ والمعاهد والمؤسسات ذوات العلاقة؛ للحصولِ منها على عناوينِ ما تحتويهِ رفوفها من الكتبِ والمجلاتِ والدوريات، وطلب ما تحتاجه منها؛ للاطّلاعِ على متنه.

***** فهرسة مفردات اللغة وشواهدها:**

ويُشكِّلُ هذا الجانبُ لوناً من التأليفِ المعجميّ المُرشِدِ إلى مكانِ المفردةِ وشواهدِها، وهو مفيدٌ جدّاً لِصنّاعِ المعجماتِ التاريخية، وأسهمَ فيهِ مستشرقونَ وعربٌ، فقد رأيناهم يصنعون فهارسَ مرتبةً ترتيباً موضوعياً

وأبتثياً يُلْحِقونَها بالكتبِ؛ لتُعينُ المُطَّلِعَ على الوصولِ إلى النصِّ أو الشاهدِ المطلوبِ في موضعهِ من المصنَّف؛ فهذه الفهارسُ- كما هو معروفٌ- تكونُ في المفرداتِ والمصطلحات، والشواهدِ من الأشعارِ والأمثال، ومنها فهارس معجم» تهذيب اللغة» لعبد السلام هارون، وله أيضاً فهارس شواهد معجم» لسان العرب» التي صدرت في ثلاثة أجزاء عن مكتبة دار التراث العربي، وفهارس شواهد كتاب سيبويه التي خرجت في جزءٍ مستقلٍّ بها، وشواهد» مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» لمازن المبارك ومحمد علي حمد الله الذي ظهرت طبعته الأولى في دمشق عام 1964م، وفهارس كتاب» الصاحبي» للأستاذ السيد أحمد صقر...الخ.

ومما ظهرَ في سياقِ المعجماتِ المفهرسة:» المعجم المُفهرس لألفاظِ القرآنِ الكريم» الذي وضعه الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، و" معجم ألفاظ القرآن الكريم" الذي أعدهُ مجمع اللغة العربية في القاهرة، وهو" نواة صالحة وضرورية لوضع المعجم اللغوي التاريخي؛ لأن القرآن الكريم هو النص العربي القاطع الذي لا يقبل أي شك"[15]، وقد ذهب إلى هذا الرأي د. طه حسين الذي أشار أيضاً إلى أهميةِ الاستفادةِ من جهدِ لجنةِ المعجم الوسيط في إعداد المعجم التاريخي[16].

ومما يمكنُ أن يدخلَ في هذا السياقِ أيضاً ترتيبُ مفردات الرسائل اللغوية، والمعجمات المبوبة أبتثيّاً بدلاً من تسجيلها حسبما اتفق؛ وهذا ما عايَنّاهُ مَثلاً في الطبعة الثانيةِ لمعجم» الإفصاح في فقه اللغة» الأمر الذي يُسهّلُ الوصولَ إليها.

***** دراسات في مفردات اللغة وتراكيبها:**

برزَ في مجالِ الدراساتِ اللغويةِ المتخصصةِ الاهتمامُ بدراسةِ لغةِ الأدباءِ والأعلامِ والإعلام والبيئات والأزمنة، واختصاصِها بمعجماتٍ خاصةٍ

تشرحُ استعمالَ مفرداتها وتراكيبِها، وتوضحُ ما في كلٍّ منها من خصائصَ تُمَيِّزُها.

وبرزَ هذا الاتجاهُ في الدراساتِ اللغويةِ المعاصرةِ[17] في جامعةِ القاهرةِ بريادةِ الأستاذ الدكتور/ محمود فهمي حجازي الذي وَجَّهَ طَلبتَهُ من أبناء الدراساتِ العليا في كلية الآداب في جامعة القاهرةِ إلى إعدادِ رسائلهم العلمية في دراسة لغة كاتبٍ أو شاعرٍ أو مكانٍ معينٍ.

احتذت الجامعات العربية الأخرى في مصرَ وغيرِها هذا الاتجاهَ الحيويَّ في الدرسِ اللغويِّ المعاصر، كما في جامعة الإسكندرية التي وجّهَ قسمُ اللغةِ العربيةِ فيها طلبتَهُ في الدراساتِ العليا إلى دراسةِ لغة الكُتّاب والشعراءِ- كلٍّ على حِدَةٍ- دراسةً تعرضُ لألفاظِهم وتراكيبِهم وأساليبِهم، ومن أعلامِ هذا الاتجاهِ فيه: أذكر: د. حسن ظاظا ود. حسن عون ود. عبد المجيد عابدين ود. عبده الراجحي(ت. 2010م) ود. حلمي خليل(ت. 2010م) ود. طاهر سليمان حمودة، ود. أحمد سليمان ياقوت ود. محمود نحلة وتلامذتهم.

ومما قد يدخلُ في هذا السياقِ اتجاهٌ دراسيٌّ آخرُ أَسميتُهُ «الاتجاهَ الموضوعي» أو «اتجاهَ استقراء الظاهرة اللغوية»، يتناولُ الدارسُ فيه موضوعاً أو ظاهرةً لغويةً كما في: «المولَّد في اللغة العربية» لأستاذنا الدكتور حلمي خليل، و «أسماء الإشارة في اللغة العربية»(ماجستير) د.محمد عبد الله جبر، وله أيضاً « أسماء الأفعال عن دار المعارف في سنة 1980م، و» الجملة الاسمية في شعر الفرزدق(ماجستير) لزميلتنا د. عزيزة أبو صفية- رحمها الله- وهي جميعاً بإشراف د. عبده الراجحي و» التصغير وصيغة في العربية بين القدماء والمحدثين»(ماجستير) د.كرم زرندح، بإشراف د.عبد المجيد عابدين، ولصاحبه أيضاً أسلوب التوكيد واستعمالاته في القرآن الكريم»(دكتوراه) بإشراف المرحوم د. حسن عون، و» الصيغ الصرفية

ودلالاتها في ديوان عبد الرحيم محمود- دراسة وصفية»، و» ألفاظ القتال ودلالاتها في العصر الجاهلي»، و» ألفاظ الجهاد ودلالاتها في القرآن الكريم»، وهي بإشرافنا في جامعة الأزهر في غزة...الخ.

إحياءِ المفرداتِ القديمةِ:

تشكّلُ مسألةُ استعمالِ اللفظِ الواحدِ للدلالةِ على أكثرَ من مدلولٍ ظاهرةً طبيعيةً في اللغات، واستفادَ العلماءُ والمفكّرونَ من هذه الظاهرة؛ فوجدناهم يُطلقونَ ألفاظاً مهجورةً انقرضت دلالاتُها على مدلولاتٍ جديدةٍ، ولاسيما في مجالِ تعريبِ الوافِدِ من المصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية، ولتأخذَ مكانَها في الفصيحةِ المعاصرةِ بدلاً منَ العاميّ والدَّخيلِ،» وقد ظهرت بوادرُ هذا الاتجاهِ عَمَلِيّاً في بدايةِ العصرِ الحديث، وذلك على يدِ المترجمين وشيوخِ الأزهر من مراجعي لغة التراجمة»[18].

كان التنقيبُ في بطونِ المؤلفاتِ القديمةِ من مظاهرِ إحياءِ المفرداتِ العربيةِ التي هجرها الاستعمال العربي الحديث؛ لتكونَ رافداً قويّاً في الترجمةِ والتعريبِ عن الكلمات، وقد دعا إلى هذا الاتجاهِ، أو طَبَّقَهُ غيرُ عالمٍ عربيٍّ، من أمثالِ: أحمد تيمور باشا، ود. أحمد عمار، والشيخ إبراهيم حمروش، ود. إبراهيم مدكور وحفني ناصف، ود. عبد الحليم منتصر، و أ. عبد الحميد العبّادي، ود. علي عبد الواحد وافي، والشيخ محمد الخضر حسين، ومحمد رضا الشبيبي، ومحمود تيمور، ومصطفي الشهابي، و د. منصور فهمي وغيرهم.

وحظيت قضيةُ إحياءِ تراث العربية من المفردات والمصطلحات القديمة باهتمامِ» مجمع البكري»، و» مجمع لطفي السيد»، و» مجامعِ اللغةِ العربيةِ الحيةِ في مصرَ وسوريةَ والأردنّ والعراقِ[19].

*** دراسة لغة الحياة العامة وجمعها:

ومن الإنجازاتِ اللغويةِ التي يمكن أن تُشكِّلُ بُذوراً يمكنُ تكييفُها والاستفادةُ منها لِتَغدوَ جزءاً من متنِ هذا المعجم تأتي دراسةُ اللغةِ العاميةِ بغيةَ تهذيبِها أو ردِّها إلى أصولِها الفصيحةِ وغيرِها، وإذا كانت المعجماتُ العربيةُ القديمةُ قد تَرَفَّعت عن تسجيلِ لغةِ الحياةِ العامةِ في قبائلِ العرب فإننا لا نَعدمُ وجودَها في بعضِ المصنفاتِ القديمةِ ككتابِ البخلاءِ للجاحظ، وكتب الرحلات، واللحن، والفقه، والطب وغيرِها.

والعنايةُ بلغةِ الحياةِ العامةِ في المجتمعِ بجميعِ طبقاته في العصرِ الحديثِ التفت إليها كثيرٌ من علماءِ العربيةِ ومفكريها، ومن ذلك اقتراحُ مجلةِ المُقْتَطَفِ» على علماءِ العربيةِ في مقتطف مايو سنة 1981 وضعَ قاموسٍ مختصَرٍ يشتملُ المأنوسَ من كلامِ الأولينَ، والضروريَّ من مزيداتِ المتأخرين»[20]، وأنها اختارت له الشيخ إبراهيم اليازجي الذي ردَّ عليها بجوابٍ نشرته» في مقتطف يونيو سنة 1881» أوضح فيه أنه شرعَ» في وضْعِ كتابٍ في مِثْلِ ما أُشيرَ إليهِ في الاقتراحِ مقتصراً على الفصيحِ دونَ المُوَلَّدِ والمُحْدَثِ في الاصطلاحِ»، وقالَ:» وَضَعْتُ الكتابَ على نَسَقٍ لم أكن متابِعاً فيهِ، ولا مقلِّداً، ولا متحدّياً مِمَّن سبقني أحد؛ فإني اعتبرتُ فيهِ جانبَ المعاني في كلِّ مادةٍ، فقدمتُ منها ما حسبتُهُ الأصلَ في ذلك التركيب، ثمَّ ألحقتُ بهِ ما تَفَرَّعَ عنهُ من طريقِ المجازالأقرب فالأقرب، إلى أنْ تنقطعَ سلسلةُ الترتيب، وما بقيَ بعدَ ذلكَ مُقتَضَباً عن ذلك النظامِ ذيَّلتُهُ في آخرِ المادة، وختمتُها بالمشهورِ من الأعلام، وكل ذلك على أُسلوبٍ مختَصَرٍ اطَّرَحْتُ فيهِ الحوشيَّ من اللفظِ، والمهجورَ في استعمالِ الفصحاءِ، وتجنَّبتُ ما يُستَحى منهُ من ألفاظِ السَّوءات، وما يُضافُ إليها مِمّا تَبْذَأُهُ[21] الأدباء»[22].

وقد نشرت مطبعة المقتطف في القاهرة للأستاذ سقراط سبيرو معجمه» English Arabic Vocabulary of Modern and Colloquial Arabic of Egypt"، وقد" عُنِيَ فيهِ بجمعِ اللغةِ العربيةِ الشائعةِ في القطرِ المصريّ كتابةً وتَكَلُّماً، ورتبها على حروفِ المعجمِ، وفسَّرَها باللغةِ الإنكليزيةِ تفسيراً واصطلاحيّاً؛ أيْ أنه جمع قاموساً للغةِ الشائعةِ في القطرِ المصريّ الآن، وترجمه إلى اللغةِ الإنكليزية...، ثمَّ ألحقهُ الآنَ بقاموسٍ آخَرَ، فَسَّرَ فيه الكلماتِ الإنكليزيةَ المتداولةَ بينَ أبناءِ تلك اللغةِ بكلماتٍ عربيةٍ مِمّا هو متداوَلٌ في القطرِ المصريّ بكلماتٍ فصيحةٍ، وكلماتٍ عاميَّةٍ"[23].

ومما يجيءُ في هذا السياقِ الحيويّ دَعوةُ جماعةٍ من علماءِ الأمةِ ومفكّريها إلى جمعٍ جديدٍ لِلُّغةِ العربيةِ من أفواهِ المعاصرينَ في مختلِفِ بيئاتهم وأعمالِهم، أو عُنوا بجمعِها والتصنيفِ فيها، على النحو الذي نلقاهُ مثلاً عند الأستاذ أحمد تيمور باشا(1871-1930م) الذي وَضَعَ في العامياتِ كتبَ» الأمثال العامية»، و» الكنايات العامية»، و» المعجم الكبير»، وَعُنِيَ فيها بألفاظِ المصريين وتراكيبهم وأمثالهم وكناياتهم أمثلةً دالةً على هذا الاتجاه، وعند أخيهِ الأستاذ محمود تيمور(1894-1973م)- عضو مجمع اللغة العربية في مصر- الذي حذا حذوه في الاهتمامِ بألفاظ الحضارة الحديثة، وكثيرةٌ هي المباحثُ التي نَشَرَها في هذا السياق، وختَمَها بألفاظِ الحضارةِ وكلمات الحياة العامة، ومن هذه المباحث: «لغة المجتمع»، و«سلطان اللغة العربية»، و «مواليد جديدة في لغة الحياة العامة»، و» ألفاظ الحضارة»، و» كلمات طيبة»، ونشر بعضاً منها في كتابه» مشكلات اللغة العربية»[24].

ومما يمكن تكييفُهُ، والاستفادةُ منه في هذا السياقِ» قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية» للدكتور أحمد أمين، وقد بدأ اهتمامُهُ بهذا

الجانبِ الاجتماعيّ اللغويّ في سنة 1938م، عندما بدأ في مجلةِ الإذاعةِ المِصريةِ بكتابةِ» سلسلةِ مقالاتٍ في العاداتِ والتقاليدِ المصريةِ بعنوان: دائرة المعارف المصرية»، رتَّبها بحسب حروف الهجاء[25].

ووجدنا مجمعَ اللغةِ العربيةِ في القاهرةِ بناءً على اقتراحِ الأستاذ أحمد لطفي السيد(1872 - 1963م-» بجمعِ المصطلحاتِ الفنيةِ التي يستخدمها العمال في مصانعهم والتجار في متاجرهم وأسواقهم والزراع في مزارعهم، حتى إذا اجتمعت له طائفةٌ صالحةٌ من هذه المصطلحات نَظَرَ في وضعها في معجمه بعد صياغتها وَفْقَ الأوزان العربية»- يؤلّفُ» لجنةَ ألفاظ الحضارة»؛ لدراسة الكلمات التي تجري في الحياة العامة، وأدخلَ في معجماتهِ اللغوية من ألفاظ الحياة العامة ما شاع استعماله في طوائف المجتمع كالحدادين والنجارين والبنائين وغيرهم من أرباب الحرف والصناعات، ونشر في عام 1980م معجم» ألفاظ الحضارة الحديثة ومصطلحات الفنون»، وألحق في كتابهِ» في أصول اللغة» طائفةً من الألفاظ والأساليب العصرية[26]، كما نشر الأستاذان محمد شوقي أمين ومصطفى حجازي ما أجازته» لجنة الأصول»، و» لجنة الألفاظ والأساليب» من الكلمات والتراكيب العصرية في كتابٍ يحمل عنوان» كتاب الألفاظ والأساليب».

ومما يدخل في هذا المجالِ الحيويّ في دراسةِ لغةِ المجتمعِ العربيّ المعاصر مشروع» المعجم العربي المُوَحّد لألفاظ الحياة العامة» الذي تبنّاهُ مجلسُ اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية، فاتخذَ في 30/ 3/ 1997م القرار رقم(6) الذي نصَّ على أنْ يُهَيِّئَ كلُّ مجمعٍ لغويٍّ عربيٍّ» مشروعَ معجمٍ لألفاظِ الحضارةِ المتداولةِ في بلده، مع تعريفٍ واضحٍ لكلِّ لفظٍ، وأنْ يُعنى بضبطِ الألفاظ، مع ترتيبها ترتيباً هجائيّاً، ويقدم مشروعُ المعجمِ إلى إدارة الاتحاد في القاهرة»[27].

وفي ندوة " المعجم العربي" التي عُقدت في دمشق الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني 2001م، صدرت توصيةٌ بإعدادِ» المعجم العربي الحديث الشامل»، ونُصَّ في خُطةِ إعدادِهِ على» استيعاب ما جدّ من الألفاظ الحضارية واسعة الانتشار....- وأن- يُمَيَّزلدى بيان معاني اللفظ بين المعاني الحقيقية والمعاني المجازية....- وأنه- ينبغي أن يحتوي المعجم الحديث ما استحدثته مجامع اللغة العربية والمؤسسات المعنية باللغة العربية من مفردات ومصطلحات، وما جرى على أقلامِ كبارِ الكتّابِ والمؤلفينَ من ألفاظٍ ومصطلحاتٍ مستحدثةٍ».

وكذلك كانت التوصيةُ «بتأليف معجمٍ لألفاظِ الحضارة التي تَرِدُ في المصادرِ القديمةِ الأدبيةِ والتاريخيةِ وغيرِهما، يُضافُ إليها ما استُحدِثَ في العصور الحديثة من ألفاظٍ وتراكيبَ وما يتصل بالحياةِ العامةِ من الألفاظِ الفصيحةِ أو ما يستخدمُهُ العامةُ مع بيان اللفظ الفصيح الذي يقابله وما شاع استعماله من التراكيب السياقية، وصولاً إلى وضع معجمٍ موحَّدٍ لألفاظِ الحضارةِ والحياةِ العامةِ[28] تتعاونُ مجامعُ الأقطارِ العربيةِ ومؤسساتُها اللغويةُ في وضعه»[29].

وكان مجمع اللغة العربية الأردني سَبّاقاً في إنجازِ» معجم ألفاظ الحياة العامة في الأردن"، وهو في مجالِهِ يمكنُ أنْ يُشَكِّلَ أساساً يُعتمَدُ عليهِ في إنجاز" المعجم الشامل لألفاظ الحياة العامة في الوطن العربي"[30].

***** الجانب المعجمي:**

وسنقف في هذا السياقِ عند أهمّ جوانبِ العملِ المعجميّ الحديثِ التي تُشَكّلُ بإضافاتها علاماتٍ بارزةً في مجالِ رفدِ المعجمِ العربيّ بكلّ إفرازاتِ العربيةِ الفصيحةِ دونَ تمييزٍ زمنيٍّ أو مكانيٍّ، وذلك على النحو التالي:

1 - صناعةُ المعجمات اللغوية العامة:

وتُشكِّلُ صناعةُ المعجماتِ الحديثةِ رافداً مُهِمّاً في تغذيةِ معجمِ اللغةِ العربيةِ التاريخي، وخاصةً المعجماتِ التي قَصَدَ أصحابُها من صُنْعِها إضافَةَ جديدٍ يرفُدُ متنَ المعجماتِ القديمةِ.

إنَّ اطّلاعاً متفحِّصاً فيما صدرَ من معجماتٍ حديثةٍ ومعاصرةٍ تكشفُ عن مجموعةٍ غنيةٍ من الرَّوافدِ التي- بلا ريب- تصبُّ في تحقيقِ أهدافِ العاملينَ في هذا المعجم، وهي على النحوِ التالي:

- تسجيل كثيرٍ من صُنّاعِ المعجماتِ الحديثةِ لمفرداتٍ وتراكيبَ جديدةٍ لم تُعْنَ المُعجماتُ العربيةُ التقليديةُ بتسجيلِها، كالمُوَلَّدةِ أو الدخيلة قديمةً كانتْ أم محدثةً أم معاصرةً، وبعض الألفاظ العاميةِ، والمعاني المسيحيةِ أيضاً.

وَتَجَلّى هذا الاتجاهُ- بْدايةً- في كثيرٍ من المعجماتِ اللبنانيةِ، كما في معجمي» محيط المحيط» الذي ظهر في(1867 - 1870م)، ومختصره» قطر المحيط» الذّي ظهر في عام 1871م، وكلاهما للمعلّم بطرس بولس البستانّي(1819 - 1883م)، معجمه» أقرب الموارد في فُصَحِ العربيةِ والشوارد» لسعيد عبد الله الشرتوني(-1849 1912م) الذي ظهر في(1889 - 1893م)، ومعجم» البستان»، ومختصره» فاكهة البستان» للشيخعبد الله البستاني(-1854 1930م)، و»المُنْجِد في اللغة» للأب لويس المعلوف(1867 - 1946م)، وصدرت طبعته الأولى في عام 1908م، وقد تولى تصحيحَ هذا المعجمِ وتنقيحَهُ بعد صدورِهِ مجموعةٌ من الباحثينَ في مجالاتٍ متنوعةٍ، وفي عام 1956م ضمَّ إليهِ الأب فرديناند توتل اليسوعي معجمه» المنجد في الأعلام»؛ ليصدر بعد ذلك بعنوان:» المنْجِد في اللغةِ والأعلام».

وامتدَّ هذا الاتجاهُ ليشملَ معجماتٍ حديثةً ومعاصرةً أخرى، لكنها توزَّعت عن إثباتِ الألفاظِ العامية، وكذلكَ كانَ له أثرُهُ في قراراتِ مجامعِ اللغةِ العربيةِ في تنميةِ اللغةِ العربيةِ الفصيحةِ، وأعمالِها المعجمية، إذ وجدنا إقرارَها لـ:

*** **إكمال مواد اللغة العربية**، والاعتراف بأوضاع المحدثين الموافقة لأقيسةِ اللغة، وتجلّى هذا الأثرُ واضحاً في قرارات مجمع اللغة العربية في القاهرة، وتطبيقاتهِ في وضعِ الألفاظِ الحضاريةِ والمصطلحات، وأعمالهِ المعجمية، وكان من هذهِ القراراتِ: «

1 - فتح باب الوضعِ للمُحْدَثينَ بوسائلهِ المعروفةِ من اشتقاقٍ وتجوزٍ وارتجال.

2 - إطلاق القياسِ؛ ليشملَ ما قيسَ من قبلُ، وما لم يُقَسْ.

3 - تحرير السَّماع من قيودِ الزمانِ والمكانِ؛ ليشملَ ما يُسمَع اليومَ من طوائفِ المجتمعِ، كالحدّادينَ والنجّارينَ والبَنّائينَ، وغيرِهم من أربابِ الحِرَفِ والصناعات.

4 - الاعتداد بالألفاظِ المولَّدةِ، وتسويتُها بالألفاظِ المأثورةِ عن القدماء»[31].

*** مَدّ فترة الاحتجاج للغة، وتسجيل مكوناتها مع النص على ما أصابها من تغيير في مختلفِ الأزمنة والأماكن، وتجلّى هذا الأمرُ تطبيقاً في أعمال مجامع اللغةِ العربيةِ، ولاسيما مجمع اللغةِ العربيةِ في القاهرةِ في معجماتهِ « المعجمِ الكبير» و «المعجمِ الوسيط» و» المعجم الوجيز» التي أعدَّها مجمعُ اللغةِ العربيةِ في القاهرة.

تقول لجنةُ إعدادِ المعجمِ الوسيط: «إنَّ وضعَ هذا المعجمِ كانَ عملاً لابدَّ منه؛ لأنَّ المعاجمَ الأخرى، سواءٌ منها القديم والحديث، قد وقفت

باللغةِ عند حدودٍ معينةٍ منن المكانِ والزمانِ لا تتعدّاها؛ فالحدودُ المكانيةُ شبهُ جزيرةِ العرب، والحدودُ الزمانيةُ آخِرُ المائةِ الثانيةِ من الهجرةِ لعربِ الأمصار، وآخر المائةِ الرابعةِ لأعرابِ البوادي.

ومعظمُ هذهِ المعاجمِ قد تَصَوَّنت عن إثباتِ ما وضَعَ المُوَلَّدونَ والمحْدَثونَ في الأقطارِ العربيةِ من الكلماتِ والمصطلحاتِ والتراكيب، حتّى قَرَّ في نفوسِ الدارسينَ أنَّ اللغةَ قد كملت في عهدِ الروايةِ، واستقرت في بطونِ هذه المعاجم»[32].

وبناءً على هذا الاجتهادِ فهو- كما يقول د. إبراهيم مدكور في تصديره لطبعته الأولى:- « مجددٌ معاصرٌ، يضع ألفاظ القرن العشرين إلى جانب ألفاظ الجاهلية وصدر الإسلام، ويهدم الحدودَ الزمانيةَ والمكانيةَ التي أقيمت خطأ بين عصور اللغة المختلفة، ويثبت أن في العربية وحدة تضم أطرافها، وحيوية تستوعب كل ما اتصل بها، وتصوغه في قالبها، فيه ألفاظ حديثة، ومصطلحات علمية، لم يرضَ المجمعُ الفرنسيُّ أنْ يُدخِلَها في معجمهِ إلا بعد مُضيِّ مائةِ سنةٍ تقريباً من نشرهِ، وفي الطبعةِ الرابعة»[33].

أقول: عَبَّرَ هذا المجمعُ والمجامعُ العربيةُ الأخرى في غيرِ سياقٍ عن هذه المضامينِ الرائدةِ التي ستسهم إسهاماً بَنّاءً في تسجيلِ ما يَجِدُّ في العربيةِ مِنْ ألفاظٍ وتراكيبَ ومعانٍ جديدةٍ في مختلِفِ مراحلِ حياتِها الممتدةِ قديماً ومعاصرةً ومستقبلاً؛ لأنها تعترفُ بقدرةِ العربيِّ على المحافظةِ على سلامةِ لغتِهِ في مختلِفِ الأزمنةِ والأماكنِ، وهي بهذا تَكسِرُ حواجزَ القدماءِ التي وقفت بالعربيةِ عند قيودِ الزمانِ والمكانِ والجنسِ، وَتَعْتَرِفُ- إلى جانبِ لغةِ العربِ القدماءِ المحتجِّ بلغتهم- بأوضاعِ المولَّدينَ والمُحْدَثينَ والمُعاصِرينَ واللاحِقينَ السليمةِ الموافقةِ لقوانينِ العربية الفصحى؛ وبذا تغدو اللغةُ العربيةُ الفصيحةُ كُلاً متصلَ الأجزاءِ.

وجدنا مجمعَ اللغة العربية في القاهرة يلتفتُ منذ نشأته إلى أهميةِ الأخذِ بالجانبِ التاريخيّ وأثرِهِ في تغير المعنى في العمل المعجمي العربي الحديث، وإنَّ أهمَّ ما يتميزُ بهِ معجمُهُ الكبيرُ هو مراعاتُهُ للناحيةِ التاريخيةِ في عرضِهِ لمفرداته، وإبراز علاقتها باللغات السامية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ الأمر الذي دعا الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد إلى القولِ بأنهُ يُغني عن المعجمِ التاريخي[34].

هذا وقد ذاعَ أثرُ هذا الفكرِ اللغويّ المستنيرِ في آراءِ علماءِ العربيةِ وكثيرٍ من أعمالِهم المعجميةِ وغيرِها، وذلك على النحوِ الذي نجدهُ مثلاً في معجم» المعجم» الذي وضعَهُ الشيخُ عبد الله العلايلي بمعاونةِ بعضِ اللغويينَ والأدباءِ، وقد بدأ في نَشْرِهِ في عام 1954م، وأخرَجَ منهُ أربعةَ أجزاءٍ، وكان مقرراً أنْ يَخرجَ في أربعةٍ وعشرينَ مجلداً، وقد مَيَّزَ فيهِ المعنى الأصليَّ عن المعاني الفرعيةِ، وعُنِيَ قيهِ بالمولَّدِ والدخيلِ مميزاً القديمَ منهما عن الحديث؛ الأمرُ الذي يُسهمُ في التعرفِ على جوانب من التطور المعنوي، وليثبتَ قدرةَ العربيةِ وَطَواعيتَها لتنميةِ نَفسِها وجدناهُ- إضافةً إلى ما وضعتْهُ المجامعُ العربيةُ في هذا المجال- يعتمد على القياسِ والاشتقاقِ في وضعِ ألفاظٍ جديدةٍ.

وقبل أنْ يُنْجِزَ العلايلي مصنَّفَهُ « المعجم» نراهُ في عام 1963م يُصدِرُ الجزءَ الأولَ من معجمه» المَرجِع»[35]، وهو معجمٌ وسيطٌ سارَ فيهِ على غِرارِ سابقِهِ في العنايةِ بتعددِ معاني المفردة، وشرح المصطلحات في مختلِفِ المجالات العلمية والأدبية والفنية وغيرها، ووضَعَ المصطلحَ الإفرنجي بحرفهِ بجانبِ المصطلحِ العربي.

وهناك «المعجم العربي الأساسي» الذي أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم(ألكسو) في عام 1989م، وظهرت له طبعةٌ ثانيةٌ في عام

1991م، و «معجم الاستشهادات الموسع» لصديقنا الأستاذ الدكتور/ علي القاسمي، وظهرت طبعته الأولى في عام 2001م، والثانية في 2008م، وهو معجمٌ عامٌّ في موضوعاتٍ متنوعةٍ لا تقلُّ عن ألفٍ وخَمسمائةِ موضوعٍ، وجمعَ شواهدَهُ مما» يَسْتَشْهِدُ به الكُتّابُ والمتحدِّثونُ قديماً وحديثاً في كتاباتِهم وكلامِهم من آياتٍ قرآنيةٍ وأحاديثَ نبويةٍ، وَحِكَمٍ، وأمثالٍ وقواعدَ وأشعارٍ؛ دعماً لآرائهم وأفكارِهم».

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق هو اتجاهُ كثيرٍ من الباحثين ولاسيما طلبة الدراسات العليا في خواتيمِ دراساتِهم إلى صناعةِ معجماتٍ بالمفرداتِ أو التراكيبِ التي اختصتها دراساتهم بالبحث، ومن هذه الدراسات: « الصيغ الصرفية ودلالاتها في ديوان عبد الرحيم محمود- دراسة وصفية»، و «ألفاظ القتال ودلالاتها في العصر الجاهلي»، وقد نوقشتا- بإشرافنا- في جامعة الأزهر في غزة، وهناك أيضاً من الأعمال المعجمية المبوبة التي تصب في هذا المجال التي وضعها علماءُ مُحْدَثون، مثل: و «معجم ألفاظ الحياة الاجتماعية في دواوين شعراء المعلقات العشر» لندى عبد الرحمن يوسف[36]، و «معجم الشعراء الجاهليين» لعزيزة فوال بابي[37]، و «معجم ألفاظ القيم الأخلاقية وتطورها الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم» لنوال كريم زرزور»[38]، المعجم المفهرس لألفاظ الشعر الجاهلي ومعانيه(عربي- إنجليزي) لمؤلفه المختاركريم[39]...الخ.

2 - معجمات المصطلحات:

وشملت مختلِفَ صنوفِ المعرفةِ، وهي باللغةِ العربيةِ وغيرِها، وكان للطريقةِ التي ابتدعها رفاعةُ في العالم في كتابه «قلائد المفاخر» أثرُها في بناء اللبنات الأولى للمعجم الاصطلاحي العربي، وهي طريقةٌ تأثرَ بها غيرُ

عالمٍ، أو مترجِمٍ عربيٍّ في مؤلفاتهِ، وما زالت ديدنَ بعضِ الدارسينَ الذين نراهم يصنعونَ كشّافاً أو قاموساً يُلحقونَهُ في مؤلفاتهم ومترجماتهم، يشرحونَ فيه المصطلحاتِ الأجنبيةَ ومقابلاتِها العربيةَ الواردةَ فيها[40].

ومن معجمات المصطلحاتِ[41] نذكر «معجم اصطلاحات اللغات الخمس» الذي نُشِرَ في عصر محمد علي في مصر، و «قاموس القواميس الطبية» لفابر Fabre الذي ترجمته مدرسة الطب في عهد محمد علي إلى العربية، و" الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية" الذي قام بترتيبه الشيخ محمد عمر التونسي(ت. 1857م)، و «القاموس الطبّي» الذي نشره د.محمد رشدي البقلي في 1868م، و «معجم الطالب في المأنوس من متن اللغة العربية والاصطلاحات العلمية والعصرية» لجرجس همّام الشويري(1856 - 1921م)، وظهرت طبعته الأولى في لبنان في عام 1907م، و» معجم العلوم الطبية والطبيعية" للدكتور محمد شرف الذي أصدرته المطبعة الأميريةُ بمصر في عام 1926م، و «معجم أسماء النبات» للدكتور أحمد عيسى، وقد ظهر في مِصر في عام 1926م، و«معجم الحيوان»، و «المعجم الفلكي» وكلاهما لأمين المعلوف، وقد صدرا في مصر: الأول في 1932م، والآخَر في 1935م، و «معجم الألفاظ الزراعية بالفرنسيةِ والعربية» للأمير مصطفى الشهابي، وظهرت طبعتُهُ الأولى في دمشق في عام 1943م، والثانيةُ في مصرَ في عام 1957م، وله «معجم المصطلحات الجراحية بالإنكليزيةِ والفرنسيةِ والعربيةِ مع تعريفاتها بالعربية»، وظهر في دمشق في عام 1962م، و «معجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات» الذي صدر في دمشق في عام 1956 للأساتذة مرشد خاطر وأحمد حمدي الخياط ومحمد صلاح الدين الكواكبي، و معجم" الفريد في المصطلحات الحديثة" الذي أصدرهُ قسطنطين ثيودوري في سنة 1959م،

و» «الموسوعة في علوم الطبيعة» لإدوارد غالب الصادر في بيروت في عام 1965م، و» المعجم الطبي الموحد" الصادر عن اتحاد الأطباء العرب في عاصمةِ الرشيدِ بغداد في عام 1973م، و» المعجم الموحّد للمصطلحات العلمية في مراحل التعليم العام" الذي أصدرتهُ المنظمةُ العربيةُ للتربيةِ والثقافةِ والعلومِ بين الأعوامِ -1976 1978م، و» معجم المصطلحات العلمية والفنية والهندسية» للأستاذ أحمد شفيق الخطيب، و» معجم مصطلحات علم اللغة الحديث» الذي صدَرَ لمجموعةٍ من أعلام الدرسِ اللغوي في بيروت- مكتبة لبنان في عام 1981م؛ و» معجم مصطلحات في علم المعادن(إنجليزي- فرنسي- عربي)» الذي صَنَّفَهُ أ. د. حافظ شمس الدين عبد الوهاب، ونشره في عام 2003م، إضافةً إلى عشراتِ معجمات المصطلحاتِ التي أصدرتها مجامع اللغةِ العربيةِ في الوطن العربي ولاسيما مجمع اللغة العربية في القاهرة في مختلِفِ المجالاتِ العلميةِ والفكريةِ والتقنيةِ والأدبية.

نحو تنفيذ معجم اللغةِ العربية التاريخي

(4)

يتضحُ مما سبق كيفَ أنَّ علماءَ العربيةِ ومجامعَها قد قدَّموا كثيراً من المقدماتِ النظريةِ والعمليةِ التي ستسهمُ- بلا ريبٍ- في متنِ المعجم التاريخي، وسنعرضُ في هذا السياقِ إلى أهمِّ المعوقاتِ التي أعاقت إنجازَ هذا المعجَم، ومقترحاتنا في سبيل تيسير إنجازه.

معوقات:

إذا كان علماءُ اللغةِ العربية حتى الآن غيرَ قادرينَ على إعدادِ هذا المعجم؛ فهذا أمرٌ له أسبابُهُ التي منها:

- **إغراقُ العربية في القَدامة، وتعددُ بيئاتها**، مقارنةً بكثيرٍ من اللغاتِ التي انتهى أصحابها من إعدادِ معجمهم التاريخي؛ فأكثرُها لغاتٌ لا يقاسُ تاريخُها بتاريخ العربية الطويل، فهذه اللغةُ من أطولِ لغاتِ عمراً واستمراريةً، وتاريخُها الطويلُ زاخِرٌ بالإنجازات والتجاربِ المتنوعةِ في مختلِفِ المجالات؛ فاللغةُ العبريةُ مثلاً وقف بها الزمنُ دون نماء، ثم رأى القائمون على إنشاء الكيان الإسرائيلي إحياءَها، فأضافوا إليها ألفاظاً اقتبسوها من لغاتٍ أخرى كالإنجليزية والعربية.

إنَّ إيغالَ العربيةِ في القدامةِ يُلقي عبئاً ثقيلاً على الهيئةِ المكلَّفةِ بإعدادهِ؛ فهي بحاجةٍ في جوانبِ التأصيلِ بل التأثيلِ[42] إلى فقهاءَ في أسرةِ اللغاتِ العروبيةِ القديمةِ كالآرامية والأكّادية(أو البابلية- الآشورية) والحبشية والسومرية والكنعانية واليمنية، وما تفرّع منها من لغاتٍ أو لهجات، وبحاجةٍ أيضاً إلى علماءَ وخبراءَ في قراءةِ الخطوطِ القديمةِ المنقوشةِ على موادِّ الكتابةِ القديمةِ كأوراقِ البَرْدِيّ والجُلودِ وغيرِها، وتحقيقِ المخطوطات.

- **كثرةُ علاقات العربية بكثيرٍ من اللغات**؛ فقد كان لتاريخِ العربيةِ الطويلِ أثرهُ في تشابكِ علاقاتها مع غيرها من اللغات التي تنتمي إلى عائلاتٍ لغويةٍ متنوعة؛ الأمر الذي يُلقي على عَواتِقِ علمائِها[43] أعباءً كثيرةً ولاسيما التأريخ والمقارنةِ، وما إلى ذلك مما له علاقةٌ بشؤون الحياةِ العقليةِ والعلميةِ والحضاريةِ والاجتماعيةِ والفكريةِ.

يُشكِّلُ الدرسُ اللغويُّ التاريخيُّ والمقارَنُ أساساً رئيساً مُهِمّاً يُبنى عليهِ في مادةِ المعجمِ التاريخيّ وتتبعِها؛ فهو الذي يُعنى بالدراساتِ التأصيليةِ والتأثيليةِ، وإبرازِ العلاقات بين اللغةِ: مجالِ الدراسةِ وغيرِها من اللغاتِ التي اتصلت بها. فإذا ما ربطنا هذا الأساسَ بكثرةِ علاقاتِ العربيةِ بغيرِها

من اللغاتِ؛ لعواملِ الموقعِ والدينِ والعراقةِ التاريخيةِ وما إلى ذلك من العواملِ المؤثرة، وأضفنا إليهِ قلةَ عددِ المتخصصينَ بل ندرتَهم في مجالاتِ الدراساتِ المقارنةِ والتأصيليةِ في لغتنا العربيةِ في هذه الأيامِ أدركنا أَنَّ جانباً تأسيسيّاً مُهِمّاً في بناءِ هذا المعجمِ يحتاجُ إلى مزيدٍ من العنايةِ والإنفاقِ لجمعِ متخصصي هذا المجالِ، واستثمارِ قدراتهم لتحقيقِ الغاياتِ المرجوةِ في هذا المعجم.

إنَّ إغراقَ العربيةِ في القدامةِ، وتشابكَ علاقاتِها بغيرِها من اللغاتِ كاللغة اليونانية والفارسية والتركية واللغة اللاتينية وما تفرَّعَ منها، وبالجملةِ بغيرِها من مختلِفِ الأُسَرِ اللغويةِ قديماً وحديثاً[44] يحتاجُ إلى عددٍ كبيرٍ من المتخصصين في فقه اللغات والمقارنةِ بينها لتقديمِ دراساتهم التأصيليةِ وما يرتبط بها في هذا السياق؛ الأمرُ الذي قد يحتاجُ إلى جهدٍ ومالٍ قد يصعُبُ توفيره.

- **عدمُ عناية علماءِ العربية**- في الأغلبِ الأعمّ- إلا بتسجيلِ مستوىً معيَّنٍ من مستوياتِ العربيةِ، وهو المستوى الفصيح، وذلك في إطارِ قيودِ الزمنِ والبيئةِ والجنس، وهي أركانُ قضية الاحتجاج أو الاستشهاد؛ الأمرُ الذي يتطلَّبُ من علمائها جهوداً مُضنيةً في جمعِ مفرداتها وتراكيبها ودلالاتها في بيئاتها وأزمنتها المتنوعة؛ لكي يتمكنوا من الوفاءِ بمتطلبات متنِ المعجم التاريخيّ لها.

- تَفَرّقُ الجهودِ العربيةِ بتعددِ الدولِ العربيةِ، وعدم قدرةِ الجامعةِ العربيةِ على توحيدِ الجهود، وتوفيرِ النفقاتِ لإنجازِ المشاريعِ القومية، وبالجملةِ فإنَّ عدمَ توفُّرِ دعمِ الجانبِ الرسميّ لهذا المشروعِ القوميّ الكبير ماديّاً قد شَكَّلَ العائقَ الأكبرَ لتنفيذه.

وإذا كنّا قد قرأنا أنَّ سُمُوَّ الشيخِ سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة قد تعهَّدَ في ندوةِ اتحادِ المعاجمِ العربيةِ حول المعجم التاريخي للغة العربية التي عُقدت في الشارقة فيما بين 17 - 19 ديسمبر عام 2006م، برعايته للمعجم التاريخي، والإنفاق عليهِ في كلّ مراحلِهِ، وإقامةِ مَقرٍّ لهُ في القاهرةِ[45]، فمازالَ أصحابُ الشأنِ في أدوارِ التخطيطِ وحوسبةِ النصوصِ، وما زلنا نَأمَلُ أنْ يبدأوا خطْوةَ الفعلِ الأولى في إنجازِ هذا المعجم، وذلك بإخراجِ مُسْوَدَّةٍ لمتنِ إحدى مواده، وعرضِها على الدارسين وجماهير العربية للاطلاعِ عليها وإبداء ملحوظاتهم ونقودهم وتعديلاتهم وإضافاتهم عليها[46].

- **عدم التفرغ لإعدادِ المعجم**، وكما هو معروفٌ فإنَّ هذا المعجمَ يَحتاجُ في إعدادهِ إلى مجموعةٍ كبيرةٍ من اللغويين والمعجميين وعلماء اللغاتِ والخبراءِ والعلماء في مختلِفِ التخصصات الإنسانية والعلميةِ والتقنية وباحثينَ شباب، ويحتاجُ إلى تفرُّغِ بعضٍ منهم، واستشارةِ بعضٍ آخَرَ.

ونحنُ نرى أنَّ عدَمَ التفرغِ لإعدادِ هذا المعجمِ لَمِنْ أهمِّ الأسبابِ الرئيسيةِ في عدمِ الإنجاز، وأنَّ الاكتفاءَ بالمؤتمراتِ وورشات العمل والاجتماعاتِ الباحثةِ في سياقات هذا المعجمِ ليست كافية؛ الأمرُ الذي ندلل عليهِ بهذهِ الفترةِ الطويلةِ التي شُغِلَ فيها المَجْمَعيونَ وغيرُهم من علماءِ العربيةِ بقضيةِ معجم اللغة العربية التاريخي؛ ففي مصرَ وجدنا مجمعَ اللغةِ العربيةِ الملكيَّ منذ إنشائهِ في عام 1932م يُعنى بقضيةِ إعدادِ هذا المعجمِ، ولكنه- كما قرأنا فيما سبق- تَرَكَ هذا مهمةَ إنجازه إلى اتحادِ المجامعِ اللغويةِ العلميةِ العربية الذي ما يزال في طورِ تجهيزِ المدوناتِ اللغويةِ المحوسبةِ اللازمةِ لمتنه.

وإذا كان وصولُ العربِ إلى هذهِ الخطوةِ الأولى المهمةِ احتاجَ إلى نحوِ سبعينَ سنةً فمتى سينتهي العملُ من المشروعِ كله؛ خاصةً إذا ما عرفنا أنَّ الأممَ التي سبقتْنا قد أخذت نحو هذه العقودِ في إنجازِ معجمها اللغويِّ التاريخيِّ؟؛ فالألمان انتهوا من وضعِ معجمهم التاريخي للغتهم بعد أكثرَ من قرن، والإنجليز بدأوا العمل في معجم أكسفورد التاريخي في عام1859م، وأصدروا طبعته الأولى في عام1928 التي ألحقوها بطبعاتٍ عدةٍ؛ أي أنَّ إنجازه استغرق سبعينَ ربيعا.

وإذا ما وضعنا في الاعتبارِ أمامنا أحوالَ اللغةِ العربيةِ وخصائصَها مرونةً وتنميةً واشتقاقاً وتوليداً دلالياً وتاريخاً عريقاً وتنوعاً بيئياً ومشاركةً غيرَ عربيةٍ في إنتاجها وغيرَها، وقارنّاها باللغاتِ التي مَلكت المعجمَاتِ التاريخيةَ، ولكنها لا تأتي في مرتبة اللغةِ العربيةِ في القَدامةِ والعراقةِ والخصائصِ وسعةِ انتشارِها وضخامةِ تراثِها تساءلنا عن الفترةِ الزمنيةِ التي سيحتاجها العربُ للانتهاءِ من إعدادِ هذا المعجمِ الذي سيكون دليلاً وافياً على معالِمِ تقلّباتِ حيواتهم في جميعِ جنباتها.

ومع أنَّ اتحادَ المجامعِ اللغويةِ العلميةِ العربيةِ منذ عنايته بهذا المعجمِ التاريخي للغةِ العربيةِ قد شُغِلَ بنواحي التخطيطِ العمليةِ، وتشكيلِ هيئةِ المعجمِ التاريخيِّ، ومجلسِها العلمي الذي خرجَ بتوصياتٍ وتقسيم مراحل اللغةِ العربية لحوسبتها، وَكَلَّفَ المجامعَ اللغويةَ العربيةَ بطباعةِ المرحلةِ الأولى من متطلباتِ مدوناتِهِ اللغويةِ المحوسبةِ فإنه لَمّا يتمكنْ من إتمامِ إنجازها.

وإذا ما عرفنا أنَّ هناك مراحلَ تاليةً تحتاجُ إلى إدخالٍ محوسبٍ، واستحضَرْنا مدى ضخامةِ كميةَ المادةِ النصيةِ التي تمتلكها لغةُ الضاد، وما تحتاجهُ من إمكانياتٍ بشريةٍ وعلميةٍ وتقنيةٍ وماليةٍ لجمعِها وحوسبتِها؛

لإعدادِ المدوناتِ اللغويةِ اللازمةِ لإنتاجِ هذا المعجمِ أدركنا مدى البطءِ الذي يسيرُ فيهِ إعدادُ هذا المعجمِ، وإذا ما ربطنا هذا أيضاً بعدمِ الاستقرارِ الذي يسودُ أكثرَ الدولِ العربيةِ، **وعدمِ تشكيلِ لجانِ العملِ المتفرغةِ** من المشرفينَ من كبارِ العلماءِ المتخصصينَ في المعجمِ ومتطلباتِهِ اللغويةِ والمنهجية، ومحرري موادهِ من نهاءِ متخصصي الشبابِ الذين سيحملون عبءَ الجمعِ والتصنيفِ مِلْنا إلى القولِ بأنَّ التاريخَ الذي ستبدأُ فيهِ مرحلةُ العملِ التنفيذيِّ المنتجِ ما زلنا نتقدمُ نحوه بخطىً ثقيلةٍ جداً، وإنَّ هذا الخطوَ بل الحبوَ الثقيلَ أخشى إذا ما فقدنا- مع مُضيِّ الزَّمن- هذا التعهدَ الماليَّ السَّخِيَّ لأميرِ الشارقةِ أنْ يصابَ بالشلل, خاصةً أن إنجازَ هذا المعجمِ يحتاجُ إلى أموالٍ طائلةٍ لإنجازهِ لا تتمكنُ ميزانيةُ الاتحادِ لتغطيةِ أقلِّ القليلِ منها، وهي تتطلبُ مشاركةَ الحكوماتِ في تحملِ مسؤوليتها القوميةِ لإنجازِ هذا العملِ القومي.

آليات إعداد معجم اللغة العربية التاريخي:

نخلصُ من اطّلاعِنا على جهودِ علماءِ العربيةِ المحدثين ودراساتِهم ومؤتمراتِهم إلى أنَّ مشروعَ إعدادِ معجمِ اللغةِ العربيةِ التاريخيِّ قد أُتْخِمَ بالآراءِ والمقترحاتِ في ماهيةِ هذا المعجمِ، وكيفيةِ جمعِ مادتهِ، وآليةِ تصنيفها، وما إلى ذلك من أمورٍ منهجيةٍ تتصلُ بالمتنِ والمنهجِ والإعدادِ، وما إلى ذلكَ. وإذا كانت هذه الجهودُ المحمودةُ قد تُوِّجتْ بتشكيل» هيئةِ المعجم التاريخي للغةِ العربية» تحتَ مظلةِ اتحادِ المجامعِ اللغويةِ العلميةِ العربية، وتكفُّلِ سُمُوِّ الشيخِ سلطان بن محمد القاسمي بمصاريفِ إنجازِ هذا المشروعِ فليسَ معقولاً أنْ نبقى ندورُ في دوائرِ التكرارِ معرِّفينَ ومقترحينَ وحاثينَ ومستنجدينَ، مؤكدينَ مقولةَ العربيِّ كعبِ بنِ زهير (ت.26هـ) : (الخفيف)

ما أَرانا نَقولُ إلا رَجيعاً وَمُعاداً مِن قَولِنا مَكرورا

إنَّ علينا أنْ نُهَيِّئَ متطلباتِ إعدادِ العُدَّةِ لِخَطْوِ الخطواتِ الأولى في التنفيذ؟!.

قال إبراهيم طوقان(ت. 1941م):(الخفيف)

مَثَلُ القولِ لا يؤيِّدُه الفِعْ (م) لُ أزاهيرُ لا يفوحُ شذاها
وهو كالدَّوْحَةِ العقيمِ ظلالٌ واخضرارٌ ولا يُرجَّى جناها

وفي هذا السياقِ نودُّ أن نقفَ عند **أهم الأمور التي تُسهِّلُ إعدادَ هذا المعجم**، وذلك على النحو التالي:

1 - تجزئة العمل في المعجم التاريخي:

وكما سبقت الإشارةُ فإنَّ اللغةَ العربيةَ لغةٌ عريقةٌ ممتدةٌ في التاريخ، ولها بيئاتٌ متنوعةٌ، وذلكَ بخلافِ كثيرٍ من اللغات، وإنَّ الهجومَ عليها مرةً واحدةً؛ لغرضِ صناعةِ معجمها التاريخيّ أراهُ هجوماً لنْ تكتملَ أركانُ اكتمالِ إنجازِ انتصاره؛ فنحنُ بحاجةٍ إلى منهجيةٍ واضحةٍ نُطَبِّقُ رُسومَها على مَجالاتِ حَيواتِ العربِ؛ فنُعنى بمفرداتِ كلٍّ منها في معجماتٍ مُبَوَّبَةٍ يُراعي واضعوها مختلِفَ متطلباتِ إنجازِ المعجم التاريخي.

وللتجزئةِ في هذا السياقِ مجالاتٌ متنوعةٌ؛ ويمكنُ تقسيمُها إلى تجزئةٍ لغويةٍ، وأخرى إجرائيةٌ، وذلك على النحو التالي:

أولاً- التجزئةُ اللغوية:

وهي قائمةٌ على مجموعةٍ منَ المكَوِّناتِ أو المقوماتِ يمكننا عرضُها على النحو التالي:

***** تجزئةٌ قائمة على المراحل الزمنية:**

وفيها يُقَسَّمُ العَمَلُ في هذا المعجمِ إلى مراحلَ بحسب العصر؛ فنصنع أولاً معجم لغةِ العصر الجاهلي، وَنُرَتّبُ عليهِ معجمَ العصر الإسلامي فالعصر الأموي فالعباسي وهكذا حتى نصلَ إلى زمنِ الانتهاءِ منه، ويستمر العمل بعده إضافةً وتعديلاً إلى أنْ يرثَ الله الأرض وَمَنْ عليها.

ولعلَّ ما يؤيدُ ما نذهبُ إليهِ في هذا السياقِ هو أنَّ فيشر رائد اللغويينَ في إعدادِ هذا المعجمِ وقف فيهِ عند القرنِ الثالثِ الهجري، وإننا نرى في هذا الوقوفِ دلالةً على ضرورةِ تجزئةِ العملِ الذي يتطلبُ ذوي الاختصاصِ في المجالاتِ والمراحلِ المتنوعة.

***** تجزئةٌ قائمةٌ على المضمون:**

ومما يفيدُ في هذا السياقِ تجزئةُ الجمعِ وَفْقَ الموضوعِ أو المضمونِ أو المجال؛ فتوضع معاً الألفاظُ والتراكيبُ المستعملةُ في مجالاتِ الموضوعِ الواحدِ- كالمدحِ أو الهجاءِ أو الوصفِ أو الرثاءِ أو الحربِ أو السلام أو التحالفِ أو التصوف أو الزهدِ أو الارتحالِ أو الطيرِ أو الحيوانِ وهلمَّ جراً.

وننصُّ في هذا السياقِ على ضرورةِ مراعاةِ ترتيب الناحيةِ الزمنيةِ في جمعِ لغةِ أيِّ مضمون؛ الأمرُ الذي يُفيدُ في الاطّلاعِ على السياقاتِ المتنوعةِ لِلَّفْظِ أو التركيب، وإبرازِ الفروقِ الدقيقةِ بين معانيه، وما اعتراهُ من تغييرٍ في مسيرته عبر العصورِ والأماكن.

ومما يدخلُ في هذا السياقِ التجزئةُ بحسب التخصص المعرفي، وَنَعْني بالمَعرِفِيِّ كلَّ ما في الحياةِ من مجالاتِ الأدبِ والنقدِ والعلمِ والفنِّ والتقنيات والسياسة والحضارة والصحة والقضاء، وما إلى ذلك.

ونحن نرى ضرورةَ أن يكون لكلِّ جانبٍ معرفيٍّ معجمٌ تاريخيٌّ خاصٌّ بهِ، يَعرضُ هذا المعجمُ لمعنى اللفظِ أو المصطلحِ، ونطقِهِ العربيِّ وما دخله من

تغييرٍ نطقيّ أو صرفيّ أو دلاليّ، مستعيناً في هذا السياقِ بالتشكيلِ والكتابةِ الصوتية، وَيُعْنى أيضاً بذِكْرِ الكلماتِ العربيةِ المستعملةِ أو المقترحةِ في الأقطارِ العربيةِ من المحيطِ إلى الخليج.

وَيُعنى بتعددِ لغةِ المصطلَح؛ فقد يكونُ المصطلحُ الدخيلُ مستورداً من أكثرِ من لغة، وهنا يتوجبُ على هذا المعجمِ أنْ يعرِضَ لمعاني هذهِ المصطلحاتِ، ويشيرَ لأصولِها وبيئاتِ استعمالِها، وبيانِ ما بينها من فروقٍ دقيقةٍ بينها، سواءٌ في المعنى أو النطقِ أو البنية، وهل كانَ لاختلافِ المصدرِ أثرٌ في هذه الفروق.

ومن الأمثلةِ في هذا السياق مصطلح الفيلولوجيا» Philology " الذي أَخَذَ أكثرَ من مفهومٍ في بيئاتِ الدرسِ اللغويّ العربي والغربيّ، ومصطلح» Morphology " الذي يُستعملُ في الدلالةِ على البنْيَةِ في علم الجغرافيا؛ فيقال مورفولوجية المحيط مثلاً، وفي علم الصرفِ مجالِ اهتمامنا اللغويّ وجدنا من يقولُ معرّباً: علم المورفولوجي أو علم المورفولوجيا، ومن يترجمه إلى علم الصرفِ أو علم البنيةِ أو علم الصيغةِ أو الصيغ.

وغنيٌّ عن البيانِ أنَّ هذهِ المعجماتِ المعْرِفيةِ سَتُبْرِزُ أدوارَ العربِ في مجالاتِ العطاءِ الإنساني، ولاسيما في عصورِ ازدهارهم العلميّ والفكريّ والحضاري، وستسهمُ في استخلاصِ قواعد التعريب أو الاقتراضِ عند العربِ في مختلِفِ عصورهم وبيئاتهم.

***** تجزئةٌ قائمة على البيئة:**

وكما هو معروفٌ فاللغةُ- أيةُ لغةٍ- تعبيرٌ عن إفرازاتِ بيئتها، ولمّا كانت العربيةُ متعددةَ الدولِ والبيئاتِ فليسَ من شكٍّ في أنَّنا سنجدُ فيها ألفاظاً وتراكيبَ لبيئةٍ ما لا تُستعمَلُ في بيئاتِ العربيةِ الأخرى، وإنَّ تسجيلَ هذهِ الإفرازاتِ سَيُسْهِمُ- بلا ريبٍ- في توحيدِ اللسانِ العربي، أو على الأقلِّ تعريفِ

الفردِ بالمستعملِ من العربيةِ في غيرِ بيئتهِ الخاصة؛ الأمرُ الذي سَيُسَهّلُ من طرقِ التواصلِ والتفاهمِ بين أبناءِ العَربية، وبالطبعِ سَيُسْهِمُ في إكمالِ جانبٍ مهمٍّ في متنِ معجمِ اللغةِ العربيةِ التاريخيّ.

***** تجزئةٌ وَفْقَ المستوياتِ أو المجالاتِ اللغوية:**

اللغة- كما هو معروفٌ- مستوياتٌ؛ ففيها اللهجةُ أو العاميةُ أو ألفاظُ الحياةِ العامة، والفصيحةُ أو الفصحى، وفي كلٍّ مجالاتٌ يُصنفها علماءُ اللغة؛ فهناكَ مجالاتُ الدَّخيلِ والمُعَرَّبِ، والمجازِ والحقيقة، والتوليد الدلالي، والمنحوتات، والمُرَكَّبات، والمترادف، والأضداد، والمشترك اللفظي، والعام والخاصّ وما إلى ذلك.

إنَّ تجزئةَ اللغةِ بحسبِ المستوياتِ أو المجالاتِ سيكونُ مفيداً لواضعي المعجم التاريخيّ لأيةِ لغة، وَسَيُنْتِجُ معجماتٍ تاريخيةً خاصةً بكلّ مستوىً أو مجالٍ، يكونُ من أهمّ خصائصِها عرضُ مادةِ متونها بحسبِ المراحلِ التاريخية، وَجَمْعُ كلّ ما في المعجماتِ والكتبِ السابقةِ، وإضافةُ ما يَجِدُّ في العصورِ اللاحقة.

ثانياً- التجزئة الإجرائية:

وتتمثَّلُ في إدارةِ إجراءاتِ العملِ في الجمعِ والإعدادِ، وهي قائمةٌ على توزيع العمل، وهذه التجزئةُ قائمةٌ على تفاعلِ هيئةِ إعدادِ المعجمِ مع الجمهورِ في عملية جمعِ مادةِ متنِ المُعْجَمِ التّاريخِيّ وإعدادِهِ؛ الأمرُ الذي يتطلبُ توجيهَ مكاتباتٍ إلى الجامعاتِ العربيةِ والمجامعِ والجمعياتِ اللغويةِ العربيةِ ومعاهدِ الاستشراقِ، وكلّ مَنْ له صلةٌ بالموضوعِ، يُطلَبُ فيها إرسالُ ما تَمْلِكُهُ في هذا المجال، ولإنجاح هذهِ العملية يتوجَّبُ إنجازُ العملِ على هذا النحو:

- جمع كلّ ما كُتِبَ في مجالِ هذا المعجمِ من مباحثَ ومقترحاتٍ وأعمالٍ وخططٍ تَصُبُّ في عمليةِ إنجازِهِ.

- جمع النقوشِ والمخطوطاتِ والمنشورِ من الكتبِ والمباحثِ والرسائلِ والمعجمات ودواوين الشعر وما إلى ذلك من أعمالٍ تُشكِّلُ مصادرَ شواهدِ المعجم.

- جمع الأوضاع اللغوية الجديدة، وذلك بتوجيهِ المؤلفين والكُتّابِ والدّارسينَ إلى إعدادِ قوائمَ يذكرونَ فيها ألفاظَهم وتراكيبَهم الخاصةَ بهم، ويُقدِّمونَ فيها شروحاً وافيةً لها.

- جمع المصطلحات والألفاظِ الحضارية، وذلك بالالتماسِ من العلماء والخبراءِ إعدادَ قوائمَ بالمصطلحاتِ الخاصةِ بمجالاتهم العلميةِ التي وردت في مؤلفاتهم ودراساتهم، وبيانَ معانيها عندهم، ووضعَ مقابلاتِها الأجنبيةِ حالةَ كونها من لغةٍ أخرى، وذكْرِ ترجماتهم لها.

2 - طاقة العمل:

وتنقسم إلى طاقتين، وهما: الطاقة البشرية، والطاقة التقنية، ونعرض لهما على النحوِ التالي:

أولا- الطاقة البشرية:

وتتمثلُ في: طاقةِ الشيوخ، وهي طاقةُ الخبرةِ والحكمةِ التي سَيعوَّلُ عليها في وَضْعِ الخُطَطِ والتوجيهِ والمراجعةِ والإقرار؛ فهي السلطةُ العليا التي تمتلكُ الحقَّ في التشريعِ، والموافقةِ على ما يُقدَّمُ إليها أو رفضَهُ أو تعديلَه. وطاقةِ الشبابِ الخُبَراءِ: وهي طاقةُ الحركةِ والعملِ الدءوبِ المُنَقِّرِ في بطونِ الكتبِ والمكتباتِ، و«المُتَمَوْقِع» في شابكاتِ الحواسيب، وبالجملةِ فهي الطاقةُ التنفيذيةُ التي سَيُعَوَّلُ عليها في تنفيذِ كلّ مراحلِ إعدادِ المعجمِ: جمعاً، وتواصلاً جماهيرياً، وتحقيقاً، وترتيباً، وإعداداً، وَمُراجَعةً، وَتأليفاً، وَنشراً، وإعلاماً...الخ.

ثانياً- الطاقة التقنية:

وتتمثلُ في الحوسبةِ التي تُشَكِّلُ أعصابَ هذا المعجمِ في مراحِلِ جمعهِ وإعدادهِ وترتيبه، وحِفْظهِ، ومعاودتهِ إضافةً أو تعديلاً، ونشرِهِ، وفي هذا السياقِ سيكونُ من مهامّ هذه الطاقةِ إنجازُ ما يلي:

***** النشر المحوسب:**

وسيكون النشرُ في هذا السياق موزعاً على النحو التالي:

حوسبة المكتبة العربية:

وفي هذا السياق نرى ضرورةَ اتجاهِ هيئةِ إعدادِ المعجمِ نحو حوسبةِ مصنفاتِ الفكرِ العربيّ من كتبٍ ومجلاتٍ ومعجماتٍ ودواوينَ شعريةٍ وغيرِها عبرَ تاريخِ العربِ الطويل؛ بغيةَ توفيرِ المادةِ العلميةِ التي سَتُجْمَعُ منها مادةُ متنِ المجمع، وَتَيسيرِ عمليةِ الاطّلاعِ؛ الأمرُ الذي سَيزيدُ من فُرَصِ الاستفادةِ من مشاركاتِ جمهورِ القرّاءِ والعلماءِ في مجالِ الجمعِ والمناقشةِ والاقتراح، وسَيُيَسِّرُ عملياتِ البحثِ عن مفرداتِ اللغةِ وتراكيبِها وشواهدِها؛ فهناك من البرامجِ المفتّشةِ التي تَستقرِئُ المطلوبَ، وتُظهِرُهُ في مواقعهِ المتعددة، إضافةً إلى إحصاءِ مراتِ ورودِهِ.

ومن المفيدِ في هذا السياقِ أنْ نُشيرَ في هذا السياقِ إلى دعواتِ الدارسين إلى حوسبة المكتبة العربيةِ، أو أجزاء منها، كالدعوة إلى إنشاء بنوك المصطلحات، والمدونات الشعرية وغيرها، و» الذخيرة اللغوية» التي دعا إلى إنجازها، وَوَضَعَ خُطَطَها ومجالاتها الأستاذ الدكتور/ عبد الرحمن صالح رئيس المجمع الجزائري للغة العربية، وقد عرضه على المجلسِ التنفيذي للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في ديسمبر 1988م.

وتشكّلُ الذخيرةُ اللغوية مشروعاً ضخماً يُمْكِنُ أن يُشكّلَ المادةَ التي سيعتمدُ عليها مُعِدّو المعجم التاريخي للغة العربية؛ لأنها- لو تمَّ إنجازُها-

ستكونُ بمثابةِ حاويةٍ كبيرةٍ تجمعُ نصوصَ اللغة العربيةِ القديمة والحديثة منذ كان إلى الآن، ولكونها محوسبةً ستمكنُ من الحصول على المعلومةِ المطلوبةِ بسهولة؛ إضافةً إلى إمكانية الإحصاءِ والتصنيف بحسب الزمن أو البيئة أو المضمون، شأنها في ذلك شأنُ كلّ ما هو مُحوسبٍ من فكرٍ وعلومٍ وأدبٍ وما إلى ذلك[47].

ونشيرُ في هذا السياقِ أيضاً إلى وجودِ العديدِ من المنشوراتِ المحوسبةِ التي تُشكّلُ مواقعُها الإلكترونيةُ منابرَ مفتوحةً لنشرِ الكتبِ والدورياتِ والمعجماتِ ودواوين الشعروغيرها، وتصبُّ في خدمةِ إعدادِ المعجمِ اللغوي التاريخي؛ فهي تُمَكّنُ من النسخ منها، والتصرف في نوع خطها، دون حاجةٍ إلى إعادةِ طباعتها، وفيها آلية البحث والتفتيش عن المطلوب، وتبيانه بسرعةٍ مذهلة، ومنها:

موقع «المكتبة الشاملة»(http://shamela.ws/index.php/ca-tegories)، وهو موقعٌ متجددٌ دوماً يُمكّنُ من الاحتفاظ بنسخٍ محوسبةٍ منها، والاستفادة منها نقلاً ونسخاً واطّلاعاً، ويحتوي على آلافِ المصنفاتِ في مختلِفِ مجالاتِ المعرفةِ الإسلاميةِ والعربية من علومِ القرآن الكريم، والفقه ومذاهبه وأصوله، والعقيدة، والتفسير، والتجويد والقراءات، والحديث، والتخريج، والفِرَق، وعلوم الأدبِ والبلاغة ودواوين الشعر، وفقه اللغةِ والنحو والصرف والمعجمات ، والأنساب، والتاريخ، والسِّيَر، والتراجم والطبقات، والبلدان والجغرافيا، وغيرذلك.

وموقع «الموسوعة الشاملة»(http://www.islamport.com/)، وهوزاخرٌ بالكتب والبحوث والمعجماتِ الإسلامية والعربية، وهوبمحتوياته يكاد يشكّلُ صورةً مصغرةً لموقع المكتبة الشاملة. وفيه خمسةُ آلاف وثلاثة مائةِ كتاب في مجالات العقيدة والتفاسير والتخريج ومصطلح الحديث

ومتون الحديث والفقه ومذاهبه وأصوله، والأنساب والبلدان والتاريخ والأخلاق، وعلوم اللغة والمعجمات، وغيرها.

وموقع «**الموسوعة الإليكترونية الشاملة للقرآن الكريم (المصحف الجامع)**»(http://www.mosshaf.com/web/)، وهو موقعٌ متخصصٌ في علوم القرآن الكريم، ويحرصُ على تزويدِ المطّلِعِ عليهِ بالإصداراتِ المتلاحقةِ، وهو يتكون من ثلاثةَ عشرَ قسماً، هي: المصحف الجامع، ومعجم آيات القرآن، ومفردات ألفاظ القرآن، والتفسير، وبحث في القرآن، والقراءات العشر، ومصحف التجويد، وإعراب القرآن، والبحث الموضوعي في القرآن، ومكتبة القرآن، وترجمات معاني القرآن، ومعلومات متنوعة عن القرآن.

وموقع «**مركز ودود للفهارس وكتب التحقيق**»(http://wadod.net/)، وهو موقعٌ يمكّنُ المطَّلِعَ عليه من الاستفادة منه في الاحتفاظ بنسخ محوسبة من مصنفاتٍ ومقالاتٍ ودراساتٍ ومقالاتٍ في مجالاتٍ عدة، مثل: الخط العربي، والمعاجم، والشعر: ديوان العرب، والرسائل الجامعية، وفهارس المخطوطات، وفهارس الكتب، والتحقيق، والمجلات، ومنها: مجلة معهد المخطوطات العربية، ومجلة مجمع اللغة العربية- دمشق، ومجلة المجمع العلمي- مصر، ومجلة مجمع اللغة العربية- مصر، ومجلة آفاق الثقافة والتراث، ومجلة العرب، ومجلة المناهل، ومجلة الرسالة وغيرها.

وموقع «**الموسوعة العالمية للشعر العربي**»، وهو مدونةٌ شعريةٌ مقسمةٌ إلى أقسامٍ منفصلةٍ، يحتوي كلٌّ منها على كمٍّ كبيرٍ في مجاله، وهي على التوالي: قسم» الشعر العربيّ الفصيحِ» في مختلِفِ عصوره وأماكنه (http://www.adab.com/)، وقسم «الشعر العامي»(http://www.adab.com/folk/index.php) ، وقسم" أدباء العرب"(http://

(www.adab.com/literature/index.php)، وقسم" الشعر العالمي" (http://www.adab.com/world/index.php).

وموقع «**الباحث العربي/ قاموس عربي عربي**»(http://www. baheth.info/)، وهو جامعٌ لخمسةِ معجماتٍ، هي: الصحاح للجوهري، والعباب الزاخر للصاغاني، والقاموس المحيط، ولسان العرب، ومقاييس اللغة لابن فارس، وهويُمَكِّنُ الباحثَ فيهِ من العثورِ على المفردةِ التي يريدها ومعانيها في جميعِ مواضِعِ ورودها في هذه المعجمات في صفحةٍ واحدةٍ، مع الإشارةِ إلى الجذور التي وردت في إطارها، ودونَ حاجةٍ إلى تجريدٍ أو حَيْرَةٍ في معرفةِ أصلِ حرفِ العلة، وما إلى ذلك من متطلباتِ البحثِ في المعجماتِ المطبوعةِ ورقيّاً.

والموسوعة الشعرية الصادرة عن المجمع الثقافي(1997- 2003)، وقد حرصَ القائمون على إعدادها على جَمْعِ الشعرِ العربيّ في عصوره الممتدةِ منذ العصر الجاهليّ إلى العصر الحديث، إضافةً إلى تسجيلٍ صوتيٍّ لمجموعةٍ من بدائع الشعر العربي، وفي إصدارها الثالث مكتبةٌ أدبيةٌ ولغويةٌ تضمُّ(265) مائتين وخمسةً وستينَ كتابا لغويّاً وأدبيّاً من تراثنا العربي، وموجزٌ لعلم العروض، وعشرة معجمات، وهي: أساس البلاغة للزمخشري والصحاح للجوهري والمحكم والمحيط الأعظم لابن سيده والمحيط في اللغة للصاحب بن عباد وتاج العروس من جواهر القاموس للزَّبيدي وتهذيب اللغة للأزهري وجمهرة اللغة لابن دريد والعباب الزاخر واللباب الفاخر للصاغاني والعين للخليل ولسان العرب لابن منظور.

وهي بهذا الكمِّ الضخمِ من الإبداع والمعجماتِ والصوتيات والكتب، وما من قدراتٍ تمكِّنُ من البحثِ الذي يمكِّنُ من العثورِ على المطلوب من خلالِ كلمة واحدة أو أكثر، والإحصاءِ يمكنُ للدارسِ الاطلاع عليها من

خلال قرصٍ مدمجٍ واحدٍ أو ملفٍّ لا يتجاوز حجمه(238) مائتان وثمانٍ وثلاثون ميغا بايت.

وموسوعة الشعر العربي الصادرة عن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، وهي كالموسوعة السابقة يمكن الاحتفاظُ بها في قرصٍ مدمجٍ أو ملفٍّ واحد لا يخطى حجمه(698) ستمائة وثمانٍ وتسعين ميغا بايت. وهي تحتوي على ما أتيح لها جمعه من الشعر العربي في عصوره الممتدة من الجاهليّ إلى اليوم، وتسجيلاتٍ صوتيةٍ شعرية، وأربعة معجماتٍ، هي: تاج العروس من جواهر القاموس للزَّبيدي وجمهرة اللغة لابن دريد والصحاح للجوهري ولسان العرب لابن منظور، و(591) خمسة مائة وواحدٍ وتسعين كتاباً تراثياً في مجالات اللغة والأدب.

ويطولُ بنا الحديثُ إذا ما أردنا عَرْضَ هذهِ الإنجازاتِ المحوسبةِ التي أخذ أصحابُها الأخيارُ على عُتْقِهِمْ نشرَ المعرفةِ العربيةِ والإسلاميةِ في مختلِفِ صنوفِها، وهو عمَلٌ نراهُ أيضاً من اختصاصِ وزارات الثقافةِ والإعلامِ، والأوقافِ والشؤون الدينية، والتربيةِ والتعليم التي من أهمِّ واجباتها التعليم والتثقيف والتنوير، وضمان سلامة المنشور.

ونرى- في هذا السياق- أنَّ من واجباتِ هيئةِ المعجم التاريخي تعريفَ القارئِ العربيّ بهذهِ المواقعِ والملتقياتِ والمنتدياتِ التي وَضَعَتْ أمامها هدَفَ حوسبةِ الفكرِ العربيّ والإسلامي؛ الأمر الذي سيعودُ بالنفعِ والفائدةِ على عملِها في المعجمِ.

تجارب النشر:

وفي مجالاتِ الاستفادةِ من النشرِ المحوسبِ في إعدادِ هذا العملِ القوميّ الكبيرِ نَقترحُ- خطوةً أولى لإنجازِهِ على أسسٍ مدروسةٍ يَرضى عنها جمهورُ علماءِ العربيةِ في العملِ المعجميّ- وضعَ مثالٍ تطبيقيٍّ لمتنِ المعجم التاريخي،

من خلالِ دراسةِ مادةٍ أو مفردةٍ يُطبَّقُ عليها منهجُ تأليفهِ، وتُوزَّعُ على المجامع والمؤسسات المَعْنِيَّةِ بوصفِها تجاربَ؛ لدراستِها وإبداءِ ملاحظاتها عليها في مدةٍ محددةٍ، وبعد وُرودِ الدراساتِ والردودِ منها تَعْقِدُ الهيئةُ ورشةَ عملٍ للدراسةِ والمناقشة؛ لإقرارِ الصورة النهائيةِ التي سَيَجْري تطبيقُها في إعدادِ متنِ المعجمِ كلِّه.

ومن المفيدِ في زمنِ الحوسبةِ أنْ تُعْرِضَ هيئةُ هذا المعجمِ- في البدايةِ- عن طريقةِ النشرِ التقليديةِ المعتمدةِ على الكتابِ الوَرقِيِّ؛ فتَلجأَ في إظهارِ تَجاربِها في إعدادهِ إلى النشرِ المُحوسَب؛ فليست- في بدايةِ عهدِها بنشرِهِ- بحاجةٍ إلى طبعةٍ ورقيةٍ على النحوِ التقليديِّ المعهودِ.

ونرى- في هذا السياقِ- ضرورةَ التريُّثِ في إظهارِ طبعتهِ الورقيةِ؛ فلا تَخْرُجَنَّ للناسِ إلا بعدَ أخذِ نَشْرَتِهِ المُحَوْسَبَةِ مدةً كافيةً للعرضِ على الجمهورِ، **والاطّلاعِ** على ما وردَ عليها من نقودٍ ومقترحاتٍ وتصحيحاتٍ، **والأخذِ**- بعدَ المناقشةِ مع أصحابِها في حالةِ اللزومِ- بما هو مفيدٌ منها، **والتَّأكدِ** من تصحيحِ طبعتِهِ المُحَوْسَبَةِ من جميعِ جوانبِها شكلاً ومضموناً.

وعلى هذا فإنه في ظلِّ انتشارِ الحوسبةِ، وتنامي امتلاكِ مهاراتِ التعاملِ مع التقنيات الحديثة يَجِبُ أنْ يكونَ لهذا المعجمِ وغيرِهِ من المنشوراتِ الفكريةِ والعلميةِ والأدبيةِ نسختان: نسخةٌ ورقيةٌ، وأخرى محوسبةٌ قابلةٌ للتعديل.

3 - التواصل:

وهو نوعان: التواصل المؤسسي، والتواصل الجماهيري، وذلك على هذا النحو:

التواصل المؤسسي:

وهو خاصٌّ بتواصلِ هيئة المعجمِ التاريخي على المؤسسات العلميةِ

كمجامعِ اللغة العربية، والمجامع والجمعيات العلمية واللغوية، والمعاهد العلمية ولاسيما أقسام اللغة العربية؛ للاستفادةِ من خدماتها في عَمَلِ المعجم، وَعَرْضِ ما تُنْجِزُهُ في هذا السياقِ لمراجعتهِ، واقتراحِ ما ترى تعديلَهُ أو إضافتَهُ إليه.

التواصل الجماهيري:

ونرى في هذا السياقِ أنَّ الطرقَ التقليديةَ في التواصلِ والجمعِ والإعدادِ التي ما زال أكثرُها مسيطراً ستطيلُ في فترةِ إنجازِ هذا المعجمِ، وإنَّ اللجوءَ إلى الاستفادةِ من قدراتِ الحوسبةِ في عملياتِ جمعهِ واستفتاءاته وإعدادهِ وتصنيفهِ وما إلى ذلك سيكونُ هو الأجدى والأدقُّ والأسرعُ إنجازاً، والأجملُ شكلاً.

ونحثُّ في هذا السياقِ على ضرورةِ **تصميمِ منتدياتٍ أو مُلْتَقياتٍ أو مواقعَ إلكترونيةٍ** متعددةٍ ومتخصصةٍ في مختلِفِ مجالاتِ المعرفةِ والفكر؛ للتواصلِ الجماهيريِّ مع المهتمين بالموضوع من مؤسساتٍ وأفرادٍ، والرّدِّ على استفساراتهم ومناقشاتهم.

وَيُمْكِنُ الاستفادةُ من هذهِ المواقعِ الإلكترونيةِ في عمليةِ الحصولِ على المصنَّفاتِ النادرةِ، والمجلاتِ والدورياتِ والمصنَّفاتِ المحوسبةِ وما إلى ذلكَ من منشوراتٍ ورقيةٍ لحوسبتِها، وإنَّ الإعلانَ- في هذهِ المواقعِ- عن الحاجةِ إلى الاطّلاعِ على منشورٍ ما س» يأتيك بالأخبارِ مَن لم تزودِ» بأيةِ وسيلةٍ أخرى،

وَيَأتيكَ بِالأَخبارِ مَن لَم تَبِعْ لَهُ بَتاتاً، وَلَم تَضرِبْ لَهُ وَقْتَ مَوْعِدِ

ومما يؤكدُ ضرورةَ الحاجةِ إلى هذه المواقعِ والمُلتَقَياتِ المحوسبةِ أنَّ الانفجارَ المعرفيَّ والتقدمَ التقنيَّ والحضاريَّ، وتفرُّعَ التخصصات، وتعددَ المصادرِ الوافدة في هذهِ المجالات، وازديادَ إنتاجِ الباحثينَ والمفكرينَ في

الوطنِ العَربي، واختلافَ توجهاتِهم ومذاهبِهم الفكريةِ العلميةِ يُلْقي أعباءً ثَقيلةً عَلى كَواهِلِ المَجْمَعيينَ، وَتُفْقِدُهُمْ أَزِمَّةَ السَّيْطَرَةِ وَالتَّحَكُّم؛ الأمرُ الذي يُحْوِجُ إلى الاستعانةِ بعددٍ كبيرٍ من العلماءِ والخبراءِ، وإنَّ وجودَ خبيرٍ مجمعيٍّ أو خبيرَيْنِ في مجالٍ ما- في ظلِّ كثرةِ الجديدِ- لم تَعُدْ كافيةً أو مُجْدِيَةً؛ لذا فإنَّ اللجوءَ إلى جمهورِ العلماءِ والعارفينَ من ذَوي الاختصاصِ والخبرة هو الأجدى للشموليةِ والدقة، وإنَّ صَرْفَ المكافآتِ الماديةَ، والتشجيعَ المَعْنَويَّ لِمَنْ يَكثُرُ تعاونُهُ يجبُ أداؤُهُ وإعلانُه.

إنَّ الإكثارَ من هذهِ الملتقياتِ سَيُتيحُ لجمهورِ الخاصَّةِ والعامةِ المشاركةَ مُحادثةً أو مُراسَلَةً، وهذا سيكونُ مفيداً جِدّاً في إنجازِ المعجمِ التاريخيِّ وغيرِهِ من المعجمات؛ لأننا نرى أنَّ عهدَ الفرديةِ في إعدادِ المعجمِ بصفةٍ عامةٍ قد وَلّى.

ولَعلَّ من **أهمِّ فوائدِ هذهِ الملتقياتِ** أنها:

- **ستجعلُ** المعجمَ حَيّاً، متواصلاً في استقبالِ الجديدِ ومقترحاتِ التعديلِ والإضافةِ والنقد؛ فهو معجمٌ حيٌّ مُتَنامٍ بحسبِ مفهومِ المعجمِ التاريخيِّ بل المعجماتِ اللغويةِ العامةِ والمتخصصةِ بصفةٍ عامة.

- **سَتَعْرِضُ** ما تُعِدُّهُ هيئةُ المعجمِ للعرضِ على الجمهور.

- **سَتَتَلَقّى** إسهاماتِ الجمهور في جَمْعِ مادةَ المعجم، وردودَهُ وانتقاداتِهِ ومقترحاتِه.

- **سَتُمَكِّنُ** هيئةَ المعجمِ منَ التواصلِ بسرعةٍ وبسهولةٍ مع المجامع والمؤسسات المعنية بإعداد المعجمِ لعرضِ المنجَزِ عليها، والتنسيقِ بين آرائها.

وفي هذا المضمارِ ستقومُ هذهِ المواقعُ وغيرُها من قدراتِ شابكةِ البَرّاق(النت) بدورٍ أكثرَ نجاعةً في الجمعِ والترتيبِ والانتقاءِ والإعداد،

وبغية تنظيمِ العملِ، وتوحيدِ جهودِ المشاركين، والحصولِ على نتائجَ مفيدةٍ ومثْمِرةٍ من التواصلِ مع الجمهور نقترحُ وضعَ خططٍ مدروسةٍ يكون من أهمّ ما فيها:

أولاً- * إرشاداتٌ وتوجيهاتٌ:**

تَكونُ بمثابةِ خُطَطٍ تَنْظيميَّةٍ تُقَدِّمُها هيئةُ إعدادِ المعجمِ التاريخيّ؛ بغيةَ الاستفادةِ من مضامينها، ويكونُ من أهمّ بنودِها[48]:

- رسمُ طرقِ إجراءاتِ التواصلِ مع الجمهور.
- بيانُ المطلوب بوضوح.
- تبيانُ كيفيةِ عَرْضِ المشارِكينَ للإضافاتِ التي يرغبونَ في إضافتِها.
- تقديمُ تعريفاتٍ موجزةٍ واضحةٍ لبعضِ المصطلحاتِ اللغويةِ كالمولَّدِ والمُحْدَثِ والمعرَّبِ والدخيلِ والنحتِ والعامّي، وما إلى ذلك.

ثانياً-* قوائمُ هيئةِ المعجم:**

وفي هذا السياقِ ستقدمُ هيئةُ المعجمِ التاريخيّ مجموعةً من قوائمِ المفرداتِ والمصطلحاتِ مستقاةٍ من المعجماتِ العربيةِ وغيرِها لإطْلاعِ الجمهورِ عليها؛ ولإضافةِ ما يراهُ لازماً لها أو مناسباً فيها.

ونقترحُ في هذا السياق وضعَ قوائمَ أو مَساردَ تشتمل على ما يلي:

- مفرداتِ كلِّ جذرٍ، وأمامها المعانيَ المتوفرة لكلٍّ منها، بأسلوبٍ سلسٍ مختصر.
- الألفاظِ المولَّدةِ ومعانيها.
- الألفاظِ المُعَرَّبةِ وأصولِها.
- ألفاظ اللهجات العربية القديمة والحديثة.
- مصطلحاتِ كلِّ علمٍ على حِدةٍ.

- المصطلحات التي تتكررُ في أكثرَ من مجالٍ علميّ.
- ألفاظِ الحضارة، وأسماءِ الآلاتِ العصرية.

ألا هل بلَّغْتَ: اللهمَّ فاشهدْ

الهوامش:

1 - القاموس الأكبر: مجلة المقتطف، 1 يونيو(حزيران) 1897م= 1 محرم 1315هـ، م21/ ج6، ص 470.

2 - د. بِشْر فارس: معجم الأستاذ فيشر، مجلة المقتطف، 1 ديسمبر 1935م = 5 رمضان 1354هـ، م87/ ج5/ ص531

3 - محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، مطبعة دار المنار، ط1931،1م، ج1/ ص926.

4 - د.محمد شرف: مشروع المعجم العربي الواسع، محاضر الجلسات(د. 14)، ص42-34 حيث نصُّ المشروعِ ومناقشتُه. والدكتور شرف من الأعلام العرب الذين أسهموا في العمل المعجمي الحديث، ولاسيما في مجال معجم المصطلح العلمي.

5 - أطلقَ بعضُ المجمعيين أمثال د. طه حسين والشاعر علي الجارم على هذا المعجمِ اسمَ(المعجَمِ المُطَوَّل)، يُنظر ص40 من المرجع السابق.

6 - السابق: ص36.

7 - العلايلي، عبد الله: مقدمة لدرس لغة العرب وكيف نضع المعجم الجديد، المطبعة العصرية- الفجالة ط1/(د.ت)، ص -11 +114 د. أسعد علي: تهذيب المقدمة اللغوية، منشورات دار النعمان- لبنان ط1، 1968م، ص-269 272.

8 - يرجع حول رأيه في نشأة كلمات العربية وأصولها إلى: مقدمة لدرس لغة العرب، وكيف نضع المعجم الجديد، ص -122 156، وتهذيب المقدمة، ص -44 75.

9 - يرجع إلى نص البحث في مجلة المجمع: ج80/ ص -16 20.

10 - الهامش السابق.

11 - المعجم العربي نشأته وتطوره: دار مصر للطباعة- مكتبة مصر/ الفجالة، ط 2/

1968م، -765 766.

12 - محاضر الجلسات: د.7، 8، 9/ ص+49 محاضر الجلسات: د. 14/ ص40.

13 - المعجم العربي، ج2/ ص768.

14 - د. إبراهيم أنيس: معجم ألفاظ الأدب الجاهلي، مجلة المجمع: ج22/ ص ج- د.

15 - مجمع اللغة العربية: تقرير عن طريقة وضع المعجم اللغوي لألفاظ القرآن الكريم، محاضر الجلسات في الدورة العاشرة، ص 352.

16 - لابدَّ في هذا السياقِ من الإشارةِ إلى جهدِ المستشرقين في فهرسة الألفاظ القرآن الكريم والحديثِ النبوي الشريف، وهي مرتَّبةٌ بطريقةٍ بديعةٍ؛ فمعرفةُ الباحثِ بأيِّ لفظٍ من ألفاظ القرآن الكريم أو الحديثِ الشريفِ ستدلهُ على جميعِ آياتِها أو أحاديثِها التي وَردت فيها، ومن معجماتهم التي برزت في هذا السياق مصنَّف المستشرق الألماني فلوجل" نجوم الفرقان في أطراف القرآن" الذي أشار محمد فؤاد عبد الباقي إلى استفادته منه، و" المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي" الذي نشره المستشرق أ. ي. فنسنك في عام 1936م.

17 - الدراسات اللغوية الحديثة، ص -501 502.

18 -اتجاهات الفكر اللغوي، ص 204.

19 - يُنظر في السابِق دراسة في موقفِ علماءِ العربية المحدثين من هذهِ القضيةِ بعنوان: إحياء المفردات العربية القديمة، ص -204 211 .

20 - قاموس اليازجي: 1 ديسمبر كانون الأول 1913م= 3 محرم 1331هـ، مجلة المقتطف، م43/ ج6، ص 608.

21 - بَذَأَ الشيءَ بَذَأَهُ، احْتَقَرَهُ، وذَمَّهُ، جاء في لسان العرب:" بَذَأْتُ الرَّجلَ بَذْءاً: إذا رأَيْتُ منه حالاً كرِهْتُها.

وبَذَأَتْهُ عَيْني تَبْذَؤُهُ بَذاءً وبذاءة: ازْدَرَتْهُ واحْتَقَرَتْهُ، ولم تَقْبَله، ولم تُعْجِبْكَ مَرْآتُه. وبَذَأْتُهُ أَبْذَؤُهُ بَذْءاً: إذا ذَممْتُهُ. أَبو زيدٍ...، وبَذَأَ الشيءَ: ذَمَّه...البَذِيءُ: الفاحِشُ القَوْلِ، ورَجُلٌ بَذِيءٌ مِن قَوْمٍ أَبْذِياءَ، والبَذِيءُ: الفاحِشُ مِن الرِّجالِ، والأُنثى بَذِيئةٌ. وقد بَذُؤَ يَبْذُؤُ بذاءً وبَذاءة، وبعضهم يقول: بَذِئَ يَبْذَأُ بَذْءاً.»، ويبذأُه ويبذَؤُهُ بضمِّ الهمزةِ كلا الرسمين صحيح، فكتابتها على الألفِ صحيح باعتبارِ وقوعِها في الأصل متطرفةً

بعد فتحٍ(يبدَأُ)، وعلى الواوِ باعتبارِها الطارئِ، وهووقوعها متوسِّطة، والضمُّ يغلِبُ الفتحَ في رسمِ الهمزةِ حالةَ كونها مضمومةً بعدَ مفتوحٍ؛ أما(يبدُؤُهُ) الواردةُ في متنِ النصِّ المنقول فواضحٌ أنَّ كتابتَها على واوٍ يرجعُ لضمِّها، ووقوعِها بعدَ مضمومٍ أيضاً.

22 - قاموس اليازجي: ص -608 609.

23 - قاموسٌ جديد: 1 نوفمبر(تشرين ثانٍ) 1897م= 6 جمادى الثانية 1315هـ، مجلة المقتطف، م21/ ج11، ص -866 867.

24 - يُنظر في الحديث عن جهود هذين العالِمين الجليلين: اتجاهات الفكر اللغوي في مصر العربية: ص -127 +135 الدراسات اللغوية الحديثة: ص -451 +452 -461 462.

25 - ظهرت الطبعة الأولى لهذا القاموس في عام 1953م عن" مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر"، في القاهرة، ويُنظر فيه المقدمة.

26 - مجلة المجمع: ج6/ ص 17 + محاضر الجلسات: د. 7، 8، 9/ ص +283 كتاب في أصول اللغة، مجموعة القرارات التي أصدرها المجمع من د. -29 د. 34، أخرجها محمد خلف الله أحمد ومحمد شوقي أمين، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية 1969م، ج1/ ص 252-201.

27 - يُنظَر الرابط التالي في موقع مجمع اللغة العربية في المملكة الأردنية الهاشمية، http://www.majma.org.jo/majma/index.php/2008-12-21-12-19-28.html.

28 - أقترح في هذا السياق: أنْ يقومَ القائمون على إعداد هذا المعجمِ الشامل في اتحاد المجامع بإجراء استفتاءاتٍ لغويةٍ؛ لاختيارِ اللفظِ المرادِ إعمامُ استعمالهِ في الوطنِ العربي، على أنَّ الرغبةَ في إعمام لفظٍ ما لا أراها تمنع من ذِكْرِ مرادفاته؛ لأنَّ في ذِكْرِها وسيلةً إيضاحيةً أولاً، وتأريخاً لاستعمالِ اللغةِ في بلدٍ ما، ومن خلالِ المواقعِ المحوسبةِ التي سَتُعَدُّ لهذا العرضِ، وَيُعْلَنُ عنها للجماهيرِ العربيةِ في وسائل الإعلانِ والاتصال الجماهيري لن يكون إجراءُ هذهِ الاستفتاءاتِ صعباً في هذهِ الأيام، وكذلك الحالُ في الحصولِ على النتائجِ، وإذاعةِ اللفظِ أو التركيبِ الفائزِ فيها.

29 - يُنظَر الرابط التالي في موقع مجمع اللغة العربية في المملكة الأردنية الهاشمية،

http://www.majma.org.jo/majma/index.php/2009-02-10-09-36-00/233-m619.html.

30 - قامت بنشرهِ مكتبة لبنان- بيروت في عام 2006م، وخرجَ في ألفٍ وستمائةٍ وخمسَ عشرةَ صحيفةً.

31 - مجمع اللغة العربية(مصر): المعجم الوسيط، 1425هـ= 2004م، ط4، مقدمة الطبعة الأولى، ج1، مكتبة الشروق الدولية، ص26.

32 - السابق: ج1/ ص25.

33 - السابق: ج1/ ص 24.

34 - أ. د. ناصر الدين الأسد:" المعجمُ الكبيرُ للمجمع يُغْني عن المعجم التاريخي اللغوي"، مجلة مجمع اللغة العربيةِ- القاهرة، بحوث مؤتمر د. 72، العدد: 110، جمادى الأولى 1428هـ= 2007م، ص -105 114.

35 - صدر المعجمان عن دار المعجم العربي- بيروت.

36 - أصدرته مكتبة لبنان ناشرون في عام 1991م.

37 - أصدرته دار صادر للطباعة والنشر في عام 1998م.

38 - أصدرته مكتبة لبنان ناشرون في عام 2001م.

39 - أصدرته مكتبة لبنان ناشرون في عام 2010م.

40 - اتجاهات الفكر اللغوي في مصر العربية: ص +90 217، وَيُنظَر دراسةٌ وافيةٌ لمجموعةٍ من معجمات المصطلحات التي أُلِّفت منذ بداية العصر الحديث.

ص. -216 221.

41 - يُنظَر في السابق دراسةٌ وافيةٌ لمجموعةٍ من معجمات المصطلحات التي أُلِّفت منذ بداية العصر الحديث: ص -216 221.

42 - جاء في لسان العرب:" أثلة كل شيءٍ أصلُهُ.... والتأْثيل: التأْصيل. وتأْثيل المجد: بناؤه. وفي حديث أبي قتادة: إنه لأَوَّلُ مالٍ تَأَثَّلْتُه.... ومجدٌ مُؤَثَّل: قديم، منه، ومجد أثيل أَيضاً؛ قال امرؤ القيس:

ولكِنَّما أَسْعى لمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ وقد يُدْرِكُ المَجْدَ المؤثَّلَ أَمثالي"

ينظر مادة:(أ.ث.ل). واستعملت كلمةُ(التأثيل)في ترجمة مصطلح(الإيتيمولوجيا)

أحد علوم اللغة في الغرب:» Etymology «؛ فقيل:(علم التأثيل)، وهناك من يترجم هذا المصطلح إلى العربيةِ بـ(علم الاشتقاق) أو(علم تاريخ الألفاظ)، وهو عِلْمٌ يُعنى بردِّ الكلمات إلى أصولها الأولى سواء أكانت من اللغةِ ذاتها، أم من أصولٍ دخيلة، ومتابعة تغيراتها الصوتيةِ والبنيويةِ والدلالية عبر العصور، وهو أساسٌ طبيعيٌّ للدراستين التاريخيةِ والمقارنة؛ لذا فإنه يشكِّلُ ركيزةً أساسيةً من ركائزِ المعجم التاريخيّ للغةِ العربية الذي ينبني أساسه على التأثيل، خاصةً وأنَّ العربيةَ تفتقرُ إلى معجمٍ تأثيلي.

43 - العاتِقُ: ما بين المَنْكب والعُنُقِ، وهما عاتِقانِ والجمع عُتْق وعُتَّق وعواتِقُ.

44 - يُنظر في التأريخ والمقارنة بين اللغة العربية واللغات السامية، وما ارتبط بها من لغاتِ عائلاتٍ أخرى:

إسرائيل ولفنسون، أبو ذؤيب: تاريخ اللغات السامية، دار القلم- بيروت/ لبنان، ط1/ 1980م+ د. علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة- القاهرة، ط8، د.ت، وظهرت طبعته السابعة في 1393هـ= 1973م، وأطراه مجمع اللغة العربية(القاهرة) في عام 1945م، ص -6 +95 كارل بروكلمان: فقه اللغات السامية، ترجمه عن الألمانية د. رمضان عبد التواب، مطبوعات جامعة الرياض، 1397هـ= 1977م، ص -11 34.

45 - يُرجَع إلى الرابطين التاليين: http://www.aklaam.net/forum/showthread.php?t=9446 + http://www.thaqafa.org/Main/default....7-43276adc19a3

46 - جاء في الدعوةِ التي وصلتني من اتحاد المجامع- بوصفي عضواً في إدارةِ مجلسِهِ عن فلسطين- لحضور" الندوة التي سيقيمها الاتحادُ في المدة: 3/11/2009م، الموافق: 15/11/1430هـ بمقر الاتحاد المؤقت بمجمع القاهرة؛ الإشارة إلى أنَّ من جدول الأعمال تفعيلَ التوصية السابعة التي نصها:(يُقرر مجلس الاتحادِ وضعَ خطةٍ مفصَّلةٍ ودقيقةٍ لإنجاز" مشروع المعجم التاريخي للغة العربية، ويقوم بوضعها خبراءُ لغويون وحاسوبيون يُحدَّدُ فيها..."، وفي محضر اجتماع مجلس الاتحاد الدَّوري في المدة من -21 23/4/2009م تكرر النصُّ السابقُ(ص +11 17)، وفيه أكّدَ" الاتحادُ توصياتِهِ السابقةَ، وبخاصة ما يتعلق بالمصطلحاتِ العلميةِ وتعريبِها، وفق ما جاء

في المحضرِ السابق، وكذا جمع البحوث التي ألقيت في ندواتِ الاتحاد السابقة" ص 12+ 18.

47 - ينظر تحت عنوان:" من أخبار الذخيرة العربية أو الإنترنت العربي" دراسة كاملة للمشروع بتكليف من الأمين العام لجامعة الدول العربية، و" محضر الندوة الثانية لمشروع الذخيرة اللغوية العربية المنعقدة في جامعة الخرطوم وما تقرر فيها من توصيات"، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، السنة الأولى- العدد الثاني، ذو القعدة 1426هـ= ديسمبر 2005، ص -261 299.

48 - سبق التوضيحُ في دراسةٍ لنا بعنوان:" نحو مشاركةٍ جماهيريةٍ في جمعِ متن المعجم التاريخي للغةِ العربية"، مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة، د.(72)، العدد(110)- القسم الثاني، جمادى الأولى 1428هـ= مايو 2007م.

أهم المصادروالمراجع:

* أمين، أحمد:

قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ط1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1953م.

* بروكلمان، كارل:

فقه اللغات السامية، ترجمه عن الألمانية د. رمضان عبد التواب، مطبوعات جامعة الرياض، 1397هـ= 1977م.

* بكر، السيد يعقوب:

دراسات في فقه اللغة العربية، مكتبة لبنان، بيروت، 1969م.

* حسين، أحمد حامد:

اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية في عيده الذهبي"، مطابع دار الجمهورية- القاهرة: 1432هـ = 2011م.

* حلمي خليل،

- المُوَلَّد دراسة في نمو وتطور اللغة العربية بعد الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1/ 1976م.

- المولَّد دراسة في نمو وتطور اللغة العربية في العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب- الإسكندرية، ط1/ 1979م.

- الكلمة دراسة لغوية ومعجمية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1/1980م.

* رضا، محمد رشيد:

تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، مطبعة دار المنار، ط1/1931م.

* أبو سليمان، صادق عبد الله محمد مبارك،

- الدراسات اللغوية الحديثة في مصر في الفترة من 1932 إلى 1962م، رسالة ماجستير غير منشورة بإشراف المرحومين: أ. د. حلمي خليل، وأ. د. عبد المجيد أحمد عابدين، جامعة الإسكندرية، 1987م.

- اتجاهات الفكر اللغوي في مصر العربية منذ بداية العصر الحديث حتى ثلاثينيات القرن العشرين، رسالة دكتوراه غير منشورة بإشراف المرحوم: أ. د. عبد المجيد أحمد عابدين، جامعة الإسكندرية 1990م.

* العقيقي، نجيب:

المستشرقون، دار المعارف بمصر، ط4/ 1981م.

* العلايلي، عبد الله:

مقدمة لدرس لغة العرب وكيف نضع المعجم الجديد، المطبعة العصرية- الفجالة، ط1، (د.ت).

* علي، د. أسعد:

تهذيب المقدمة اللغوية، منشورات دار النعمان- لبنان، ط1، 1968م.

* عيسى ميخائيل سابا:

يعقوب صروف: نوابغ الفكر العربي(37)، مطابع دار المعارف(ج. م. ع)، ط2، 1980م.

* مجمع اللغة العربية(القاهرة):

- كتاب في أصول اللغة، مجموعة القرارات التي أصدرها المجمع من د. -29 د. 34، أخرجها محمد خلف الله أحمد ومحمد شوقي أمين، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، 1969م.

- معجم فيشر مقدمته ونموذجٌ منه، مطبعة الرسالة، 1950م.

* ابن مراد، د.إبراهيم:

دراسات في المعجم العربي، ط1، دار الغرب الإسلامي- بيروت/ لبنان، 1987م.

* نصار، د. حسين:

المعجم العربي نشأته وتطوره، دار مصر للطباعة- مكتبة مصر/ الفجالة، ط 2/ 1968م.

وافي، د. علي عبد الواحد:

فقه اللغة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة- القاهرة، ط8، د.ت، وظهرت طبعته السابعة في 1393هـ= 1973م، وأطراه مجمع اللغة العربية(القاهرة) في عام 1945م.

ولفنسون إسرائيل(أبو ذؤيب):

تاريخ اللغات السامية، دار القلم- بيروت/ لبنان، ط1/ 1980م.

* المعجمات:

- أساس البلاغة- تاج العروس- الصحاح- العين- القاموس المحيط- لسان العرب- المعجم الوسيط- المنجد في الأعلام.

* أمين، أحمد:

قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة, ط1، 1953م.

* دوزي، رينهارت:

تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلّقَ عليه: د. محمد سليم النعيمي، ونشرته وزارة الثقافة والإعلام- دار الرشيد للنشر- بغداد، 1980م.

- * :.Edward W. L

Arabic- English Lexicon, Offset conrogravure, Beirut- Leba-non, 1968.

رابعاً- مقالات وبحوث وتقارير:

* الأسد، ناصر الدين:

المعجمُ الكبيرُ للمجمع يُغْني عن المعجم التاريخي اللغوي، 2006م، مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة، د.(72)، العدد(110)- القسم الثاني، جمادى الأولى 1428هـ= مايو 2007م.

* أنيس، د. إبراهيم:

معجم ألفاظ الأدب الجاهلي، مجلة مجمع اللغة العربية- القاهرة، ج22.

* التبشراني، الخواجة جرجس بطرس:

في تفرع اللغات وتفرق البشر، المقتطف، السنة السادسة: آب 1881م.

* أبو سليمان، صادق عبد الله:

- المعجم التاريخي للعربية: ماهيتُهُ ودوافعُ تصنيفِهِ ومتطلباتُهُ وبذوره

التراثية، مجلة مجمع اللغة العربيةِ في القاهرة، د.(72)، العدد(109)- القسم الأول، جمادى الأولى 1428هـ= مايو 2007م.

- نحو مشاركةٍ جماهيريةٍ في جمعِ متن المعجم التاريخي للغةِ العربية، مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة، د.(72)، العدد(110)- القسم الثاني، جمادى الأولى 1428هـ= مايو 2007م.

* شرف، محمد:

مشروع المعجم العربي الواسع، محاضر الجلسات- مجمع اللغة العربية- القاهرة،(د. 14)

* صروف، يعقوب:

أصل اللغات ونموها، المقتطف، السنة الحادية عشرة، كانون الأول- ديسمبر- 1886م.

* علي، فؤاد حسنين:

أداة التعريف في اللغة العربية ، مجلة كلية الآداب- القاهرة، الجزء السابع.

* فارس، بشر:

معجم الأستاذ فِشر، المقتطف، م 87/ ج 5، 1 ديسمبر 1935م= 5 رمضان 1354هـ.

* مجلة المجمع الجزائري للغة العربية:

- من أخبار الذخيرة العربية أو الإنترنت العربي، دراسة كاملة للمشروع بتكليف من الأمين العام لجامعة الدول العربية، السنة الأولى- العدد الثاني، ذو القعدة 1426هـ= ديسمبر 2005م.

- محضر الندوة الثانية لمشروع الذخيرة اللغوية العربية المنعقدة في جامعة الخرطوم وما تقرر فيها من توصيات"، السنة الأولى- العدد الثاني، ذو القعدة 1426هـ= ديسمبر 2005م.

* مجلة المقتطف:

- العامية والفصيحة: عدد أبريل 1908م.

- قاموسٌ جديد: م21/ ج11، 1 نوفمبر(تشرين ثانٍ) 1897م = 6 جمادى الثانية 1315هـ.

- قاموس اليازجي: م43/ ج1، 1 ديسمبر كانون الأول 1913م = 3 محرم 1331هـ.

- القاموس الأكبر: م21/ ج 6، 1 يونيو(حزيران) 1897م = 1 محرم 1315هـ.

* مجمع اللغة العربية(القاهرة):

تقرير عن منهج العمل في المعجم الكبير: محاضر الجلسات، الدورة الرابعة عشرة.

* هيكل، محمد حسين:

كلمة وزير المعارف د. محمد حسين هيكل، محاضر الجلسات، مجمع اللغة العربية- القاهرة، (د. 7، 8، 9).

*** روابط إلكترونية:**

http://www.aklaam.net/forum/showthread.php?t=9446

http://www.thaqafa.org/Main/default....7-43276adc19a3

http://www.majma.org.jo/majma/index.php/2008-12-21-12-19-28.html

http://www.majma.org.jo/majma/index.php/2009-02-10-09-36-00/233-m619.html

الإيداع القانوني : 2005-1513
ISSN : 1112-65-23 ردمد